

حكاية النبات

من آيات الخلق إلى مشاهد الآخرة

في ضوء القرآن الكريم وروايات أهل البيت عليهم السلام
مع قراءة للمعرفة العلمية في حدود أدلتها



تأليف الباحث والكاتب
السيد حسام زهاء مرتضى الصراف الحسيني

التأليف: ١٣ جمادى الأولى ١٤٤١ هـ - ٩ يناير ٢٠٢٠ م

المراجعة الأولى: ٢٥ رجب ١٤٤٤ هـ - ١٧ فبراير ٢٠٢٣ م

المراجعة الثانية: ٨ ربيع الآخر ١٤٤٨ هـ - ٢٠ سبتمبر ٢٠٢٦ م

ISBN: 978-1-7642390-2-8



9 781764 239028

بسم الله الرحمن الرحيم

حكاية النبات

من آيات الخلق إلى مشاهد الآخرة

في ضوء القرآن الكريم وروايات أهل البيت عليهم السلام

مع قراءة للمعرفة العلمية في حدود أدلتها

الكتاب الثاني في سلسلة من أحد عشر كتاباً

تأليف الباحث والكاتب

السيد حسام زهاء مرتضى الصراف الحسيني

اكتمال التأليف: ١٣ جمادى الأولى ١٤٤١ هـ - ٩ يناير ٢٠٢٠ م

ذكرى استشهاد السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام - الرواية الثانية

اكتمال المراجعة الأولى: ٢٥ رجب ١٤٤٤ هـ - ١٧ فبراير ٢٠٢٣ م

اكتمال مراجعة ٢٠٢٦: ٨ ربيع الآخر ١٤٤٨ هـ - ٢٠ سبتمبر ٢٠٢٦ م

بيانات الكتاب وتاريخ العمل

أقدم في «حكاية النبات - من آيات الخلق إلى مشاهد الآخرة» رحلة في حياة النبات وأسمائه وأوصافه في القرآن الكريم، وما ورد بشأنه في روايات النبي صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام. وأتبع صلته بالغذاء والعمل والعبادة والبيئة، ثم أنتقل إلى ما أخبر به الوحي عن الأشجار والثمار في مشاهد الغيب والآخرة. أكملت تأليف هذا الكتاب في ١٣ جمادى الأولى ١٤٤١هـ - ٩ يناير ٢٠٢٠م، ذكرى استشهاد السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام بحسب الرواية الثانية.

أكملت المراجعة الأولى في ٢٥ رجب ١٤٤٤هـ - ١٧ فبراير ٢٠٢٣م، ثم أكملت مراجعة ٢٠٢٦ في ٨ ربيع الآخر ١٤٤٨هـ - ٢٠ سبتمبر ٢٠٢٦م. وفي هاتين المراجعتين عدت إلى ما كتبتة بالتدقيق والتحديث والتوسعة، وأدرجت ما استجد في تجربتي ومعرفتي في موضعه الزمني.

أقدم هذه النسخة العربية بعد توسيع مباحثها ومراجعة نصوصها وإحالاتها. وأحرص على أن يعرف القارئ مصدر كل معلومة وحدود ما وصلت إليه؛ فأميز بين الآية القرآنية والتفسير والرواية والبحث العلمي، وأبين في الملاحق ما أنجزته من التحقيق وما بقي محتاجاً إلى دراسة.

الإهداء

إلى الباحثين عن الحقيقة العلمية والدينية، الذين لا يكتفون بما شاع على الألسنة، ولا يأنفون من الرجوع عن الخطأ؛ إلى من يفتحون كتاباً ليزدادوا فهماً، وينظرون إلى ورقة خضراء ليزدادوا سؤالاً، ويجعلون الأمانة رفيقة ما يتعلمون وما يعلمون.

إلى والدي العزيز ووالدي العزيزة؛ عرفاناً بأصل لا تنفصل عنه أغصان العمر، ووفاءً لما منحتماه من رعاية ومحبة وتشجيع. إن كان في هذه الصفحات خير، فلكما من الدعاء والشكر ما لا تحيط به عباراتها.

إلى زوجتي، رفيقة المسيرة؛ شكراً للصبر على أوقات القراءة والكتابة والانشغال، وللمساندة التي تحمل العمل قبل أن يراه القارئ. لك في هذا الكتاب نصيب من الامتنان، كما لك في حياتي نصيب من الطمأنينة والعون.

إلى أولادي؛ أرجو أن تجدوا في هذه الحكاية دعوة إلى التأمل والتعلم والرفق. ازرعوا خيراً حيث استطعتم، واحفظوا ما أوتمنتم عليه، واسألوا عن الدليل، ولا تجعلوا المعرفة سبباً للتعالي على أحد.

إلى مدرّسي مادة الزراعة والأحياء، وإلى أساتذتي الذين قربوا إليّ فهم الحياة، وأخص بالذكر الأستاذ كامل، مدرّس مادة الأحياء في إعدادية الحمزة؛ وفاءً لما تعلّيته في دروسه، وتقديراً لفضل التعليم الذي يبقى أثره بعد انقضاء السنوات. وإلى أساتذتي في قسم صحة المجتمع بالمعهد التقني الطبي في محافظة الديوانية، الذين كانت دراستي على أيديهم جزءاً من تكويني العلمي والصحي.

إلى معلّتي الأولى في القرآن الكريم، الأستاذة أم دعاء، مدرّسة التربية الإسلامية في المرحلة الابتدائية؛ وفاءً لبداية ما زال أثرها حاضراً في نفسي، ولدرسٍ امتدّ معناه إلى ما بعد مقاعد المدرسة.

وإلى أول شيخ درست عنده خلال فترة دراستي القصيرة جداً في حوزة النجف، الشيخ الأكرم عبد الرسول السوداني الناصري؛ وإلى كل من أعانني على القراءة والفهم والسؤال. أحفظ لكم مكانكم في رحلة تعلّمي، وأسأل الله أن يجزيكم عني خيراً.

إلى روح سماحة الشيخ أحمد الوائلي، رحمه الله؛ وفاءً لأثر الكلمة التي صحبت نشأتنا، وقربّت إلينا حب المعرفة والدين، وربطت البيان بمسؤولية خدمة المستمع والقارئ.

وإلى المزارعين والغارسين، وإلى من يعتنون بشجرة لا ينتظرون أن يستظلوا بها وحدهم؛ وإلى طلابي وكل شاب وفتاة يجدون في حديقة أو كتاب بداية سؤال جديد؛ أهدي هذه الحكاية، راجياً أن تكون نافعة، وأن تجمع في قلب قارئها محبة الخلق وشكر الخالق.

كلمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين، الذي جعل في الأرض أسباب الحياة، وفي اختلاف النبات ما يوقظ النظر ويجدد السؤال، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين.

لم تنشأ صلتي بالنبات من الكتابة عنه وحدها. فقد التقت في حياتي الدراسة بالهواية، والقراءة بالملاحظة، والاهتمام بالصحة بحب الأرض والشجر. درست مادة الزراعة في المرحلة المتوسطة، فكانت جزءاً من تعريفي المنظم إلى هذا العالم. ثم تابعت دراستي في القسم العلمي من المرحلة الإعدادية، وتناولت في مادة الأحياء علم النبات، بما يفتحه من أسئلة عن البنية والنمو والتكاثر.

واستمرت صلتي بالعلوم في قسم صحة المجتمع بالمعهد التقني الطبي في محافظة الديوانية، ضمن دراستي الطبية التقنية وتأهيل في مجال البحث الطبي الوقائي. وقد عززت هذه الخلفية اهتمامي بعلاقة الإنسان بغذائه وبيئته، وبقيمة الوقاية ودقة المعلومة. وهي خلفية أذكرها لتعريف القارئ بالطريق الذي جئت منه، لا لأدعي بها الإحاطة بكل فروع الطب أو علم النبات.

وكان للزراعة في حياتي وجه آخر: ولع وهواية وممارسة، بدأت في العراق ورافقتني إلى أستراليا. ففي متابعة شجرة تنمو، أو طعم ينجح أو يخفق، ما يعلم المرء الصبر واحترام الأسباب. لا تستجيب الشجرة للرغبة وحدها؛ فهي تحتاج إلى وقت وبيئة وعناية، وقد تدفعنا النتيجة غير المتوقعة إلى تصحيح فهمنا قبل تكرار التجربة.

أقدم نفسي في هذا الكتاب باحثاً وجامعاً لما استطعت الوصول إليه في بواطن الكتب. لست رجل دين ولا صاحب دعوى في الاجتهاد الشرعي، ولا أضع نفسي مكان عالم متخصص في كل مسألة أتناولها. عملي أن أجمع المادة من مصادرها، وأرتبها وأشرح ما يتيسر منها، وأن أنسب الأقوال إلى أصحابها وأصرح بما لم يتضح لي.

وأردت أن تكون «حكاية النبات» رفيقة للقارئ العام، تحفظ حرمة النص ودقة العلم. فالنبات في القرآن باب إلى التوحيد والشكر والبعث والعدل، وفي المختبر والمزرعة موضوع للملاحظة والتجربة. وقد يلتقي السؤالان في تأمل واحد، لكن أدوات إثباتهما ليست متطابقة، ولا يغني حسن المقصد عن صحة النقل.

وما كان في هذا العمل من صواب فن توفيق الله، وما وقع فيه من خطأ أو تقصير فمسؤوليته عليّ. وأعدّ الملاحظة التي تصلح عبارة أو تضبط مصدراً خدمة للكتاب، وأشكر من يعينني على أدائها.

السيد حسام زهاء مرتضى الصراف الحسيني

المقدمة العامة — حكاية تبدأ من النظر

قد يمر الإنسان بجوار شجرة مرات كثيرة، ثم لا يتوقف عندها إلا حين يحتاج إلى ثمرها أو ظلها. غير أن ما يبدو مألوفاً يخفي أسئلة واسعة: كيف خرج هذا الغصن من بذرة؟ وكيف تحمل الأرض الواحدة نباتات تختلف في اللون والطعم والرائحة؟ ولماذا يقتزن الزرع في آيات كثيرة بالماء والرزق والشكر، ثم يعود في آيات أخرى مثلاً للبعث أو لفناء الدنيا؟

تبدأ الحكاية من مشهد دعانا القرآن إلى تأمله: ماء ينزل، ونبات يخرج، وثمر يختلف لونه وطعمه ثم ينضج. وتجتمع هذه المعاني في آية سورة الأنعام التالية، وتليها آيات سورة عبس التي تصل طعام الإنسان بالماء والأرض والزرع، وتذكر معه منفعة الأنعام. ومن هذا المشهد القريب تنفتح أسئلة الكتاب.

الآيات التي تنطلق منها الحكاية

سورة الأنعام، الآية ٩٩.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٩٩﴾

تبدأ الآية بالماء، ثم تظهر ما يخرج به من خضرة وحبوب ونخيل وأعناب وزيتون ورمان. وبعد تعداد الثمار تدعو إلى النظر في ظهورها ونضجها؛ ومن هذه الحركة أبدأ الحكاية، متبعاً النبات في نموه، لا مكثفياً بأسمائه.

سورة عبس، الآيات ٢٤-٣٢.

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ ﴿٢٤﴾

﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ ﴿٢٥﴾

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ ﴿٢٦﴾

﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ ﴿٢٧﴾

﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ ﴿٢٨﴾

﴿وَزَيَّنَّا وَنَحْلًا﴾ ﴿٢٩﴾

﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾ ﴿٣٠﴾

﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ ﴿٣١﴾

﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنعَامِكُمْ﴾ ﴿٣٢﴾

تعيد هذه الآيات طعام الإنسان إلى بدايته: ماء ينزل، وأرض تنشق، ثم حب وثمر وحدائق تتنوع منافعها. وتختتم بما ينتفع به الناس وأنعامهم؛ فتمنح النظر إلى المائدة امتداداً في الأرض وفي حياة الأحياء الذين يشاركوننا مواردها.

ليس معنى «الحكاية» هنا أن نصوغ للنبات تاريخاً من الخيال، أو ننسب إلى نبي قولاً لا يثبت عنه. المقصود أن نجتمع مشاهد متفرقة في بناء يستطيع القارئ أن يتابعه: من البذرة إلى الجذور، ومن الثمرة إلى المائدة، ومن البستان إلى حقوق العامل والمحتاج، ومن خضرة الأرض إلى ما أخبر به الوحي عن الآخرة.

ويعمضي الكتاب في ثمانية أبواب. يعرض أولها الحياة النباتية بلغة علمية ميسرة، ثم يجمع الثاني الأسماء والأوصاف القرآنية. ويتبع الثالث حضور النبات في قصص الأنبياء وأهل البيت، ويقرأ الرابع الأمثال والمواعظ. ويعني الخامس بالمرويات الغذائية والعطرية والطبية، والسادس بالعمل والحقوق والعبادة، والسابع بالبيئة والمعرفة الزراعية، وينتهي الثامن بمشاهد الغيب والآخرة.

ولكل عودة إلى النبات سؤالها: يشرح فصل النخلة بنيتها وثمرها، ويقرأ فصل مريم حضورها في القصة، وتتناول فصول الحقوق وجوه الانتفاع بالمحصول. وتصل الإحالات بين هذه المواضع، حتى تتكامل المعرفة من غير إعادة الشرح نفسه.

ولن يكون ذكر النبات منفصلاً عن الإنسان الذي ينتفع به. ففي الزرع عامل يتعب، وماء يُقسم، وثمر يُباع، ومحتاج يرجو نصيباً. لذلك تنتهي معرفة بعض الظواهر إلى سؤال السلوك: ماذا نفعل بما عرفنا؟ وكيف نحفظ النعمة ونؤدي الحق؟

كلمة المراجعة والتحديث – ٢٠٢٣ م

عدت إلى الكتاب سنة ٢٠٢٣ م وفاءً لموضوعه ولقارئه، ورغبةً في أن أقدم المعلومة بأوضح عبارة وأدق إحالة. فالنقل الذي يبدو واضحاً عند القراءة الأولى قد يكشف عند مراجعته عن كلمة من شرح المصنف دخلت في متن الرواية، أو اسم نبات استعمل لمعانٍ متعددة، أو قول يحتاج إلى ضبط مصدره. لذلك راجعت عباراتي ومراجعي، وأعدت النظر في ترتيب المادة وصلتها بأبواب الكتاب.

وفي السنوات التي تلت التأليف الأصلي اتسعت تجربتي الزراعية. فقد ارتبط عملي في تطعيم الأشجار بإنجاز غينيس سنة ٢٠٢١ م؛ وتوضح صفحة الزراعة في موقعي الفرق بين الأصناف المتعددة التي تناولتها التغطيات الإعلامية والأنواع التي بُني عليها الاعتراف بالإنجاز. ولا أحول هذه التجربة الشخصية إلى دليل على تفسير آية أو تصحيح رواية؛ إنما أذكرها شاهداً على استمرار اهتمامي بالتجربة والتعلم.

وفي سنة ٢٠٢٢ م شاركت خبرتي في التطعيم والإكثار مع طلاب الزراعة في اعدادية شيبارتون الثانوية الكبرى، ثم جاء تقدير المدرسة لدعمي برنامج البستنة وحديثها سنة ٢٠٢٣ م. أعادت هذه اللقاءات إلى ذهني قيمة التعليم المبكر الذي تلقينته، وأكدت أن المعرفة تزداد نفعاً حين تُشارك وتُختبر وتُشرح بلغة قريبة من المتعلم. جمعت في هذه المراجعة ملاحظاتي العلمية والمصدرية، وعملت على تحسين الصلة بين الأبواب، وحرصت على أن أروي تجربتي الشخصية في موضعها، وأن أعرض مادة البحث بأدلتها ومصادرها.

كلمة المراجعة والتحديث – ٢٠٢٦م

في مراجعتي سنة ٢٠٢٦م عدت إلى الأسئلة التي بدأت بها، وقد ازدادت إدراكاً لحاجتها إلى الدقة والصبر. فما تتعلمه عن النبات واسع، وما يُنشر باسمه ليس على درجة واحدة من الثبوت. وقد رأيت كيف تنتقل عبارة من مصدر إلى عشرات الصفحات حتى تبدو مسلّمة، مع أن كثرة تكرارها لا تضيف إلى دليلها شيئاً.

ولهذا ركزت على ضبط النص الذي أنقله، والمعنى الذي أفهمه منه، والنتيجة التي أبنيتها عليه. فقد تصحح العبارة في مصدرها ولا يصح توسيعها إلى كل سياق، وقد ترد منفعة غذائية عامة فلا تسوّغ وصف علاج لمريض بعينه. ولا أعدّ الرواية قطعية لجرد أنها توافق ما أحب؛ بل أرجع إلى مصدرها وأتبع ما ييسر لي من بحثها.

واعتنيت بالمصطلحات العلمية، وبالفروق بين النوع والصنف، والتطعيم والتهجين، والتلقيح والإخصاب، واللغة العامة والتصنيف النباتي. وفي مشاهد الغيب التزمت حدود ما أخبر به النص، فلم أجعل اشتراك ثمار الجنة مع ثمار الدنيا في الاسم دليلاً على إحاطتي بحقيقتها.

أرجو أن يجد القارئ في هذه المراجعة لغة أوضح وإحالات أدق وبناء يسهل الرجوع إليه. وقد جعلت سجل التحقيق في نهاية الكتاب بياناً لما أنجزته وما أواصل بحثه؛ فخدمة المعرفة عندي تبدأ بالصدق في وصف ما وصلت إليه، وبالاستعداد لتصحيح ما يتبين خطؤه.

منهج الكتاب ومصادره

القرآن الكريم أصل البناء

أبدأ بالآية في سياقها، وأجمع نظائرها قبل استخلاص النتيجة. وأورد الآيات التي أستشهد بها كاملة، مع اسم السورة وأرقام الآيات، في موضع شرحها من المقدمة والفصول والمشاهد المتممة. وأوضح سياق كل مقطع، ومن يتحدث عنهم وتسلسل أحداثه حين يروي قصة، ثم أصل ذلك بموضوع النبات ومعنى الاستشهاد. وحين أعلق على لفظ أو جزء من آية أبقى نصها الكامل إلى جوار الشرح، ولا أكتفي بالإشارة إلى رفقها، ولا أنسب إلى القرآن تعييناً لم يذكره.

الرواية بين وجود النص وثبوت النسبة

أفرّق بين وجود الخبر في كتاب حديث وثبوت نسبته إلى المعصوم؛ فوجوده وحده لا يكفي للحكم بصحته. وأنظر في سلسلة النقل ومتن الخبر وما يعارضه أو يؤيده، وأستفيد من أحكام أهل الاختصاص مع نسبتها إليهم. وحين لا أستكمل هذا الفحص أستعمل «ورد» أو «روى» مع بيان المصدر، وأوضح حدود ما أمكنني التحقق منه.

أبين في قائمة المصادر وبطاقات التوثيق الكتب والمواضع التي رجعت إليها، وفي مقدمتها الكافي وكتب التفسير والسيرة. وأستعين بالجامع، مثل وسائل الشيعة وبحار الأنوار، للوصول إلى طرق الخبر وأصوله المتاحة. وأذكر كل مصدر أستعمله، موضعاً ما راجعته مباشرة وما نقلته بواسطة مصدر آخر.

التفاسير واللغة

أستفيد من التبيان ومجمع البيان والميزان والتفاسير الروائية، وأميز اجتهاد المفسر من الرواية التي ينقلها. وحين يختلف اللغويون في اسم نبات أعرض الأقوال المؤثرة في المعنى، وقد أترك تعيين مقابله الحديث مفتوحاً إذا لم يتضح دليله. ولا ألزم النص باسم علمي لمجرد أن صورة منشورة تحمل الاسم العربي نفسه.

المعرفة العلمية

أشرح الظواهر العلمية بلغة ميسرة، وأحيل إلى المراجع التي تساندها، وأفرّق بين القاعدة العامة ونتيجة الدراسة المحدودة وتجربتي الشخصية. وعند مناقشة فائدة طبية أراعي نوعية الدليل، وأتعامل مع التجربة المنزلية بوصفها ملاحظة تحتاج إلى تقييم قبل تعميمها.

وحدة السرد وحدود الاستقصاء

أسعى إلى جمع المادة جمعًا واسعًا ومنظمًا، وأبينّ حدود ما استطعت الوصول إليه. ولهذا رتبت الأسماء والآيات والأخبار في الملاحق، حتى يسهل الرجوع إليها واستدراك ما قد يفوتني. وحين لا أجد ما يكفي للحسم أترك المسألة مفتوحة، وأواصل البحث فيها.

تمهيد — ماذا نعني بالنبات؟

في الكلام اليومي تُجمع الشجرة والعشب والزهرة تحت اسم النبات. ويستعمل القرآن ألفاظاً تقرب المشهد إلى المخاطب: زرعاً وثمرًا وحبًا ونخلًا وحدائق. أما علم النبات فيسأل أيضًا عن الخلية والأنسجة والتكاثر والقرابة التطورية، فتكون حدوده وتقسيماته أكثر تخصصًا.

ولا يتطابق الاسم الغذائي دائماً مع الاسم العلمي. فما يسمى خضاراً على المائدة قد يكون ثمرة من جهة التكوين النباتي، والفاكهة في الاستعمال العام لا تساوي قسمًا تصنيفيًا مستقلًا. وكذلك النوع غير الصنف؛ فقد تحمل الشجرة أصنافاً متعددة من نوع واحد، وقد تنجح عليها طعوم من أنواع متقاربة بحسب التوافق.

وكانت مصنفات قديمة تتناول الفطر وبعض الطحالب ضمن مواد قريبة من النبات، بينما تميزها التصنيفات الحديثة أو توزعها في مجموعات مختلفة. أحفظ اللفظ التاريخي عند نقله، ثم أشرح الفرق، فلا أخطئ استعمالاً قديماً لمجرد أنه لا يطابق غرض مصطلح حديث.

ونبدأ الحكاية من النبات الذي نرصده في الدنيا. أما الشجر والثمر في مشاهد الآخرة فنرجع في وصفهما إلى الوحي؛ فاشترك الأسماء يقرب المعنى إلى السامع، لكنه لا يمنحه علماً بكل حقيقة ما لم يشهده.

الباب الأول: حكاية الحياة الخضراء

تبدأ الرحلة بما تستطيع العين أن تتابعه: بذرة توضع في الأرض، وبادرة تظهر، وورقة تفتح، وثمره يبلغ نضجها. وبين هذه الصور عمل لا نراه كله، لكنه يتكشف بالسؤال والملاحظة. سنصحب النبات في نموه، ونقترب من الماء والتربة والضوء وأجزائه التي تتعاون على حياته، حتى يصبح النظر إلى شجرة مألوفة بداية فهم يتجدد.

الفصل الأول: النبات في مشهد الخلق

شاهد التعدد في رزق واحد

﴿يُنَبِّتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

القرآن الكريم، سورة النحل، الآية ١١.

نتنقل الآية من الزرع إلى أشجار وثمرات يعرفها الناس، ثم تفتح النظر على سعة الرزق بقولها: «ومن كل الثمرات». ويختم المشهد بدعوة إلى التفكير؛ فكأن معرفة أسماء ما نأكل بداية السؤال. وراء الخبز والزيت والعنب أرض وماء ونمو وعمل، ووراء اعتياد هذه النعم قدرة على استعادة الدهشة بها. ومن هذا الباب تبدأ حكاية النبات: أن يعود المألوف جديراً بالنظر، وأن تقود المعرفة بمنفعة الشيء إلى الشكر وحسن الانتفاع.

الأرض التي تخرج الحياة

سورة النازعات، الآيات ٣٠-٣٣.

﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ ﴿٣٠﴾

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ ﴿٣١﴾

﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ ﴿٣٢﴾

﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ ﴿٣٣﴾

تبدأ الصورة بالأرض التي هيأها الله للحياة، ثم بالماء والمرعى وما ثبت فيها من جبال. وتنتهي ببيان الغاية القريبة من هذه النعم: انتفاع الإنسان وأنعامه؛ فالنبات جزء من إعداد الأرض لسكنى الأحياء، لا مشهد منفصل عنها.

سورة طه، الآيات ٥٣-٥٤.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ ﴿٥٣﴾

﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾ ﴿٥٤﴾

في سياق الحوار بين موسى عليه السلام وفرعون، يذكر الخطاب ربّ جعل الأرض ميسرة للسير وأنزل الماء فأخرج نباتاً متنوعاً. ثم يتجه إلى الأكل ورعي الأنعام، لتصبح الحاجة اليومية باباً للنظر في الخلق ودليلاً يدركه أصحاب العقول.

أرى في اجتماع هذه النعم أرضاً تتبهاً عليها أسباب الحياة: ماء يبلغ النبات، ونبات يطعم الناس والأنعام، ومسالك تصل المنتفعين بمواردهم. ومن تأمل الصلة بينها ينشأ سؤال الشكر والمسؤولية عما أُتيح لنا الانتفاع به.

قبل وجود الإنسان

سورة الواقعة، الآيات ٦٣-٦٧.

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ ﴿٦٣﴾

﴿أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ ﴿٦٤﴾

﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ ﴿٦٥﴾

﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ ﴿٦٦﴾

﴿بَلْ نَحْنُ مُحْرَمُونَ﴾ ﴿٦٧﴾

يواجه الخطاب الزراعين بسؤال يبدأ مما تعمل أيديهم: يحرثون ويبدرون، ولكن إنبات الزرع ونمائه ليسا مضمونين بإرادتهم. ولو صار الزرع حطاماً لظهر عجزهم وحسرتهم؛ وهكذا يجتمع الاعتراف بعمل الإنسان مع شكره لواهب النماء.

يبدأ السؤال من يد الزارع وما تستطيع عمله، ثم يمتد إلى الشروط التي تتوقف عليها حياة الزرع. أما تاريخ النبات في الأرض ومراحل ظهوره، فله أدلته التي أتناولها في المبحث التالي.

ما يدرسه العلم

يجت تاريخ الحياة النباتية في الأحافير والأبواغ والأنسجة وآثار البيئات القديمة، ويقارنها بما نعرفه عن الكائنات الحالية. وتفيد هذه الأدلة في إعادة بناء تحولات الحياة على اليابسة، لكنها تحتاج إلى تفسير علمي ومقارنة مستقلة. ولا يكفي ترتيب فقرات آية لصناعة جدول زمني يحل محل هذا البحث.

أول شجرة وأول زرع

حين يرد خبر يسمي أول شجرة أو يربط نوعاً بعينه ببداية الخليقة، يبدأ التحقيق من مصدره وطريقه. لا نملأ هذا الموضع باسم مشهور بلا دليل، ولا نعدّ مجهول التفاصيل منفي الوجود. وللقارئ أن يتأمل أصل النعمة دون أن يشترط لمعرفة فضلها امتلاك قصة تفصيلية عن أول أفرادها.

من سؤال السبب إلى معنى المسؤولية

يمكن قراءة مشهد الإنبات على ثلاثة مستويات متكاملة: ما الذي يحدث أماننا، وكيف تحدث العملية، وماذا يترتب على انتفاعنا بها؟ يصف المستوى الأول خروج البادرة، ويبحث الثاني في الماء والحرارة وبنية البذرة، ويفتح الثالث سؤال الشكر والرعاية والعدل في الانتفاع. يختل الفهم حين نطلب من وصف تجريبي أن يجيب عن كل سؤال أخلاقي، أو حين نستعمل الموعظة لإعفاء أنفسنا من معرفة أسباب النجاح والإخفاق.

وفي خطاب سورة الواقعة فرق دقيق بين ما يباشره الزارع وبين ما تقوم عليه حياة الزرع. فالإنسان يحرث ويذر ويتعهد، ولكن جهده يعمل داخل عالم لم يخلق شروطه الأولى. ومن هذه الزاوية لا تكون العناية

بالمزرعة منافسة للتوكل، بل صورة من استعمال الأسباب مع الاعتراف بحدود القدرة. ويبقى هذا تأملاً في دلالة السياق، لا خبراً إضافياً عن ترتيب الخلق أو تاريخ أول شجرة.

إحالات الفصل: سورة طه ٥٣-٥٤؛ سورة النازعات ٣٠-٣٣؛ سورة الواقعة ٦٣-٦٧. ولم أعتمد في هذا الفصل خبراً يعين أول نبات.

الفصل الثاني: الأرض التي تحتضن البذرة

التربة ليست مادة واحدة

حين ننظر إلى حفنة تراب، قد نرى لوناً واحداً، لكنها تجمع مواد معدنية وبقايا عضوية وماء وهواء وكائنات حية. ويؤثر حجم الحبيبات في المسام التي تسمح للماء والهواء بالحركة. لذلك لا تتساوى أراضان في ملاءتهما لنبات واحد، ولا تختصر الخصوبة في كثرة السماد. [ع ١٤]

جذور تنفس

تحتاج الجذور الحية إلى ظروف تسمح بوظائفها، وقد يضر تشبع التربة بالماء بهويتها. وفي المقابل يحد الجفاف من وصول الماء والعناصر. فالعناية بالأرض ليست الإكثار من الري على الدوام، بل فهم حاجة النبات وطبيعة الوسط الذي ينمو فيه؛ ولهذا تختلف الممارسة المناسبة باختلاف الموقع والموسم.

تاريخ تحفظه الأرض

تتكون التربة بتفاعل المادة الأصلية والمناخ والكائنات والتضاريس والزمن. وتترك الزراعة والرعي والضغط والانجراف آثاراً فيها. وقد تبدو الطبقة الخصبية مورداً متجدداً بلا كلفة، لكن خسارتها أسرع من إعادة بنائها في أحوال كثيرة. وحفظها عناية بمستقبل الزرع، لا بالمحصول الحاضر وحده. [ع ١٤]

البلد الطيب

سورة الأعراف، الآيات ٥٧-٥٨.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ^ط حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٥٧﴾
﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ^ط وَالَّذِي حَبِثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا^ج كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾

﴿٥٨﴾

تتحرك الصورة من الرياح المبشرة إلى السحاب المحمل بالماء، ثم إلى أرض ميتة تحيا وتخرج الثمرات. ويُقرب هذا المشهد معنى البعث، ثم يلفت اختلاف خروج النبات من الأرض الطيبة والخبيثة النظر إلى اختلاف الاستجابة والعطاء.

تقرب صورة الأرض الطيبة معنى الاستجابة والعطاء إلى ذهن المخاطب. وأقرأها في غرضها من الاعتبار، مع تمييز هذا الغرض من تصنيف التربة بأدوات العلم؛ فوصف الأرض في المثل لا يتضمن حكماً أخلاقياً على سكان منطقة بعينها.

قراءة الأرض قبل الحكم عليها

لنتصور إناءين وُضعت فيهما بذور من دفعة واحدة، ثم اختلف نموها. ليس اختلاف النتيجة دليلاً كافياً على سبب بعينه؛ فقد تتفاوت رطوبة الوسط أو تهويته أو الضوء الواصل إليه. تساعدنا الملاحظة المنظمة على الانتقال من الانطباع إلى السؤال المحدد: ما العامل الذي تغير، وما العوامل التي بقيت متقاربة؟ وهذه طريقة للتعلم، وليست وصفة موحدة لاختبار كل تربة.

سورة الرعد، الآية ٤.

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لُبُّ بَعْضِهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٤﴾

تجاور قطع الأرض لا يحو اختلافها، والماء الواحد لا يجعل ثمارها سواء. تجمع الآية الزرع والكروم والنخيل في مشهد يراه الإنسان، ثم تدعوه إلى تعقل هذا التنوع؛ فاشترك الأسباب الظاهرة لا يلغي تفاوت الطعم والنتاج.

ويضيء مشهد القطع المتجاورات في سورة الرعد معنى آخر: القرب المكاني لا يحو الاختلاف. فقد نطلق على مساحة واسعة اسم «أرض واحدة» مع أن تفاصيلها المؤثرة كثيرة. لذلك يبدأ احترام الأرض من الإصغاء إلى خصائصها، لا من إلزامها بما نجح في مكان آخر. وفي هذا تربية على التواضع المعرفي أيضاً؛ إذ تظل النتيجة الجيدة قابلة للتفسير والتحسين، ولا تتحول إلى قانون بمجرد أنها وافقت رغبتنا.

إحالات الفصل: سورة الأعراف ٥٧-٥٨؛ سورة الرعد ٤؛ المرجع العلمي [١٤].

الفصل الثالث: الماء والنور والهواء — أسباب النماء

قطرة تصل بين السماء والأرض

سورة النحل، الآيات ١٠-١١.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ط لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ ﴿١٠﴾
﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ق إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾
﴿١١﴾

يمضي تعداد النعم من ماء يشربه الإنسان إلى شجر ترعى فيه الأنعام، ثم إلى زروع وأشجار مثمرة. وبذلك يظهر الماء رابطاً بين حاجات الناس والحيوان والنبات، ويصير تنوع الطعام دعوة إلى التفكير في مصدره. ومن متابعة الماء أقرب من العلاقة بين السبب والنعمة: أدرس حركته في السحب والأرض والنبات، وأتذكر في الوقت نفسه مسؤولية من ينتفع به. وهكذا يتسع النظر من معرفة طريق وصوله إلى حسن استعماله.

الضوء مورد للطاقة

يستعمل النبات الأخضر طاقة الضوء في بناء مركبات عضوية من مواد أبسط. ولا يعني ذلك أن كل نبات يحتاج إلى شدة الإضاءة نفسها، أو أن الحرارة المرتفعة تزيد نموه دائماً. تختلف الأنواع في متطلباتها، وتعمل الإنزيمات والأنسجة ضمن حدود تتأثر بالبيئة. [٢٤]

ما يؤخذ من الهواء

يدخل ثاني أكسيد الكربون في بناء المادة العضوية، وتشارك الغازات أيضاً في التنفس. ولا يعيش النبات على الماء والمعادن وحدها؛ فالهواء جزء من حاجته. وحين تتبدل الظروف تتبدل سرعة العمليات، وقد يصبح حفظ الماء أهم للنبات من إبقاء تبادل الغازات على حاله.

النعمة لها شروط

الماء العذب نعمة، لكن الإفراط في الري قد يضر، والشمس سبب للنمو، لكن الحر الشديد قد يجهد الأنسجة. يعلننا ذلك أن نفهم الأسباب مجتمعة؛ فليس نجاح البستان دليلاً على قدرة الإنسان المطلقة، ولا إخفاق تجربة سبباً لإنكار قيمة المعرفة الزراعية.

رحلة الماء في جسم النبات

لا ينتقل الماء في النبات لأن له قلباً يضخه إلى أعلى. تدخل في انتقاله فروق الجهد المائي، ويسهم فقد الماء من الأوراق في شد عمود الماء داخل أنسجة الخشب، مع تماسك جزيئاته وتفاعلها مع الجدران. ويتصل ذلك بظروف الجذر والهواء وتنظيم الثغور. ولهذا لا يفصل ما يحدث في الورقة عن الماء المتاح في التربة. [١١٤]

سورة الزمر، الآية ٢١.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾﴾

يتابع القارئ هنا رحلة الماء من السماء إلى ينابيع الأرض، ثم أثره في زرع مختلف الألوان. وبعد النضارة يأتي الاصفرار والحطام؛ فتجمع الآية نشأة النبات ونهاية دورته لتوقظ النظر في التغير، لا في لحظة الخضرة وحدها.

ويمكن أن يبدأ التأمل من سؤال بسيط: كيف تصل قطرة إلى ورقة عالية؟ يفتح السؤال باباً للفيزياء والتشريح ووظائف الأعضاء، ثم يعيد القارئ إلى وحدة المشهد الذي تجمع فيه الآيات بين الماء والأرض والثر. لا نحتاج إلى نسبة كل تفصيل اصطلاحي إلى لفظ الآية كي نرى قيمة الدراسة؛ فالتفسير يحفظ دلالة النص، والبحث يوسع معرفتنا بالعالم الذي يدعونا النص إلى النظر فيه.

إحالات الفصل: سورة النحل ١٠-١١؛ سورة الزمر ٢١؛ المرجعان [١٤، ٢٤].

الفصل الرابع: الحبة والنواة — الحياة المستترة

نص الفلق وخروج الحياة

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ^ط يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ^ج وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ^ط ذَلِكُمْ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾

القرآن الكريم، سورة الأنعام، الآية ٩٥.

يجمع النص الحب والنوى، وهما مما يقع في يد الإنسان صغيراً محدوداً، ثم يفتح المعنى على إخراج الحي من الميت. والانتقال من صورة الفلق إلى السؤال في خاتمة الآية يجعل المشهد حجة على الناظر ومسؤولية في توجيهه. أما البذرة القابلة للإنبات ففيها حياة؛ فلا يصح أن نجعل سكونها الظاهر تعريفاً علمياً للموت. يقرأ المؤمن الآية في أفقها، ويصف الباحث مراحل الإنبات بما تدل عليه الملاحظة، ويزداد فهمه حين يحسن التمييز بين المقامين.

داخل الغلاف

تضم البذرة جيناً ومصدراً للغذاء المخزون وغلافاً يحميها، مع اختلاف هذه البنية بين المجموعات النباتية. قد تبدو ساكنة للعين، لكن سكونها الظاهر لا يجعلها جماداً. وتساعد حالتها السكون في أنواع كثيرة على تأخير الإنبات حتى تنهيا ظروف أنسب. [٣٤]

بداية الإنبات

سورة عبس، الآيات ٢٥-٢٧.

﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ ﴿٢٥﴾

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ ﴿٢٦﴾

﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ ﴿٢٧﴾

تُعرض بداية الطعام في حركات متتابعة: ماء ينصب، وأرض تنشق، وحبّ ينبت. ولا تروي الآيات حادثة حقل بعينه، بل تستدعي أصل القوت المألوف إلى التأمل، حتى يرى الإنسان وراء طعامه سلسلة من أسباب الحياة.

يتمتع كثير من البذور الماء، وتستأنف عملياتها الحيوية، ثم يخرج الجذير وتتقدم الأجزاء الأخرى. وتختلف حاجتها إلى الحرارة والضوء والمعاملة السابقة. لهذا لا تُستنسخ تجربة نوع على كل الأنواع، ولا يدل عدم الإنبات فوراً على موت كل بذرة.

غذاء البداية

يعتمد النبات الصغير أولاً على مخزونه، ثم تتدرج أجزاؤه في أداء وظائفها. ومع تكون أوراق قادرة على البناء الضوئي تتغير مصادر إمداده. وتبين هذه المرحلة لماذا تحتاج البدايات إلى العناية: فحفظ البذرة وحده لا يكفل استمرار البادرة بعد خروجها.

فالق الحب والنوى

تصف سورة الأنعام، الآية ٩٥، الله بأنه فالق الحب والنوى. يوجه الوصف النظر إلى خروج الحياة من موضع يبدو مغلقاً، ويربط ذلك بالقدرة الإلهية. وشرح الغلاف والجنين والإنبات يصف الكيفية المشاهدة، ولا يستنفد المعنى الإيماني الذي تستدعيه الآية.

البذرة بين الإمكان والتحقق

وجود بذرة سليمة لا يساوي ظهور نبات ناجح في كل ظرف. فالإمكان شيء، واجتماع شروط تحققه شيء آخر. ومن المفيد تربوياً أن يسجل المتعلم تاريخ البذر وما يلاحظه، وأن يميز بين بذرة لم تنبت بعد وبادرة ظهرت ثم ضعفت. التمييز بين المرحلتين يمنع جمع نتائج مختلفة تحت عبارة عامة مثل «لم تنجح الزراعة».

وفي التعبير عن فلق الحب والنوى ينتقل النظر من صغر الشيء المغلق إلى أثره المتجدد في العالم. لا تتوقف العبرة عند الدهشة من خروج ساق، بل تمتد إلى ما تحمله الحبوب والأنوية من استمرار للرزق. ومن هنا يمكن

قراءة حفظ البذور بوصفه حفظاً لإمكان مستقبل، مع بقاء التفصيل الزراعي متعلقاً بالنوع والبيئة. وليست كل حبة اسماً لنبات مستقل في فهارس القرآن؛ فقد يرد اللفظ عاماً دون تعيين المحصول.

إحالات الفصل: سورة الأنعام ٩٥؛ سورة عبس ٢٥-٢٧؛ المرجع [٣٤].

الفصل الخامس: الجذور والسيقان والأغصان — بناء النبات

ما لا نراه تحت الأرض

يثبت الجهاز الجذري النبات ويمتص الماء والعناصر، وقد يخزن الغذاء. وتختلف الجذور الوتدية والليفية وغيرها في انتشارها، فلا يدل حجم التاج وحده على شكل الجذور. وقد يسيء الإنسان إلى شجرة كبيرة حين يظن أن أثر الحفر ينتهي عند سطح التربة. [٤٤]

الساق ليست حاملاً فقط

تربط السيقان بين الأجزاء، وتحمل الأوراق والبراعم، وتنقل المواد، وقد تخزن الماء أو الغذاء. وتوجد سيقان متحورة تحت الأرض أو قريبة منها. لذلك لا يُعرف العضو من مكانه وحده؛ بل من تركيبه وصلاته ونمط نموه. [٥٤]

الخشب واللحاء

تنقل أنسجة الخشب الماء والمواد الذائبة، وينقل اللحاء نواتج عضوية بين مواضع إنتاجها واستهلاكها وتخزينها. وليس اللحاء مجرد قشرة خارجية، ولا كل خلايا الخشب من نوع واحد. وتقوم هذه الأنسجة بوظائف متكاملة داخل جسم نباتي حي. [٦٤]

وحدة الأجزاء

قد يضعف الغصن لخلل في الجذور، أو تتأثر تغذية النبات بخسارة أوراقه، أو يعوق جرح عميق انتقال المواد. لذلك يُفهم أثر الضرر بالنظر إلى موضعه وصلته بسائر الأعضاء. وتساعد معرفة هذه الروابط على تقدير أثر الحفر والتقليم والعناية بالشجرة.

النقل من مواضع الإنتاج إلى مواضع الحاجة

لا يصح تصوير حركة المواد في الشجرة كلها بسهم واحد صاعد وآخر هابط على نحو مطلق. يتجه نقل نواتج البناء الضوئي في اللحاء من مواضع إمداد إلى مواضع استهلاك أو تخزين، وقد تتغير أدوار الأعضاء باختلاف المرحلة. وتظل هذه الحركة متميزة عن حركة الماء الغالبة في الخشب. [١١٤]

سورة إبراهيم، الآيات ٢٤-٢٥.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾
﴿تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۖ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٢٥﴾

يضرب الله للكلمة الطيبة مثل شجرة راسخة الأصل، عالية الفرع، يتجدد ثمرها بإذنه. فالمشهد نباتي، والمقصود تقريب أثر الكلمة النافعة التي تستند إلى أصل ثابت ويتجاوز خيرها لحظة التلفظ بها.

تمنح علاقة الأجزاء قوة للمثل: أصل يحمل الشجرة، وفرع يمتد، وثمر يصل إلى غيرها. ومن يعرف ترابط الجذور والأوراق ومسارات النقل يتصور هذا البناء بوضوح أكبر. أما تعيين كل عضو بشخص أو واقعة فقراءة أخرى تحتاج إلى دليلها التفسيري.

إحالات الفصل: سورة إبراهيم ٢٤-٢٥ للمثل؛ المراجع [٤٤، ٥٤، ٦٤] للشرح العلمي.

الفصل السادس: الورقة الخضراء — صناعة الغذاء

مساحة تستقبل الضوء

في الورقة أنسجة وأوعية ومسافات تسمح بتبادل الغازات، وتضم خلايا كثيرة منها بلاستيدات تقوم بالبناء الضوئي. ويؤثر شكل الورقة ومساحتها وطبقتها السطحية في علاقتها بالضوء والماء. وليست كل الأوراق متماثلة، كما قد تقوم أجزاء خضراء أخرى ببعض هذه الوظيفة. [٧٤]

البناء والتنفس

يخزن البناء الضوئي طاقة في مركبات عضوية، بينما يتيح التنفس الخلوي طاقة صالحة لاستعمال الخلايا. والتنفس لا يتوقف لأن الورقة خضراء أو لأن النهار حاضر؛ إنما قد يطغى الأثر الصافي للبناء الضوئي على تبادل الغازات الذي نرصده. [٢٤]

ثغور تحفظ توازناً

تسمح الثغور بدخول غازات وخروجها، ويتصل ذلك بفقد الماء. وتشارك الخلايا الحارسة في تنظيم فتحها، ضمن استجابة النبات للظروف. فزيادة دخول ثاني أكسيد الكربون وحفظ الماء ليستا غايتين تتحققان دائماً بأقصى مقدار معاً؛ ويظهر أثر التوازن حين يشتد الجفاف. [٧٤]

ورقة تسقط وأثر يبقى

قد تتغير أصباغ الأوراق أو تتساقط ضمن دورة موسمية أو استجابة لإجهاد. ولا يجوز تفسير كل اصفرار بسبب واحد. وحين تسقط الورقة تدخل في مسارات التحلل وإعادة تدوير العناصر، فتكون نهايتها الظاهرة جزءاً من استمرار الحياة حول الشجرة.

كيف نجعل الورقة باباً للتعلم؟

يمكن للتعلم أن يبدأ بوصف الورقة قبل تفسيرها: موضعها، واتجاهها، ولونها، وحوافها، وعروقها الظاهرة. ثم يفصل ما رآه عن استنتاجه. فقولنا «هذه الورقة أفتح لوناً من جارتها» وصف، أما نسبة ذلك إلى نقص عنصر محدد ففرضية تحتاج إلى قرائن. يعلم هذا الفصل بين المشاهدة والتفسير لغة أدق في الحديث عن النبات.

سورة الأنعام، الآية ٥٩.

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٥٩﴾

ينتقل البيان من مفاتيح الغيب إلى تفاصيل قد تمرّ بنا من غير انتباه: ورقة تسقط وحة تختفي في ظلمات الأرض. لا تضيع هذه الأشياء الصغيرة من علم الله؛ ومن هنا يكتسب النظر إلى النبات معنى المراقبة والتواضع أمام سعة العلم الإلهي.

كنت أنظر إلى الورقة من جهة ما تؤديه في حياة الشجرة، وهنا أتوقف عند معنى آخر: إحاطة العلم الإلهي بما يغيب عن البشر أو يصغر في أعينهم. ولكل من النظيرين سؤاله؛ أبحث آلية سقوطها بأدوات العلم، وأأمل دلالتها القرآنية بما يوقظ الانتباه إلى حدود معرفتي.

إحالات الفصل: سورة الأنعام ٥٩ في إحاطة العلم بسقوط الورقة؛ المرجعان [٢٤، ٧٤].

الفصل السابع: الأزهار والتلقيح – استمرار الحياة

الزهرة عضو تكاثر

تضم أزهار كثيرة أعضاء تنتج حبوب اللقاح وأخرى تحتوي البويضات، لكن توزيع هذه الأعضاء يختلف؛ فقد تجتمع في زهرة أو تفترق بين أزهار أو نباتات. ولا يختزل تنوع التكاثر في صورة زهرة واحدة يعتادها القارئ. [٣٤]

التلقيح غير الإخصاب

التلقيح انتقال حبوب اللقاح إلى الموضع الملائم، أما الإخصاب فهو حدث لاحق يتعلق باتحاد الأمشاج. وقد يصل اللقاح ولا تتم العملية بنجاح. ولهذا نفصل بين المصطلحين حين نشرح عقد الثمار أو إخفاقه، بدل استعمالهما كأنهما اسم واحد.

شركاء في الرحلة

تحمل الرياح لقاح بعض النباتات، وتشارك حشرات وطيور وحيوانات أخرى في تلقيح أنواع مختلفة. وتدخل ألوان الأزهار وروائحها ومكافآتها الغذائية في هذه العلاقات. فلا يكون البستان شجراً معزولاً عن محيطه، بل جزءاً من شبكة حياة. [٣٤]

الزوجية وحدود الاستدلال

سورة الرعد، الآية ٣.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿٣﴾

يجمع المشهد امتداد الأرض والجبال والأنهار والثمار وتعاقب الليل والنهار. وترد الأزواج ضمن هذا النظام المشهود، فتدعو الآية إلى التفكير في تنوع الخلق وترابطه، من غير أن تعرض تصنيفاً تفصيلياً لطرائق التكاثر في كل نبات.

سورة طه، الآية ٥٣.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ ﴿٥٣﴾

يُذكر تنوع النبات بعد تهيئة الأرض وشق الطرق وإنزال الماء. وهذا الترتيب يعيد الأنواع المختلفة إلى مشهد جامع: أرض تستقبل الماء فتخرج أصنافاً شتى، ثم ينتفع بها الإنسان والحيوان في حياتهما اليومية.

سورة الحجر، الآية ٢٢.

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاحٍ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ ﴿٢٢﴾

تقدّم الآية الرياح وإنزال الماء وسقي الناس ضمن نعم لا يملكون خزائنها. وورود وصف الرياح باللواح يدعو إلى فهم اللفظ في سياقه، بينما تبقى الرسالة الواضحة تذكير الإنسان بأن أسباب السقيا تتجاوز ما يملكه من أدوات.

تفتح هذه الشواهد باباً لبحث الألفاظ قبل وصلها بالمصطلحات النباتية. فأقرأ الأزواج واللواح في سياق كل آية، ثم أنظر فيما يعين على تصور معناها من المعرفة التي أتناولها في المبحث التالي.

ثلاث حلقات لا ينبغي جمعها في اسم واحد

ينبغي أن نفرق عند متابعة الزهرة بين وجود أعضاء التكاثر، ووصول اللقاح المناسب، ونجاح المراحل اللاحقة التي يتكون بها محصول. ولهذا لا يكفي عد الأزهار للتنبؤ بكل ما سينضج من ثمار، كما لا يثبت حضور حشرة واحدة أنها أنجزت تلقيحاً ناجحاً. هذه الفروق تجعل السؤال الزراعي أكثر تحديداً، وتمنع القفز من منظر جميل إلى نتيجة غير مقاسة.

سورة يس، الآية ٣٦.

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٦﴾

يفتح التسبيح النظر على أزواج ما تنبتة الأرض، وعلى الإنسان، وعلى أشياء لا يعلمها. وتتسع العبارة بهذا الختم عن حدود المعرفة الحاضرة؛ فيبقى التنوع باعثاً على البحث، وتبقى جهالة بعض وجوه الخلق باعثاً على التواضع.

وأبدأ في فهم الزوجية باللغة والسياق؛ فقد يكون الحديث عن الأصناف أو الأزواج أو وجه أوسع من التنوع. ثم أستعين بالمعرفة النباتية لتقريب الصورة، مع إبقاء تعيين الدلالة مسؤولية تفسيرية تحتاج إلى ما يسندها.

إحالات الفصل: سورة الرعد ٣؛ سورة طه ٥٣؛ سورة الحجر ٢٢؛ سورة يس ٣٦؛ المرجع [٣٤].

الفصل الثامن: الثمار والبذور — رزق يتجدد

من الزهرة إلى الثمرة

تتكون ثمار كثيرة من مبيض الزهرة، وقد تشارك أنسجة أخرى في بنيتها، وتوجد حالات تتكون فيها ثمار دون بذور مكتملة. وتتنوع الثمار بين الجاف واللحمي وبين ما ينفتح وما يبقى مغلقاً، فلا يصلح الشكل الخارجي وحده أساساً لكل تصنيف. [٣٤]

النضج تغير متدرج

يتبدل في أثناء النضج اللون والقوام والطعم والرائحة، وفق عمليات تختلف بين الأنواع. وقد تتحول مواد مخزونة أو تتغير مكونات الجدار الخلوي. والنضج المناسب للأكل لا يساوي دائماً الموعد الأنسب للنقل أو التخزين؛ لذلك لا تفصل المعرفة بالثمرة عن الغرض من جمعها.

طرق الانتشار

قد تحمل الرياح بذوراً خفيفة، وينقل الماء غيرها، وتنتقل ثمار أو بذور بواسطة الحيوان. وفي ذلك امتداد لحياة النبات خارج ظل الأصل الذي نشأ منه. كما صار الإنسان ناقلاً واسع الأثر، وقد يصاحب النقل نفع زراعي أو خطر بيئي بحسب النوع والمكان.

النظر في الثمر

سورة الأنعام، الآية ٩٩.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٩٩﴾

تتدرج الآية من الماء إلى الخضرة والحبوب، ثم إلى النخيل والكروم والزيتون والرمان. وبعد تعداد الثمار يأتي توجيه النظر إلى تكونها ونضجها، فكأن القارئ يدعى إلى متابعة الشجرة عبر الزمن، لا إلى الاكتفاء باسمها.

سورة الرعد، الآية ٤.

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لُبُّ بَعْضِهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٤﴾

يتجه الانتباه هنا إلى المذاق والانتفاع بالثمر: بساتين متجاورة تُسقى بماء واحد، ومع ذلك يتفاوت أكلها. وهذا مشهد قريب من خبرة البستاني، يفتح سؤال الاختلاف داخل البيئة المتقاربة ويجعله موضعاً للتعقل. قد تستوقف الثمرة قارئاً عند جمال لونها، وتفتح لآخر سؤالاً عن تغير طعمها ونضجها. وأجد في اختلاف هذه المداخل غنى للملاحظة، ما دام كل منها يظل باباً للمعرفة ويترك مجالاً لما لم ينكشف بعد.

الثمر في الحقل وفي المائدة

قد يسمى الشيء خضاراً في السوق ويُدرس بوصفه ثمرة في علم النبات؛ لأن لغة المائدة ترتب الأشياء بحسب الاستعمال، بينما ينظر التصنيف التشريحي إلى أصل العضو وتكوينه. ليس اختلاف التسميتين خطأ بالضرورة، وإنما ينشأ الخطأ حين ننقل حكماً من أحد الاستعماليين إلى الآخر دون بيان. وتفيد هذه الملاحظة في قراءة كتب الطعام القديمة أيضاً، حيث لا يلزم أن تطابق أبوابها ترتيب كُتاب نبات حديث.

أما النظر في الإيناع فيوجه الانتباه إلى التحول عبر الزمن. فالصور المتتابعة لثمرة واحدة قد تعلمنا أكثر من صورة مثالية منتقاة عند النضج. ويتسع معنى الانتفاع ليشمل معرفة وقت الجني وتقليل التلف وحسن توزيع الطعام. وهذه تطبيقات أخلاقية وعملية يقترحها التأمل في المشهد، وليست معاني لغوية ندعي انحصار الآية فيها.

إحالات الفصل: سورة الأنعام ٩٩؛ سورة الرعد ٤؛ المرجع [٣٤].

الفصل التاسع: تنوع النبات وتكيفه

ماء واحد وثمر مختلف

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لُبُّ بَعْضِهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

القرآن الكريم، سورة الرعد، الآية ٤.

يبدأ المشهد بالقرب المكاني: قطع متجاورات، ثم يكشف تنوع المزروعات واختلاف الثمر مع اشتراكها في الماء. وهذه صياغة توقف النظر إلى الفروق داخل المشهد الواحد. يستطيع القارئ أن يلاحظ تفاوت الطعم والحجم والنضج في بستان يعرفه، ثم يسأل عن أسبابه سؤالاً علمياً. والآية تسوق هذا الاختلاف للاعتبار، دون أن تحصر أسبابه في عامل زراعي بعينه. لهذا يكون ذكر الماء الواحد دعوة إلى تعقل التنوع، وتبقى دراسة كل نبات محتاجة إلى معرفة خصائصه وظروفه.

أشكال متعددة للحياة

سورة طه، الآية ٥٣.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ ﴿٥٣﴾

ترد النباتات أصنافاً شتى في سياق الأرض والماء والرزق. فلا تختزل الصورة الخلق النباتي في محصول واحد، بل تترك للقارئ أن يرى سعة التنوع الذي يجاوره، وأن يسأل كيف تتعدد صور الحياة في الأرض الواحدة. يفيد وصف النبات بأنه شجرة أو شجيرة أو عشب في التعرف إلى هيئة نموه، لكنه ليس بديلاً من تصنيفه العلمي. وتختلف الأنواع في عمرها واستمرار أجزائها وموعد إزهارها. ما ينهي دورة حياته في موسم لا يتصرف كمعمر يحتفظ بموارده أعواماً.

البقاء في بيئات متباينة

قد تساعد طبقات سطحية سميكة أو أوراق صغيرة أو تخزين الماء على تحمل بعض البيئات الجافة. وفي الماء أو البرد تظهر خصائص أخرى. ولا تعمل كل صفة وحدها؛ فنجاح النبات يتعلق باجتماع خصائصه مع حدود البيئة وتاريخ نموه. [٧٤]

الاستجابة ليست حكاية بشرية

قد يخفي النمو نحو الضوء أو تغيير أوضاع أجزاء النبات بفعل مؤثرات. يصف العلم الآليات والنتائج التي يمكن اختبارها، ولا يلزم من ذلك أن ننسب إلى النبات مشاعر الإنسان أو مقاصده. كما لا يجوز نفي قيمة حياته لمجرد اختلاف بنيته عن الحيوان.

اختلاف يدعو إلى الفهم

يجمع مشهد سورة الرعد بين الاشتراك في الماء والاختلاف في الأكل؛ فلفت النظر إلى فروق نراها في بستان واحد. وتبحث المعرفة الزراعية هذه الفروق من جهات الوراثة والبيئة والتدبير، بينما يمتد الاعتبار القرآني بها إلى معرفة النعمة وشكرها.

استجابة الفرد وتكيف النوع

يصف الباحث استجابات النبات للمؤثرات، ومنها اتجاه النمو تحت تأثير الضوء أو الجاذبية، ويبحث في الإشارات التي تنظمها. لكن استجابة فرد خلال أيام ليست هي نفسها تاريخ الصفات الموروثة في جماعة عبر أجيال. يزيل هذا التمييز التباساً شائعاً حين تستعمل كلمة «تكيف» لكل تغير نراه. [١٢٤]

وفي الكتابة الأدبية يجوز أن نقول إن الغصن يبحث عن الضوء، على سبيل التصوير، بشرط ألا تتحول العبارة إلى تقرير عن نية واعية مماثلة لنية الإنسان. إن احترام النبات لا يحتاج إلى منحه سيرة نفسية متخيلة؛ يكفي أن نفهم طرائق نموه وحدود معرفتنا بها. وهكذا تجمع الحكاية بين لغة تقرب المشهد ولغة تضبط الادعاء، وتترك للقارئ متعة التأمل دون أن تخلطها بمعلومة غير محققة.

إحالات الفصل: سورة الرعد ٤؛ سورة طه ٥٣؛ المراجع [٦٤، ٧٤].

الفصل العاشر: من الخضرة إلى الحطام – دورة الحياة

عمر لا يقاس بموسم واحد

قد تعيش الأنسجة والأعضاء مدداً مختلفة داخل النبات نفسه، وقد يفقد المعمّر أوراقاً ويجددها دون أن ينتهي عمره. لذلك نفرق بين موت عضو وموت الفرد، وبين سكون موسمي وهلاك نهائي. ويعين هذا الفرق على قراءة ما نشاهده في الحديقة قراءة أدق.

المرض والإجهاد

يمكن أن يتأثر النبات بعوامل حية مثل بعض الممرضات والآفات، أو بعوامل غير حية كالعطش والحر والملوحة. وقد تتشابه الأعراض مع اختلاف الأسباب. فلا يحمل اصفرار ورقة اسم مرض محدد بمجرد ظهوره، ولا يكون التدخل الناجح في شجرة ملائماً لكل شجرة أخرى.

ما بعد السقوط

تشارك الكائنات المحللة في إعادة مكونات البقايا إلى دورات البيئة. وقد يصبح الخشب الميت موطناً لكائنات أخرى، وتشارك الأوراق المتحللة في مادة التربة. يتصل الفناء الفردي هنا بحركة المواد في النظام البيئي، دون أن نجعل ذلك مطابقاً لمعنى البعث الإنساني.

درس التحول

سورة الزمر، الآية ٢١.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ﴿٢١﴾

يمر الزرع في هذا المشهد بالخروج والتلون والنضج، ثم بالاصفرار والتحطم. وتُجمع المراحل في آية واحدة لتقريب تغير الأحوال، ولتذكير الإنسان بأن ما يبدو قوياً مكتملاً يحمل في دورته أسباب انتهائه.

سورة الحديد، الآية ٢٠.

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَثَلٌ غِثٌّ أَغْبَ الْكُفَّارِ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ ﴿٢٠﴾

يُشَبِّهُ التعلُّق بِزِينَةِ الدُّنْيَا بِزَرْعٍ يَعِجِبُ النَّاطِرِينَ بَعْدَ الْمَطَرِ، ثُمَّ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَصْفَرَّ وَيَصِيرَ حُطَامًا. وَيُنْقَلُ الْقَارِئُ بَعْدَ الصُّورَةِ إِلَى الْجُزْءِ، حَتَّى يَزِنَ مَا يَبْقَى مِنَ الْعَمَلِ بِمَا يَزُولُ مِنَ الْمَظْهَرِ وَالْمُنَافَسَةِ.

تَجْتَمِعُ فِي هَذَا التَّحْوِيلِ قِرَاءَةٌ لِأَطْوَارِ النَّبَاتِ وَقِرَاءَةٌ لِّمَا يَتْرَكُهُ الْمَشْهَدُ فِي النَّفْسِ. يَشْرَحُ الْعِلْمُ عَمَلِيَّاتَ التَّغْيِيرِ وَالتَّحَلُّلِ، وَيَعِيدُ الْمِثْلَ سُؤَالَ الْقِيَمَةِ: مَاذَا يَبْقَى مِنْ عَمَلِ الْإِنْسَانِ بَعْدَ زَوَالِ مَا أَعْجَبَهُ؟

من العرض الظاهر إلى السؤال الصحيح

حِينَ تَذْبُلُ نَبْتَةٌ، تَبْدَأُ الْمُلَاحَظَةُ مِنْ تَوْزِيعِ الذُّبُولِ وَتَوَقُّيْتِهِ وَمَا سَبَقَهُ مِنْ تَغْيِيرَاتٍ، لَا مِنْ اخْتِيَارِ عِلَاجٍ جَاهِزٍ. هَلْ تَأْثُرُ النَّبَاتُ كُلَّهُ أَمْ جُزْءٌ مِنْهُ؟ وَهَلْ تَتَكَرَّرُ الْمَشْهَدُ فِي نَبَاتَاتٍ مُتَجَاوِرَةٍ؟ هَذِهِ الْأَسْئَلَةُ لَا تَغْنِي عَنْ الْخُبْرَةِ الْمُتَخَصِّصَةِ، لَكِنَّمَا تَمْنَعُ أَنْ يَصْبِحَ كُلُّ عَرَضٍ اسْمًا لِسَبَبٍ وَاحِدٍ. كَمَا أَنَّ تَحْسِينَ الْحَالَةِ بَعْدَ إِجْرَاءٍ مَا لَا يَثْبُتُ وَحْدَهُ أَنَّ الْإِجْرَاءَ كَانَ سَبَبَ التَّحْسِينِ؛ فَقَدْ تَغْيَّرَتْ عَوَامِلُ أُخْرَى فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ.

سورة الأعلى، الآيات ٤-٥.

﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ ﴿٤﴾

﴿جَعَلَهُ غَنَاءً أَحْوَى﴾ ﴿٥﴾

المرعى الذي يخرج أخضر يتحول إلى بقايا متغيرة اللون. وترد الحركتان في سياق تسبيح الرب الذي خلق وقدر وهدي؛ فخرج النبات وذبوله داخلان في المشهد نفسه، وليست الخضرة وحدها موضع الاعتبار.

ومن هنا أعود إلى النعمة وهي بين أيدينا: كيف نرعاها، ومن يصل إليه خيرها، وأي أثر تتركه في عملنا؟ بهذا السؤال أختتم متابعة دورة النبات، وانتقل إلى الأسماء والأوصاف التي اختارها القرآن من عالمه الواسع.

إحالات الفصل: سورة الزمر ٢١؛ سورة الحديد ٢٠؛ سورة الأعلى ٤-٥؛ المرجع [١٤] في عودة المادة العضوية إلى التربة.

الباب الثاني: النباتات في القرآن الكريم

بعد متابعة حياة النبات، نعود إلى الأسماء التي عرفناها في خطاب القرآن: نخلة وزيتونة وسنبلة وثمره، وإلى أوصاف تلتقط جزءاً من المشهد أو مرحلة منه. سنقرأ كل اسم في موضعه، ونرى كيف يتصل بالرزق والشكر والمثل والقصة. وتبقى العين التي تعلمت الملاحظة في الباب الأول رفيقة لهذه القراءة، فتقرب المشهد إلى النفس وتعين على تدبره.

الفصل الحادي عشر: النخلة — من الطلع إلى الرطب والتمر

حضور يتجاوز الثمرة

سورة ق، الآيات ١٠-١١.

﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ ﴿١٠﴾
﴿رِّزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ ﴿١١﴾

تظهر النخيل مرتفعة تحمل طلعاً متراكباً، ضمن رزق أخرجه الله بالماء. ثم تصل الآيات إحياء الأرض الميتة بخروج الناس بعد الموت، فتحمل صورة النخل معنى القوت ومعنى الاستدلال على البعث معاً.

سورة النحل، الآية ١١.

﴿يُنَبِّتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾
﴿١١﴾

تأتي النخلة بين الزيتون والزرع والأعنان وسائر الثمرات. ولا يعزلها السياق عن الماء الذي أنبتا وعن التفكير الذي يدعو إليه، فتقرأ قيمتها داخل تنوع الرزق الذي تقوم عليه حياة الناس.

لهذه الشجرة حضور يتسع للطعام والجمال ومشاهد الرسالة. وسأتابع في هذا الفصل تفاصيل الطلع والثمر، ثم أقف عند الرطب في قصة مريم عليها السلام، ليأخذ كل وجه من حكاية النخلة معناه من موضعه.

سورة الأنعام، الآية ٩٩.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِجَّ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٩٩﴾

تقرّب الآية النخلة من عين القارئ بذكر طلّعها وما يخرج منه من قنوان دانية. ثم تضعها إلى جوار ثمار أخرى، وتدعو إلى مراقبة الإثمار والنضج؛ فيتصل اسم النخيل بصورة محسوسة من نموه.

سورة الرحمن، الآية ١١.

﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكَامِ﴾ ﴿١١﴾

يُذكر النخل ذو الأكام في سياق الأرض الموضوعة للأنام وما فيها من فاكهة. فيحضر الغلاف الذي يحيط بالطلع جزءاً من صورة النعمة، وتلتفت العين إلى تفاصيل الشجرة قبل أن تصل الثمرة إلى مائدة الإنسان. تُعين دقة الألفاظ على متابعة النخلة في أطوارها: فالطلع مرحلة تسبق التمر، والقنوان تتصل بعدوقها. ومن يتعهد الشجرة يرى في الثمرة الناضجة حصيلة موسم من النمو والعناية، ويتعلم أن ينظر إلى ما قبل الجني بالاهتمام نفسه.

النخلة في حياة الإنسان

سورة النحل، الآية ٦٧.

﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٦٧﴾

تنتقل الآية من الثمر إلى ما يصنعه الناس منه، فتذكر السكر والرزق الحسن. وهنا تظهر مسؤولية الانتفاع: وجود الثمرة نعمة، أما أوجه تحويلها واستهلاكها فتدخل فيها أفعال الإنسان واختياراته، ولا تُستنبط أحكامها من هذا الموضع وحده.

سورة مريم، الآيات ٢٣-٢٦.

﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّسِيًّا﴾ ﴿٢٣﴾
﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ ﴿٢٤﴾
﴿وَهْزِي إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا﴾ ﴿٢٥﴾
﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾
﴿٢٦﴾

أجأ المخاض مريم عليها السلام إلى جذع النخلة وهي في شدة ووحشة، فجاءها النداء ألا تحزن، مع ذكر الماء والأمر بهز الجذع لتساقط الرطب. ثم أمرت بالأكل والشرب وطمأنينة النفس، وبالإمساك عن مخاطبة الناس؛ فاجتمع في المشهد رعاية الجسد وتسكين الخوف.

اقرأ هذا العطاء أولاً في خصوصية قصة مريم عليها السلام وما فيها من رحمة وتثبيت. وتبقى دراسة أثر الرطب الغذائي والطبي مرتبطة بأدلتها وشروطها؛ فالمشهد لا يقرر علاجاً ملزماً لكل امرأة ولا وصفة تصلح لجميع الحالات.

ذاكرة النخل

للنخلة مكان في ذاكرة العراق وبيئته الزراعية، ولها في تجربتي ومحبي للنبات مكان قريب من القلب. وكلما تأملتها تذكرت أن الخبرة الفردية تحتاج إلى معرفة تتسع لاختلاف الأصناف والمناخات. فاحترام النخلة يبدأ بمعرفة حاجاتها وصيانة بيئتها وإكرام العامل الذي يربعاها.

قاموس صغير حول النخلة

تتبع ألفاظ النخلة مراحل النظر إليها: طلع يظهر، وقنوان تحمل الثمر، ورطب يؤكل، وجذع يحضر في قصة مريم. ويساعد ترتيب هذه المشاهد على قراءة النخلة عبر الزمن، بدل الاكتفاء بصورتها عند نضج الثمار.

تجمع الفهارس هذه الألفاظ تحت النخلة، وتتيح الرجوع إلى موضع كل منها. ويُفرد الفصل الثالث والثلاثون لمشهد مريم، حيث تتصل الشجرة بمعنى الرعاية في القصة. أما هنا فيبقى النظر إلى تعدد الأجزاء والأوصاف التي تظهر بها النخلة في التعبير القرآني.

إحالات الفصل: سورة الأنعام ٩٩؛ سورة النحل ١١ و٦٧؛ سورة مريم ٢٣-٢٦؛ سورة ق ١٠-١١؛ سورة الرحمن ١١.

الفصل الثاني عشر: الزيتون — الشجرة المباركة

الدهن في مشهد الطعام القرآني

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِلَّائِكِينَ﴾

القرآن الكريم، سورة المؤمنون، الآية ٢٠.

تصل الآية الشجرة بما يصل إلى المائدة من دهن وإدام. فالثمرة هنا حاضرة من جهة الانتفاع، ويظهر معها موضع معروف في خطاب الوحي. وحين نتبع حكاية الزيت من الشجرة إلى الطعام نرى حلقات الرعاية والجني والعصر والحفظ؛ وهذه تفاصيل يضيفها وصف العمل الإنساني إلى تدبر النعمة. أما الآية فتمنح المشهد وحدته: شجرة تخرج، ومنفعة تنشأ، وإنسان يأكل. ويستقيم الشكر حين يصحب الأكل وعي بمصدر الرزق وبحق من أسهموا في وصوله.

زيتونة في القرآن

سورة الأنعام، الآية ٩٩.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٩٩﴾

يرد الزيتون مع الرمان في مشهد يجمع التشابه والاختلاف، ثم يطلب النظر إلى الثمر حين يظهر وحين ينضج. وهكذا يقرأ الزيتون شجرة حية ذات أطوار، قبل أن يقرأ مادة غذائية أو اسماً في قائمة النباتات.

سورة الأنعام، الآية ١٤١.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿١٤١﴾

بعد ذكر الجنات والزروع والزيتون والرمان يأتي الأمر بالأكل وإيتاء الحق يوم الحصاد واجتناب الإسراف. فالمشهد لا ينتهي عند وفرة الثمر، بل ينتقل مباشرة إلى طريقة التعامل معه وإلى نصيب الآخرين من خيرهِ.

سورة النحل، الآية ١١.

﴿يُنَبِّتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾
﴿١١﴾

يأتي الزيتون واحداً من وجوه الرزق التي يخرجها الله بالماء، إلى جانب الزرع والنخيل والأعناب. وغاية التعداد أن يستحضر القارئ تنوع المائدة ومصدرها، ثم ينتقل من الاعتياد على النعمة إلى التفكير فيها.

سورة التين، الآية ١.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ ﴿١﴾

تفتتح سورة التين بالقسم بالتين والزيتون، فيحضر الاسمان في مقام يلفت الانتباه قبل بيان شأن الإنسان. أما تعيين كل ما قد يشير إلى وراء معناه الظاهر فيحتاج إلى دليل تفسيري، ولا يُجعل الاسم وحده حكاية تاريخية مكتملة.

يتغير وجه حضور الزيتون بتغير السياق: غذاء في تعداد النعم، ودهن وصبغ للأكلين في آية سورة المؤمنون المتقدمة، وعنصر في بناء مثل النور. وأحفظ لكل موضع غرضه، حتى تتكامل القراءات وتبقى دلالة كل منها واضحة.

معنى البركة

البركة معنى ديني لا تختصره قائمة المواد الغذائية. ويمكن للإنسان أن يشكر تعدد منافع الزيتون من غير أن يجعل لفظ البركة شهادة مختبرية على علاج أمراض بعينها. كما أن وصف الزيت في المثل لا يميز إنشاء أرقام أو خصائص فيزيائية لم يذكرها النص.

الزيتون في الرواية

عقد الكليني في كتاب الأطعمة باب الزيت والزيتون، وأورد فيه الخبر الذي سيأتي نصه وطريقاه في هذا الفصل. ونقرأه في موضعه من آداب الطعام والادهان، مع فصل هذا العرض عن تقويم منفعة علاجية لحالة بعينها.

شجرة تحتاج إلى رعاية

علاقة الإنسان بالزيتونة امتحان في الصبر؛ فالغرس عمل يتجاوز اللحظة. ولا تكفي شهرة الشجرة لتنجح في أي تربة أو مناخ. ومن أدب الانتفاع أن نميز بين الثمرة وزيتها وطريقة إنتاجه وحفظه، فلا ننسب إلى جميع الصور الغذائية حكماً واحداً.

قراءة الزيتونة داخل مثل سورة النور

سورة النور، الآية ٣٥.

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۚ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۚ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُورٌ عَلَى نُورٍ ۚ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾

يعرض المثل مشكاة فيها مصباح داخل زجاجة متألئة، يمدّه زيت شجرة زيتونة مباركة شديدة الصفاء. ثم يعلو البيان إلى النور والهداية؛ فالتفاصيل المحسوسة تقرب المعنى إلى القلب، ولا تحوّل المثل إلى وصف مادي لذات الله تعالى.

تنبع قوة المثل من اجتماع المشكاة والمصباح والزجاجة والزيت في صورة واحدة. لذلك أبدأ بترابطها قبل الوقوف عند وصف الزيتونة، وأزن أي معنى يقترح لتفصيل منها بصلته بهذا البناء وبالدليل الذي يسنده.

والمشهد يدعو إلى تدبر الهداية والنور، بينما يذكر موضع سورة المؤمنون منفعة الدهن للآكلين. يجمع الموضعين اسم الزيتون، لكن وظيفة الاسم مختلفة. لا تنتقص هذه الملاحظة من منافع الثمرة؛ بل تحمي القراءة من اختزال النص في قائمة غذائية. وبوسع الباحث أن يفرد دراسة لتركيب الزيت وجودته، على أن يستمد نتائجها من البحث المناسب ويترك للمثل القرآني مجاله الدلالي.

نص الزيت وطريقا روايته

روى الكليني عن الإمام الصادق عليه السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله، قوله:

«كلوا الزيت وادهنوا بالزيت فإنه من شجرة مباركة».

أورد المصدر للخبر طريقاً يمر بسهل بن زياد وجعفر بن محمد الأشعري وابن القداح، ثم أتبعه بطريق يمر بمحمد بن يحيى وأحمد بن محمد وابن فضال وابن القداح، وختم الطريق الثاني بلفظة «مثله». فالمطبوع يعرض إسنادين مع إحالة لفظية في الثاني إلى المتن السابق.

ورجعت إلى شرح المجلسي لهذا الموضع، فوجدت تقويمه للحديث الأول: «ضعيف على المشهور وآخره موثق»، في مرآة العقول، ج ٢٢، ص ١٦١ [ح ٢٦]. أحفظ عبارته كاملة إلى جانب عرض الطريقتين؛ فلا أصفهما معاً بحكم واحد، ولا أجعل اختلاف تقويمهما اختلافاً في لفظ المتن الذي أحال إليه الطريق الثاني.

وموضع الخبر في هذا الفصل هو صلة الزيت بمعنى البركة وبآداب الطعام والادهان في المأثور. أما تفاصيل استعماله في حالة صحية خاصة فتحتاج إلى دليلها المناسب. واللفظ المروي يسمي الزيت، فلا يجوز أن نبذله بعبارة أوسع عن كل جزء من الزيتون ثم ننسب التوسعة إلى الحديث.

المصدر: الكافي، ج ٦، باب الزيت والزيتون، الحديث ١، ص ٣٣١، مقابلة إضافية للمرجع [ح ٢].

إحالات الفصل: سورة الأنعام ٩٩ و ١٤١؛ سورة النحل ١١؛ سورة المؤمنون ٢٠؛ سورة النور ٣٥؛ سورة التين ١؛ الكافي، ج ٦، كتاب الأطعمة، باب الزيت، الحديث ١ [ح ٢]؛ وتقويم خبر الزيت: مرآة العقول، ج ٢٢، ص ١٦١ [ح ٢٦].

الفصل الثالث عشر: العنب – الكروم والجنات

الثمر والكرم

سورة النحل، الآية ١١.

﴿يُنَبِّتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾
﴿١١﴾

تظهر الأعناب ضمن نباتات أنبتها الله بالماء للناس. ويُحْتَمَّ التعداد بالتفكر، فيتجاوز ذكر العنب لذة المذاق إلى السؤال عن السقيا والنمو وتنوع الثمار التي تهيأت بها أسباب الغذاء.

سورة يس، الآيات ٣٤-٣٥.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَجَرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ ﴿٣٤﴾
﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ ﴿٣٥﴾

تجتمع الكروم والنخيل والعيون في أرض تعطي ثمرًا يأكله الناس. ثم يواجههم سؤال الشكر؛ فالبستان الذي ينتفعون به ليس مجرد منظر جميل، بل نعمة تمس استمرار حياتهم وتستدعي اعترافهم بفضل واهبها.

سورة عبس، الآية ٢٨.

﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ ﴿٢٨﴾

يأتي العنب مع القضب ضمن تعداد ما تنبته الأرض بعد الماء وشق التربة. ويمنح هذا الاقتران صورة أوسع للطعام: ثمر يؤكل، ونبات يقطع وينتفع به، في سياق يجمع حاجات الناس وأنعامهم.

وحين يرد اسم العنب في مشهد البستان، تمتد صورته إلى الكرمة والعنقود والأغصان والأرض التي تحملها. يفيد هذا الاتساع في قراءة الآية كما يفيد في النظر إلى الثمرة على المائدة؛ إذ يعيدها إلى النبات والعمل اللذين سبقا وصولها إلينا.

سورة النحل، الآية ٦٧.

﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٦٧﴾

لا يقف الحديث عند عنقود العنب، بل يتابع ما يتخذه الناس من الثمر. وبهذا تظهر المسافة بين أصل النعمة وطريقة استعمالها؛ وهي مسافة تدخل فيها المعرفة والصناعة والاختيار، وتحتاج إلى هداية تضبط الانتفاع. هنا يبدأ النظر في استعمال الثمرة بعد جنيها. وتبحث أحكام الأشربة والتخمير في أدلتها الفقهية، لأن صلاح الثمر للأكل وحده لا يحسم حكم كل ما يصنع منه. وأحفظ هذا الفرق عند الانتقال من وصف النبات إلى فعل الإنسان فيه.

صاحب الجنتين

سورة الكهف، الآيات ٣٢-٤٤.

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ ﴿٣٢﴾

﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا﴾ ﴿٣٣﴾

﴿وكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ ﴿٣٤﴾

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ ﴿٣٥﴾

﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ ﴿٣٦﴾

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ ﴿٣٧﴾

﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ ﴿٣٨﴾

﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَنَّا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ ﴿٣٩﴾

﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ ﴿٤٠﴾

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ ﴿٤١﴾

﴿وَأَحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ ﴿٤٢﴾

﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ ﴿٤٣﴾

﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ۖ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ ﴿٤٤﴾

يعرض المثل رجلاً أعطي جنتين من أعناب أحاطت بهما النخيل، وبينهما زرع ونهر. حمله المال على مفاخرة صاحبه، ثم دخل جنته مستبعداً زوالها وشاكاً في قيام الساعة. فذكره صاحبه بأصل خلقه، ودعاه إلى الاعتراف بمشيئة الله وقوته، وحذّره من أن يصبح الماء غائراً أو الأرض خالية من النفع.

ثم أحيط بثمره، فأخذ يقلب كفيه نادماً على ما أنفق، واللجنة خاوية على عروشها. ولم يجد جماعة تنقذه ولا قدرة يدفع بها الخسارة؛ فتكشف نهاية القصة كيف تحول البستان في نظر صاحبه من أمان موهوم إلى موضع انكسار واعتراف.

أتوقف عند التحول الذي صنعه الغرور في نظر صاحب البستان إلى نفسه: صارت النعمة دليلاً يتوهم به دوام المال ورفعة المنزل. وفي الفصل الحادي والأربعين أعود إلى حوار مع صاحبه، وإلى ما تكشفه ألفاظه عن هذا الوهم قبل انهيار الجنتين.

العنب والزبيب

يفرد كتاب الأطعمة في الكافي باباً للعنب وآخر للزبيب. وهذا الفصل بين الطري والمجفف مفيد في ضبط موضوع الخبر، فلا ننقل قولاً في أحدهما إلى الآخر بلا بحث. ونقرأ هذه الأخبار في سياقها، دون تحويل كل وصف مروي إلى توصية علاجية.

من المادة الواحدة إلى تنوع الأفعال

تمتد حكاية العنب من الثمرة إلى ما يصنعه الناس منها وما يتبادلون به من منافع. وعند هذه النقطة يدخل فعل الإنسان في السؤال: كيف ينتج، وكيف يبيع، وكيف يحفظ حق من يعمل معه؟ وتتناول فصول الحقوق والمائدة هذه الصلة بين الرزق والمسؤولية.

وللعطاء وجه آخر في الخبر التالي: عنقود محبوب يحضر عند الإفطار، ثم يتكرر بذله للسائلين. تنتقل بذلك من سؤال التعلق بالملكية في قصة الجنتين إلى مشهد روائي يتأمل القارئ فيه القدرة على البذل.

عنقود يتكرر إهداؤه إلى السائل

في باب العنب يروي هشام بن سالم خبراً عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام، يذكر فيه أنه كان يعجبه العنب. وكان صائماً، فلما أفطر وُضع بين يديه عنقود، فجاء سائل فدفعه إليه. ثم اشترى العنقود من السائل وأعيد إليه، فجاء سائل آخر فأعطاه إياه. وتكرر شراء العنقود وإعادته وإعطائه لسائل ثالث، حتى يذكر الخبر أنه أكله في المرة الرابعة.

تحفظ هذه الخلاصة ترتيب الحكاية كما ورد، دون إضافة أسماء للسائلين أو مكان للحادثة أو حوار لم ينقله النص. ويصل الكليني إلى هشام بن سالم بطريق علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير. وقد وصف المجلسي الحديث الثالث من باب العنب بأنه «حسن» في مرآة العقول، ج ٢٢، ص ١٨٨ [ح ٢١]؛ وهو تقويم منقول لهذا الخبر بعينه.

تكتسب الثمرة معناها الأخلاقي من أنها محبوبة لصاحبها وقد حضرت عند فطره؛ فيصبح الإعطاء في القصة فعلاً يمس رغبة قريبة. ويستطيع القارئ أن يتأمل كرم النفس من غير أن يحول الواقعة إلى إلزام لكل صائم بأن يترك طعامه. وفي خاتمتها يأكل الإمام من العنب، فيبقى الانتفاع بالنعمة حاضراً إلى جانب البذل.

المصدر: الكافي، ج ٦، كتاب الأطعمة، باب العنب، الحديث ٣ [ح ٣]، وتقويم المجلسي في مرآة العقول،

ج ٢٢، ص ١٨٨ [ح ٢١].

إحالات الفصل: سورة النحل ١١ و ٦٧؛ سورة الكهف ٣٢-٤٤؛ سورة يس ٣٤-٣٥؛ سورة عبس ٢٨؛ الكافي، ج ٦، كتاب الأطعمة، باب العنب وباب الزبيب [ح ٣]؛ مرآة العقول، ج ٢٢، ص ١٨٨، تقويم الحديث الثالث من باب العنب [ح ٢١].

الفصل الرابع عشر: التين – الاسم والقسم والدلالة

ما يثبت اللفظ

سورة التين، الآيات ١-٣.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ ﴿١﴾

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ ﴿٢﴾

﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ ﴿٣﴾

ينتقل القسم من التين والزيتون إلى طور سينين ثم البلد الأمين، فيجمع أسماء تلفت إلى النعمة وإلى مواطن ذات دلالة في الهداية. ويهيئ هذا الافتتاح للحديث عن الإنسان، فلا تكون أسماء النبات غاية السورة المنفصلة عن رسالتها.

التين اسم معروف في الاستعمال العربي، وقد نقل المفسرون أيضاً أقوالاً تصل المقسم به بأماكن أو مشاهد نبوية. أبدأ بالدلالة اللغوية والسياق، ثم أعرض هذه الأقوال مع نسبتها، حتى يكون موضع الاختلاف معلوماً للقارئ.

وجه التفسير

يعرض مجمع البيان تفسير التين والزيتون بالثمرتين، وينقل وجوهاً أخرى. والاختلاف هنا يدعو إلى احترام طبقات المعنى، لا إلى القول إن الثمرة المقصودة مجهولة مطلقاً. ويمكن أن يكون للنبات حضوره الحسي، مع بحث المفسر في حكمة مجاورته للأماكن المذكورة بعده.

الرواية وحدود الاستدلال

يروى الكليني عن الإمام الرضا عليه السلام خبراً في التين، يذكر منافع صحية وينتهي إلى تشبيهه بنبات الجنة. وعند مقابلة شرحه في مرآة العقول وجدت قول المجلسي: «الحديث الأول: حسن وآخره ضعيف على

المشهور». وفي الصفحة طريق آخر يعقبه لفظ «مثله». لذلك أثبت عبارة المجلسي كاملة، ولا أختصر تقويمه المركب في حكم واحد بالصحة أو الضعف على جميع ما في الموضع [ح ٤، ح ١٨].

وتبقى دلالة الألفاظ مسألة أخرى؛ فوجود الخبر وتقويم طريقه لا يساويان إثبات منفعة علاجية بالتجربة. كما لا نحل سعة العبارة على ترك الدواء أو الاستغناء عن التشخيص. وحين يذكر التين في هذا الكتاب نجمع بين موضعه القرآني وخبره المروي، مع بيان مصدر كل منهما وحدود ما يستفاد منه.

مصدر التقويم: المجلسي، مرآة العقول، ح ٢٢، باب التين، ص ١٩٩ [ح ١٨].

من القسم إلى الإنسان

سورة التين، الآيات ٤-٨.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ﴿٤﴾

﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ ﴿٥﴾

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ﴿٦﴾

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ ﴿٧﴾

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ ﴿٨﴾

بعد القسم يأتي بيان خلق الإنسان في أحسن تقويم، ثم التحذير من الانحدار مع استثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات. وتنتهي السورة بسؤال عن التكذيب بالجزاء وحكمة الله في الحكم؛ فتتضح الصلة بين كرامة الخلق ومسؤولية العمل.

ينتقل سياق السورة من المقسم به إلى خلق الإنسان وتقويمه ومسؤوليته. وتظهر دلالة هذا الانتقال حين نصل آيات القسم بآيات الخلق والعمل والجزاء، فتتکامل قراءة المطلع والخاتمة في معنى واحد.

مطلع السورة وخاتمتها

يصل مطلع السورة خاتمتها في بناء يتناول خلق الإنسان والعمل والجزاء. ومن ثم يُقرأ ذكر التين والزيتون ضمن هذا البناء، ويُبحث ما ينسب إليهما من منافع في أدلته الخاصة. فالقسم لا يثبت بمفرده كل قول متداول عن الثمرتين.

وعند عرض أقوال المفسرين أُميّز بين القول المنقول ووجه ترجيحي له. فبجرد ورود تفسير مكاني للتين أو الزيتون لا يثبت إلغاء الدلالة اللغوية المعروفة، كما أن شهرة الثمرتين لا تبطل البحث في مناسبات السورة. يحسن بالقارئ أن يرى موضع الخلاف محددًا: أهو في المراد بالاسم، أم في حكمة القسم، أم في صلة المقسم به بما بعده؟ فكثير من الالتباس ينشأ من جمع هذه الأسئلة في سؤال واحد.

إحالات الفصل: سورة التين ١-٨؛ الطبرسي، مجمع البيان، تفسير سورة التين [ت ١]؛ الكافي، ج ٦، كتاب الأطعمة، باب التين، الحديث ١ [ح ٤]؛ مرآة العقول، ج ٢٢، ص ١٩٩ [ح ١٨].

الفصل الخامس عشر: الرمان — تشابه الظاهر واختلاف الثمر

الاسم في مواضعه

سورة الأنعام، الآية ١٤١.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿١٤١﴾

يذكر الرمان بين ثمار متشابهة وغير متشابهة، ثم يؤمر بالأكل وإخراج حق الحصاد وترك الإسراف. وهكذا يجتمع تذوق الثمرة مع أدب اقتنائها وتوزيع خيرها، فلا تتحول وفرة البستان إلى حجة لنسيان المحتاج.

سورة الرحمن، الآية ٦٨.

﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ ﴿٦٨﴾

يرد الرمان هنا في وصف الجنتين الآخرين من مشاهد النعيم في سورة الرحمن، مع الفاكهة والنخل. والمقام مقام وعد بالرزق والسرور؛ ولذلك تفهم الأسماء المألوفة بوصفها تقريباً للنعمة، مع بقاء حقيقتها الأخروية أوسع من خبرتنا.

ويلفت تخصيص الرمان بالذكر إلى عناية السياق به. وقد يذكر الكلام فرداً من الجنس بعد ذكر الجنس نفسه؛ ولذلك لا يكفي وروده بعد الفاكهة للحكم بخروجه من كل استعمال لغوي لها.

المشاهدة قبل النتيجة

سورة الأنعام، الآية ٩٩.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٩٩﴾

يجمع السياق الزيتون والرمّان تحت النظر في التشابه والاختلاف، ثم يدعو إلى تأمل الثمرة عند تكونها ونضجها. فتبدو التفاصيل التي يعرفها المزارع من اللون والهيئة والنضج جزءاً من ملاحظة مقصودة، لا زينة عابرة في الكلام.

في متابعة الثمر مجال لملاحظة الهيئة واللون والطعم وأطوار النضج. وأستعين بهذه الخبرة لتقريب المشهد، مع إبقاء معنى التشابه والاختلاف أوسع من صفة واحدة يختارها الناظر، حتى يحفظ لكل وجه تفسيري دليله.

الروايات الغذائية

جمع الكافي عدداً من أخبار الرمان في باب مستقل. وتعدد الأخبار لا يسوّغ جمع ألفاظها في وصفة واحدة، ولا يجعل أسانيداً في درجة واحدة. ومنهج هذا الكتاب أن يثبت موضع الروايات، ويترك الجزم بالعلاج إلى الأدلة التي تصلح لذلك.

أدب الانتفاع

يدعوني منظر الرمان إلى التأمل في الفرق بين ظاهر الثمرة وما يظهر عند فتحها. وأقصد بهذه الملاحظة الأدبية تقريب قيمة النظر المتأني، دون نسبتها إلى تفسير مآثور.

كيف نفهم التشابه والاختلاف؟

التشابه علاقة تحتاج إلى تعيين وجهها؛ فقد يتشابه شيان في هيئة ويختلفان في أخرى. ولهذا لا يصح أن نقرأ لفظ التشابه كما لو أنه ينفي كل فرق، أو أن نقرأ الاختلاف كما لو أنه ينفي كل جامع. وتمنح الثمار مجالاً واضحاً لملاحظة ذلك، من غير أن يلزمنا اختيار صفة واحدة وحصر المعنى القرآني فيها.

وفي المشاهدة التعليمية يمكن وصف ثمرتين على مراحل: قبل الفتح، وبعده، وفي أثناء النضج. يكتسب المتعلم بذلك عادة تعيين وجه الشبه والاختلاف، ويفصل الصفة التي لاحظها عن الحكم الذي استنتجه. وهذه الدقة في الوصف تفيد في دراسة النبات وفي قراءة النصوص التي تذكره.

عدد ألوان الفاكهة في لغة الخبر

جاء في رواية مسعدة بن زياد عن الإمام الصادق عليه السلام:

«الفاكهة مائة وعشرون لونا سيدها الرمان».

وردت الرواية في باب الرمان، بطريق علي بن إبراهيم، عن هارون بن مسلم، عن مسعدة بن زياد. ووصف المجلسي الحديث الثاني بأنه «حسن أو موثق» في مرآة العقول، ج ٢٢، ص ١٩١ [ح ٢٢]. وتستعمل الرواية لفظ «لون» في تعداد الفاكهة؛ أما تحويل العدد إلى حصر علمي للأنواع النباتية في العالم فيحتاج إلى تعريف للنوع ومجال للإحصاء وطريقة للعد، وهي أمور لا يقدمها هذا النص.

يحفظ الاقتباس لفظ الرواية، ويحفظ الشرح اختلاف مجالها عن التصنيف النباتي الحديث. ومن ثم يمكن أن يكون الخبر مادة لدراسة حضور الرمان في التراث وآداب الطعام، من غير أن يصبح قائمة علمية مكتملة أو حكماً غذائياً يلغي اختلاف حاجات الناس.

المصدر: الكافي، ج ٦، كتاب الأطعمة، باب الرمان، الحديث ٢ [ح ٥]، وتقوم المجلسي في مرآة العقول، ج ٢٢، ص ١٩١ [ح ٢٢].

إحالات الفصل: سورة الأنعام ٩٩ و١٤١؛ سورة الرحمن ٦٨؛ الكافي، ج ٦، كتاب الأطعمة، باب الرمان [ح ٥]؛ مرآة العقول، ج ٢٢، ص ١٩١، تقويم الحديث الثاني [ح ٢٢].

الفصل السادس عشر: الحبوب والسنبال — غذاء الإنسان

طعام يقوم عليه العيش

سورة الرحمن، الآية ١٢.

﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ ﴿١٢﴾

ترد الحبوب ذات العصف والريحان ضمن تعداد نعم الأرض. وتجمع العبارة القوت وما يصاحب النبات من أغلفة وأجزاء وما يفهم من الريحان في سياقه؛ فتوجه النظر إلى عطاء يتجاوز الحبة المعزولة عن نباتها.

سورة عبس، الآيات ٢٤-٣٢.

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ ﴿٢٤﴾

﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ ﴿٢٥﴾

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ ﴿٢٦﴾

﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ ﴿٢٧﴾

﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ ﴿٢٨﴾

﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ ﴿٢٩﴾

﴿وَحَدائقَ غُلْبًا﴾ ﴿٣٠﴾

﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ ﴿٣١﴾

﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ ﴿٣٢﴾

تطلب الآيات من الإنسان أن ينظر إلى طعامه، ثم تعيده خطوة خطوة إلى الماء وشق الأرض والإنبات. وتتسع القائمة من الحب والعنب إلى الزيتون والنخل والحدائق والفاكهة والأب، وتنتهي بالناس والأنعام؛ فتجعل المائدة آخر حلقة ظاهرة في رحلة عطاء أوسع.

يتسع لفظ الحب لأكثر من محصول بحسب المقام. لذلك أحفظ عمومته حين يرد عامًا، واحتاج إلى قرينة قبل تعيينه بالقمح أو الشعير. وسأتابع انتقال السنابل من حقل القوت إلى صورة المثل ثم إلى تدبير مجتمع كامل.

الحبة في المثل

سورة البقرة، الآية ٢٦١.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿٢٦١﴾

يشبه المثل الإنفاق في سبيل الله بحبة أخرجت سبع سنابل، في كل سنبل مئة حبة. والغرض بيان اتساع الثواب ومضاعفة الخير بإذن الله، باستحضار صورة يعرف فيها الزارع كيف يخرج من القليل نتاج كثير. تأتي المضاعفة في مقام بيان أثر الإنفاق وثوابه، ويقربها مشهد الخصوبة الذي يعرفه الزارع. أما محصول الحقل الفعلي فيتفاوت بالماء والتربة والصنف؛ فلا يصبح عدد الحبات في المثل معادلة لإنتاج تلزم بها المزارع.

السنابل في قصة يوسف

سورة يوسف، الآية ٤٣.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ ﴿٤٣﴾

يروى الملك رؤيا ألقته: سبع بقرات سمان تأكلهن سبع عجاف، وسبع سنابل خضر وأخرى يابسات. ثم يطلب من أهل مجلسه تفسيرها؛ فتبدأ حكاية السنابل بسؤال عن معنى صورة ستتصل لاحقًا بتدبير غذاء الناس.

سورة يوسف، الآيات ٤٦-٤٩.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤٦﴾

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿٤٧﴾

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَحْصِنُونَ﴾ ﴿٤٨﴾

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ﴾ ﴿٤٩﴾

يصل السؤال إلى يوسف عليه السلام في السجن، فيفسر الرؤيا بتتابع أعوام الزراعة ثم الشدة ثم الفرج. ويوجه إلى حفظ الحبوب في سنابلها إلا قدر الطعام، ليكون محصول السعة عوناً على سنوات القحط؛ وهكذا يتحول تفسير الرؤيا إلى خطة لحماية القوت.

هنا تتجاوز أهمية الحبة وجبة اليوم إلى طعام سنوات مقبلة، ويصبح حفظها مسؤولية تتعلق بحياة الجماعة. وفي الفصل الثامن والعشرين أتتبع حوار الرؤيا وخطة يوسف عليه السلام وما تكشفه من صلة المعرفة بالأمانة.

بين الطعام والتجارة

قد يصير الحب سلعة في السوق، لكنه يظل أساساً في عيش الناس. ومن ثم لا ينفصل التفكير في وفرة المحصول عن سؤال من يصل إليه ومن يحرم منه. وهذا استنتاج أخلاقي عام يستند إلى ربط القرآن بين الرزق والإنفاق، لا فتوى تفصيلية في عقد تجاري.

السنابل بين الإنتاج وحفظ القوت

للحب ثلاثة أزمنة في حياة الناس: زمن يُرجى فيه قبل الحصاد، وزمن يتوافر فيه عند الجمع، وزمن يعتمدون فيه على المدخر منه. ويختلف السؤال في كل مرحلة. فقد تنجح الزراعة ثم يضيع قسم من نفعها بسوء الحفظ أو التوزيع، وقد يتوافر المخزون ويبقى بعض المحتاجين محرومين منه. لذلك لا تكفي صورة السنبل الممتلئة لقراءة أمن المجتمع الغذائي كله.

ويتجاوز في القرآن مشهد السنبل التي تضاعف أثر الإنفاق مع سنابل رؤيا يوسف التي تنظم النظر إلى المستقبل. الأول مثل في الأجر والعطاء، والثاني جزء من قصة تدير سنوات متعاقبة. يشتركان في صورة مألوفة، لكنهما لا يؤديان الوظيفة نفسها. ومن جمال الحكاية النباتية أن الصورة الواحدة تفتح أسئلة مختلفة بحسب موقعها، فلا تتحول الإحالات المتعددة إلى تكرار لمعنى واحد.

إحالات الفصل: سورة البقرة ٢٦١؛ سورة يوسف ٤٣ و٤٦-٤٩؛ سورة الرحمن ١٢؛ سورة عبس ٢٧؛ الميزان، تفسير سورة عبس ٢٤-٣٢ [ت ٢].

الفصل السابع عشر: البقل والقثاء والعدس والبصل والفوم

طلب طعام الأرض

سورة البقرة، الآية ٦١.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ ﴿٦١﴾

طلب قوم موسى عليه السلام استبدال طعامهم بأنصاف يعرفونها مما تنبت الأرض، ومنها العدس والبصل. فجاءهم الجواب منبهاً إلى سوء اختيارهم في ذلك المقام. ثم تتسع الآية إلى تاريخ من الكفر والاعتداء، فلا يُحصر معناها في الحكم على أسماء الأطعمة المذكورة.

يتجه النظر في هذا الموضع إلى موقف القوم من النعمة واختيارهم في ذلك السياق. وتظل منافع البقول وأحكام أكلها مسألة لها أدلتها؛ فأسماء العدس والبصل وسائر المطلوبات لا تحمل بمفردها حكماً بالتحريم أو خلوها من النفع.

أسماء واضحة وأسماء مختلف فيها

البقل لفظ يتسع لنباتات تؤكل، والعدس والبصل اسمان معروفان. أما الفوم فقد قيل إنه الثوم، وقيل إنه الحنطة. وينقل الميزان هذين الوجهين. لذلك أثبت الخلاف كما هو، ولا نضع صورة الثوم على الآية مع الادعاء بأنها التحديد الوحيد المتفق عليه.

القضاء والاسم الحديث

قد تتقارب الأسماء الشعبية للقضاء والخيار بين البلدان، وقد يفترق مدلولها الزراعي. ومهمة الباحث أن يشرح استعمال المفسر واللغة التي ينقل عنها، ثم يحدد النبات الحديث إن سمحت الأدلة. فالتشابه في الاسم وحده لا يكفي لإثبات تطابق نوعين في جميع البيئات.

درس يتجاوز القائمة

تدعو القصة إلى مراجعة العلاقة بين الاعتياد والامتنان؛ فقد ينشغل الإنسان بصورة مألوقة من الطعام حتى يغفل عما حوله من العطاء. غير أن التأمل لا يجيز لنا الحكم على دوافع كل من يغير غذاءه، فلكل شخص حاجاته وظروفه.

الحكم على الموقف غير الحكم على الطعام

ينبغي أن تبقى قائمة النباتات متصلة بالحوار الذي وردت فيه؛ فالآية تعرض طلباً ومفاضلة بين حالين. وتبحث قراءة القصة موقف أصحاب الطلب، بينما يبحث وصف النباتات أسماءها ووجوه الانتفاع بها. ويُسْـتَـكَلّ سياق الحوار في الفصل الثلاثين.

أما الخلاف في القوم فيعرض بألفاظ دقيقة: «فسره بعضهم بكذا» و«نقل فيه قول آخر». ولا تتحول إحدى العبارتين إلى «قال القرآن الثوم» ما دام اللفظ القرآني هو القوم والخلاف قائماً في تفسيره. إن المحافظة على الاسم الأصلي في الفهرس، مع إحالة مستقلة إلى وجوه تفسيره، تمنع ضياع الفرق بين النص وشرح النص عند انتقال المعلومة من كتاب إلى آخر.

إحالات الفصل: سورة البقرة ٦١؛ الطباطبائي، الميزان، تفسير الآية نفسها [ت٣].

الفصل الثامن عشر: السدر والأثل والخط

نباتات في سياق التحول

سورة سبأ، الآيات ١٥-١٧.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ۖ جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۚ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ ﴿١٥﴾

﴿فَاعْرِضُوا ۖ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ ﴿١٦﴾

﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ ﴿١٧﴾

كان لسبأ في مساكنهم جنتان، عن اليمين والشمال، وقُرْن الرزق بدعوتهم إلى الشكر. فلما أعرضوا جاء سيل العرم، واستبدل بثمر الجنتين أكل مرّ وأثل وشيء قليل من السدر؛ فتروى خسارة النعمة مع بيان سببها الأخلاقي في القصة.

يظهر أثر التبدل حين أقارن عطاء الجنتين بما آتانا إليه. وقد تكون للشجرة الباقية منفعة في موضع آخر، لكن حلولها محل بستان وافر يدل هنا على خسارة في مورد العيش؛ فالقصة تُفهم من الانتقال بين الحالين.

السدر بين الدنيا والآخرة

سورة الواقعة، الآية ٢٨.

﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ ﴿٢٨﴾

يُرد السدر المخضود في وصف نعيم أصحاب اليمين. فالمشهد هنا أخروي، يرتبط بالراحة والوفرة، ويختلف عن ذكر السدر القليل الذي بقي في قصة سبأ؛ ومن السياق نفهم وظيفة الاسم في كل موضع.

سورة النجم، الآيات ١٤-١٦.

﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾ ﴿١٤﴾

﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ ﴿١٥﴾

﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ ﴿١٦﴾

تقع سدرة المنتهى في مشهد الرؤية الوارد في سورة النجم، وعندها جنة المأوى، ويصف النص ما يغشاها من غير تفصيل لحقيقته. لذلك أبقى الوصف عند حدود البيان القرآني، ولا أحوله إلى تحديد جغرافي أو وصف لنوع أرضي بعينه.

يختلف مقام كل واحد من هذه المواضع: أثر خسارة في سبأ، ووعد نعيم لأصحاب اليمين، ومشهد من آيات الله عند سدرة المنتهى. وأحفظ هذا الاختلاف عند شرح الاسم، مع الوقوف في وصف الغيب عند ما ورد به النص.

حدود تعيين الخط

ينقل الطبرسي في مجمع البيان، عند مناقشة اللفظ وقراءته، عن أبي عبيدة أن الخط «كل شجرة مرة ذات شوكة». ويختار الطبري في جامع البيان تفسيره بالأراك، وينقل هذا التعيين عن عدد من أهل التأويل. فلدينا وصف لغوي أوسع وتعيين باسم شجر معروف في كتب التفسير؛ ولا يصح إخفاء هذا الفرق وراء اسم نباتي حديث واحد [٩ت، ١٠].

وتبين هذه المقارنة جهة السؤال: هل يصف اللفظ طعم النبات وصفته، أم يراد به اسم شجر معين؟ أما السياق فيصور تبدل الجنتين وما أصاب رزق القوم. ويمكن فهم هذا التحول مع إبقاء البحث في تعيين النبات مفتوحاً، ودون اعتبار كل استعمال للأراك أو غيره عديم النفع.

المقارنة التفسيرية: مجمع البيان، تفسير سورة سبأ ١٦، مبحث القراءة والحجة [٩ت].

المصدر المقارن: جامع البيان للطبري، تفسير سورة سبأ ١٦ [١٠ت].

البيئة ليست قائمة خير وشر

تفصل القراءة بين وظيفة النبات في القصة وقيمته في بيئته. فالأثل والسدر جزء من مشهد تحول أصاب عمران سبأ؛ أما منافعهما وعلاقتهما بسائر الكائنات فتدرس في مواضعها. ولا يتحول اسم شجرة إلى علامة شؤم لمجرد وروده في هذا السياق.

ما الذي تغير في مشهد سبأ؟

موضع المقارنة في القصة هو الجنتان قبل التحول وبعده. فقد يبقى في الأرض نبات، ومع ذلك يتغير ما تمنحه لأهلها من غذاء ورزق. وتظهر دلالة الاستبدال بمقارنة المشهدين، لا بخصر النظر في شجرة منفردة.

ولذلك يعود الفصل الثالث والأربعون إلى خبر سبأ بوصفه قصة عن النعمة والعمران والمآل. ويحفظ الفصل الحالي أسماء النباتات والخلاف في تعيينها، لتتكامل القراءة اللغوية مع قراءة القصة من غير إعادة تفصيلها.

إحالات الفصل: سورة سبأ ١٥-١٧؛ سورة الواقعة ٢٨؛ سورة النجم ١٤-١٦. ويحفظ الملحق السادس خلاف تعيين الخط دون ترجيح غير موثق.

الفصل التاسع عشر: اليقطين – نبات في مشهد الرحمة

ما جاء في الآية

سورة الصافات، الآيات ١٤٥-١٤٦.

﴿فَبَدَّلْنَا بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ ﴿١٤٥﴾

﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ﴾ ﴿١٤٦﴾

أُلقي يونس عليه السلام في أرض خالية وهو سقيم بعد محنته، ثم أنبت الله عليه شجرة من يقطين. يأتي النبات هنا في موضع عناية بنبي ضعيف الجسد؛ أما تفصيل كيفية انتفاعه بالشجرة فلا تصرّح به هاتان الآيتان. أرى موضع العبرة في هذه الرعاية التي صاحبت ضعف يونس عليه السلام بعد نجاته. أما تحويل اليقطين إلى برنامج علاجي أو تعيين مقدار يؤخذ منه فيحتاج إلى دليل آخر؛ فالقصة تبين العناية ولا تعرض تجربة طبية.

لفظ الشجرة

استعمال لفظ الشجرة في الآية يحذرنا من فرض اصطلاحات علم النبات الحديثة على كل لفظ عربي قديم. فقد يختلف اتساع الكلمة في الاستعمال اللغوي عن تعريف الشجرة في كتاب تعليمي معاصر. ولا يطعن هذا الاختلاف في اللغة ولا في العلم؛ إنما يستلزم فهم كل اصطلاح في مجاله.

القرع والتعيين

اشتهر تفسير اليقطين بالقرع، وتناقش كتب التفسير مدى عموم الاسم. ولذلك يذكر الكتاب هذا التفسير المشهور دون حصر النص في صنف تجاري حديث، أو شكل بعينه من الثمار يباع في الأسواق. فتحديد الصنف يحتاج إلى ما يزيد على الاسم العام.

قد تأتي الرعاية في صورة ظلال وطعام وماء وصحبة. وهذه قراءة تأملية تستأنس بالمشهد، ولا تضيف إلى القصة تفاصيل لم يذكرها النص. وما نحتاج إليه من حكاية اليقطين أولاً هو أن الضعف لا يخرج الإنسان من مجال العناية.

الرعاية من غير إضافة تفاصيل مجهولة

يحفظ هذا الفصل اسم اليقطين وحدود تعيينه، ويتابع الفصل الثاني والثلاثون سياق قصة يونس. وتوضح فائدة الفصل بين الموضعين حين نفرق بين السؤال عن النبات والسؤال عن موقعه في رحلة النبي. وتبقى صورة الرعاية قريبة من القلب بما أثبتته النص من حال السقم وإنبات الشجرة. أما الأخبار التي تزيد تفاصيل على هذه الصورة فتدرس بإحالاتها وطرقها. وهكذا يصل القارئ بين اللفظ النباتي والمشهد القصصي، مع معرفة مصدر كل تفصيل.

إحالات الفصل: سورة الصافات ١٤٥-١٤٦. وتفصيل قصة يونس في الفصل الثاني والثلاثين.

الفصل العشرون: الخردل — الحبة الصغيرة ودقة الميزان

حبة الخردل في وصية لقمان

﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ^ج إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾

القرآن الكريم، سورة لقمان، الآية ١٦.

في خطاب الأب لابنه يصير صغر الحبة صورة تقرب دقة الحساب وسعة العلم. ويزداد المعنى وضوحاً مع تباعد المواضع المذكورة وخفاء ما في الصخرة. ليست العبرة رقماً نضعه لوزن الحبة، وإنما أن ما يستهين به الإنسان لصغره أو خفائه لا يضيع عند الله. وفي تربية الضمير أثر لهذا التصوير: إحسان قليل له شأن، وظلم مستتر لا يصير مباحاً لأن صاحبه يظن أن أحداً لن يراه.

الصغر الذي لا يضيع

تظهر حبة الخردل في آيتين تتصلان بإحاطة العلم والعدل. وفي وصية لقمان يستحضر النص الحبة ولو كانت في صخرة أو في السماوات أو في الأرض. فالمشهد يرد الإنسان إلى مسؤوليته عن الصغير كما عن الكبير.

العدل والميزان

سورة الأنبياء، الآية ٤٧.

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً^ط وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا^ك وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ ﴿٤٧﴾

المشهد هو يوم القيامة، حيث تقام موازين العدل ولا تُظلم نفس. وتذكر حبة الخردل لتقريب غاية الدقة في الحساب: لا يُهمل العمل لصغره، ولا يتعذر إحضاره؛ فينتقل أصغر ما يُتصور من البذور إلى مثال على تمام العدل.

تصبح الحبة الصغيرة سبيلاً إلى فهم معنى كبير: للعمل قدر محفوظ، وإن خفي على نظر الناس. وتأتي صورة الخردل لتقريب هذه الدقة إلى الحس، ويفهم مقدارها هنا في مقام التمثيل، لا بوصفها وحدة قياس مخبرية ثابتة.

لا حاجة إلى مبالغة نباتية

لا يلزم من المثل أن تكون حبة الخردل أصغر بذرة في العالم. فالمثل يستعمل صورة مفهومة في خطاب الناس، ولا يتوقف على ترتيب جميع البذور ترتيباً جَمِياً. وإلزام النص بدعوى كهذه يحمله ما لم يقله.

أثر عملي

في حياة الزراعة أعمال صغيرة تراكم أثرها: حفظ بذرة، وإصلاح تسرب، وعدم إهدار ثمرة. ويمكن أن نتذكر بها قيمة الفعل، بشرط ألا ننسب هذه الأمثلة التفصيلية إلى تفسير مآثور. إنها تطبيقات أخلاقية أقترحها في ضوء المعنى العام.

الدقة الأخلاقية لا تحتاج إلى رقم مخبري

تربط صورة الحبة بين ضالة الشيء في عين الإنسان وحفظه في ميزان العدل. ومن هذا المعنى ينشأ سؤال للسلوك: ما التفاصيل التي نهملها لأن أثرها لا يظهر لنا؟ ينتقل التأمل هنا من حجم البذرة إلى أمانة الفعل.

وقد يتعلم الباحث من هذا المعنى أمانة التفاصيل: نسبة قول إلى صاحبه، وعدم إسقاط كلمة تغير الدلالة، والإفصاح عن موضع لم يتحقق منه. أقترح هذه التطبيقات دون أن أحصر فيها تفسير الآيتين. وهي تبين كيف يمكن لصورة نباتية وجيزة أن تستدعي عادات عملية في البحث والعمل، دون الحاجة إلى تحميلها اكتشافاً علمياً لم تتحدث عنه.

إحالات الفصل: سورة الأنبياء ٤٧؛ سورة لقمان ١٦.

الفصل الحادي والعشرون: الريحان والقضب والأب والمرعى

ألفاظ أوسع من نوع واحد

سورة النازعات، الآيات ٣١-٣٣.

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ ﴿٣١﴾

﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ ﴿٣٢﴾

﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ ﴿٣٣﴾

تجمع الآيات خروج الماء والمرعى وثبيت الجبال، ثم تبيّن انتفاع الناس وأنعامهم بذلك. والمرعى في هذا المشهد مجال للغذاء والحياة، فيحضر النبات بما يؤديه من وظيفة مشتركة في الأرض.

سورة الأعلى، الآيات ٤-٥.

﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ ﴿٤﴾

﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ ﴿٥﴾

تنتقل الصورة من مرعى نام إلى غطاء تغير لونه وحاله. ويرى في هذا الانتقال وجه من تقدير أطوار النبات: ما يغذي الأحياء في طور لا يبقى على هيئته إلى الأبد.

ليست كل مفردة نباتية في القرآن اسم نوع محدد. فالمرعى يدل على مجال التغذية بالنبات، والأب يفسر بالكلاء وما ترعاه الأنعام، والقضب يتصل بما يقطع من النبات. وقد تنقل كتب التفسير في بعض هذه الألفاظ أكثر من وجه.

الريحان

سورة الرحمن، الآية ١٢.

﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ ﴿١٢﴾

يأتي الريحان إلى جانب الحب ذي العصف في تعداد نعم الأرض. فالقراءة تبدأ من هذا السياق الجامع للرزق، ثم تنظر في معنى اللفظة، من غير افتراض أن كل ورود لها يصف النبات نفسه بالمعنى الاصطلاحي الحديث.

سورة الواقعة، الآية ٨٩.

﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ﴾ ﴿٨٩﴾

تأتي هذه البشارة ضمن الحديث عن مصير الإنسان عند الموت، في شأن من كان من المقربين. ويقترن الريحان بالروح وجنة النعيم، فيصبح المعنى متعلقاً بالراحة والرزق والكرامة، ويُفهم داخل هذا الوعد الآخرى.

لهذا أرجع في تفسير الريحان إلى سياق كل موضع وإلى وجوه اللغة، وأعرض ما نقله المفسرون. أما الاسم المتداول اليوم لنبات عطري بعينه، فلا يكفي وحده لتعيين المراد في جميع هذه المواضع.

القضب والأب

سورة عبس، الآيات ٢٨-٣٢.

﴿وَعِنْبًا وَقَضْبًا﴾ ﴿٢٨﴾

﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ ﴿٢٩﴾

﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾ ﴿٣٠﴾

﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ ﴿٣١﴾

﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ ﴿٣٢﴾

تتابع الآيات أصنافاً من ثمر وأشجار وحدائق، ثم تجمعها في منفعة الإنسان وأنعامه. وبهذا لا تكون المفردات قائمة أسماء فحسب، بل خريطة موجزة لتنوع الغذاء بين ما يأكله الناس وما تقوم عليه معيشة الحيوان.

ويشرح الميزان القضب بما يقطع من النبات، وينقل اختلافاً في جهة الانتفاع به، كما يفسر الأب بالكلاء والمرعى. تساعد هذه القراءة على فهم تنوع الأجزاء التي يأكلها الإنسان والحيوان من عطاء الأرض نفسه.

حق ما لا نأكله

قد لا يصلح النبات لمائدة الإنسان، ثم يكون علفاً أو مأوى أو جزءاً من حياة المكان. ومن ثم لا ينبغي أن يقيس الإنسان قيمة كل نبات بمقدار ما يبيعه أو يأكله. وهذا الدرس الأخلاقي مستفاد من سعة المشهد، لا من تحريم كل تغيير في المرعى.

الفهرس الذي يحترم عموم اللفظ

إذا جمع الفهرس «المرعى» مع «النخيل» في قائمة واحدة من غير بيان، فقد يوهم أن الكلمتين من المستوى التصنيفي نفسه. والصواب أن يفرق بين اسم نبات، واسم جزء، ولفظ يدل على جماعة أو منفعة أو هيئة. بهذا التنظيم يصبح الفهرس أداة لفهم النص، لا مجرد مستودع كلمات متجاورة.

ويحفظ الفهرس لفظ الريحان كما ورد، ثم يبين وجوه استعماله، كما يحفظ القضب والأب بوصفهما لفظين يحتاجان إلى شرح لغوي. وتتيح الإحالات جمع المواضع المتصلة برزق الإنسان والأنعام مع إبقاء الفروق بينها. وبهذا يصبح اتساع الدلالة جزءاً من المعرفة التي يقدمها الفهرس.

إحالات الفصل: سورة الرحمن ١٢؛ سورة الواقعة ٨٩؛ سورة النازعات ٣١-٣٣؛ سورة عبس ٢٨-٣٢؛ سورة الأعلى ٤-٥؛ الميزان، تفسير سورة عبس [ت٢].

الفصل الثاني والعشرون: الزنجبيل والكافور

اسمان في شراب النعيم

سورة الإنسان، الآيات ٥-٦.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ ﴿٥﴾

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ ﴿٦﴾

يشرب الأبرار من كأس امتزجت بالكافور، ويتبع وصف الشراب بذكر عين يشرب منها عباد الله ويُجرىها لهم كيف شاء. والمشهد مشهد إكرام في الآخرة؛ فاسم الكافور يرد داخل نعيم موعود، لا في وصفة دوائية لأهل الدنيا.

سورة الإنسان، الآيات ١٧-١٨.

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾ ﴿١٧﴾

﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا﴾ ﴿١٨﴾

تتابع سورة الإنسان وصف ضيافة أهل النعيم، فتذكر كأساً مزاجها الزنجبيل وعيناً تسمى سلسبيلاً. وتقرأ هذه التفاصيل بوصفها وجوهاً من طيب العيش والسرور، مع التسليم بأن حقيقة نعيم الآخرة لا تُحصر في مشابهاته الأرضية.

تقرّب الأسماء المعروفة طيب الشراب إلى السامع، ويظل وصفه متعلقاً بالغيب. وأحفظ هذا الحد حين أنتقل إلى الكافور والزنجبيل في الاستعمال الدنيوي؛ فتركيب شراب الجنة وكيفيته لا يُستخرجان من مادة متداولة أو وصفة منزلية.

التقريب لا المطابقة

يفهم الإنسان شيئاً من الوصف من خلال الأسماء التي يعرفها، لكن معرفة الاسم لا تعني الإحاطة بحقيقة المسمى الأخرى. وهذا المبدأ يحفظ للنص قدرته على تقريب المعنى، ويحفظ للغيب ما لا تستقل التجربة الحسية بكشفه.

الكافور في استعمال آخر

يظهر الكافور كذلك في أحكام تجهيز الميت عند الإمامية، وهو موضوع فقهي مختلف عن وصف النعيم. وتشابه الاسم لا يجمع الاستعمالين في حكم واحد، ولا يبيح تناول مادة مخصصة لاستعمال غير غذائي.

الزنجبيل والغذاء

للزنجبيل استعمالات غذائية معروفة، لكن ورود اسمه في السورة ليس دليلاً مستقلاً على علاج مرض بعينه. وفي هذا الكتاب تأتي الرواية، إن وجدت، في بابها، ويأتي البحث الطبي في بابها، وتبقى آيات النعيم مقروءة في مقصدها.

الاسم المألوف ووصف العالم الغائب

تقرأ أوصاف الشراب في سورة الإنسان ضمن الحديث عن الأبرار وجنائهم. ومن هنا ينتقل الاهتمام من الاسم المفرد إلى المشهد الذي يجمع الطيب والكرامة والراحة. فالتأمل في النعيم يبدأ بما يقدمه النص من وصف، ويقف عند حدود ما أخبر به.

وتبقى دراسة المادة الدنيوية سؤالاً مستقلاً: ما حقيقتها، وما استعمالها، وما الدليل على منفعتها؟ يساعد الفصل بين السؤالين على فهم موضع الكافور والزنجبيل هنا، ثم على متابعة مباحث الغذاء والتداوي في أبوابها.

إحالات الفصل: سورة الإنسان ٥-٦ و ١٧-١٨. وانظر الفصلين الخمسين والسابع والخمسين.

الفصل الثالث والعشرون: الجنات والحدائق والزروع والنبات غير المسمى

جمال المشهد الكامل

سورة النمل، الآية ٦٠.

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۚ أَلَيْسَ اللَّهُ بِذِي قُوَّةٍ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿٦٠﴾

يسأل الخطاب عمن خلق السماوات والأرض وأنزل ماء أنبت حدائق ذات بهجة، ثم يذكر الناس بأنهم لا يستقلون بإنبات شجرها. وينتهي بالسؤال عن اتخاذ إله مع الله؛ فالجمال المشهود هنا مدخل إلى التوحيد.

سورة النبأ، الآيات ١٤-١٦.

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ ﴿١٤﴾

﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ ﴿١٥﴾

﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ ﴿١٦﴾

يُنزل الله ماء غزيراً، ثم يذكر ما يخرج به من حب ونبات وجنات كثيفة. وتأتي هذه النعم في سياق تهيئة العالم لحياة الإنسان، قبل الانتقال إلى مشاهد الفصل والجزء في السورة.

سورة عبس، الآية ٣٠.

﴿وَحَدَائِقِ غَلْبًا﴾ ﴿٣٠﴾

تظهر الحدائق الغلب ضمن رحلة الطعام التي تعرضها سورة عبس. وتوحي الصورة باجتماع الأشجار وكثافتها، فينتقل نظر القارئ من الثمرة المفردة إلى البستان بما فيه من نمو متداخل وعطاء متنوع.

سورة الرعد، الآية ٤.

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لُبُّ بَعْضِهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٤﴾

تضع الآية قطع الأرض والكروم والزروع والنخيل المتجاورة أمام عين المتأمل. ثم تبرز اختلاف الثمر مع وحدة السقيا؛ فتجعل البستان مكاناً لملاحظة الفروق، لا صورة متجانسة تخفي تنوع ما ينمو فيه.

يكفي وصف الحديقة أو الجنة لتجتمع في الذهن صورة الماء والخضرة والثمر، حتى حيث لا يُسمى كل نبات. وأترك هذا الاتساع على حاله، مع الاختصار في تعيين المحاصيل على ما يدل عليه النص أو يسنده النقل.

المعروش وغير المعروش

سورة الأنعام، الآية ١٤١.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿١٤١﴾

تتعدد صور الجنات بين معروشات وغير معروشات، وتتعدد الثمار مع اختلاف الأكل. ثم يتوجه الخطاب إلى الأكل وإيتاء حق الحصاد وترك الإسراف، فيصل هيئة البستان بسلوك صاحبه عند الانتفاع بخيره.

في هذا الموضع يلتقي شكل البستان بطريقة التصرف في ثمره. وأتابع هذا اللقاء من هيئة النبات وطرائق تنشئته إلى حق الحصاد والاعتدال في الانتفاع، مع حفظ ما يذكره المفسرون من تفصيل لمعنى المعروش وغير المعروش.

نبات لم يذكر اسمه

هناك شجرة في قصة آدم، وشجرة في نداء موسى، وشجرة تمت البيعة تحتها؛ ولا يذكر القرآن في هذه المواضع اسماً نباتياً محدداً. لذلك تكون عبارة «لم يسم النص نوعها» معلومة نافعة، لا نقصاً يجب ستره بالتخمين.

حدود الموسوعة

يجمع هذا الكتاب الموضوعات المركزية والأسماء ذات الصلة، ولا يدعي أن كل استعمال مشتق من الجذر اللغوي قد خضع لإحصاء آلي مستقل. ويمكن فهرس الآيات القارئ من مراجعة المواضع المستعملة في المتن، ويميز بينها وبين دعوى الحصر المعجمي المطلق.

الشجرة غير المسماة ليست موضعاً فارغاً

يصبح عدم تسمية الشجرة نفسه قرينة على وجه القراءة: نتبع الفعل والوصف اللذين ذكرهما النص، ونبحث عما يخدم غرض القصة منهما. وإذا ورد تعيين في مصدر تفسيري، أذكره بوصفه قولاً منسوباً إلى ذلك المصدر. ولذلك نعتمد في هذا الكتاب ثلاث صيغ مختلفة: «سمى النص النبات»، و«وصفه دون تسميته»، و«عينه بعض المفسرين». هذه الصيغ تساعد القارئ على معرفة مصدر الاسم الذي يراه تحت صورة أو في فهرس. وقد تبقى القصة تامة الدلالة مع بقاء النوع مجهولاً لنا؛ إذ لا ينقص درس الطاعة أو العهد أو الرعاية لأننا لم نحول الشجرة إلى بطاقة في معشبة حديثة.

إحالات الفصل: سورة الأنعام ١٤١؛ سورة الرعد ٤؛ سورة النمل ٦٠؛ سورة النبأ ١٤-١٦؛ سورة عبس ٣٠.

الفصل الرابع والعشرون: أجزاء النبات وتحولاته في التعبير القرآني

من الورق إلى الأكمام

سورة الأنعام، الآية ٥٩.

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ۝٥٩﴾

تدخل الورقة الساقطة والحبة المستترة ضمن بيان علم الله الذي لا يغيب عنه رطب ولا يابس. وليس المقصود قصة ورقة معينة، بل إيقاظ الوعي بأن ما يبدو صغيراً أو خفياً من النبات لا يخرج عن إحاطته سبحانه.

سورة الرحمن، الآية ١١.

﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ۝١١﴾

تذكر الفاكهة والنخلة ذات الأكمام في أرض جعلها الله للأنام. وبذكر الأكمام يلتفت النظر إلى أغلفة الطلع ومراحل الثمر، فيتسع تقدير النعمة ليشمل تكونها قبل ظهور صورتها التي يألفها الآكل.

لكل جزء نباتي دلالة يحددها موضعه: ورقة في بيان إحاطة العلم، وأكمام في وصف النعمة، وسنابل في مثل أو رؤيا. ومن هنا تفيد معرفة أجزاء النبات في تصور المشهد، مع إبقاء الفروق بين أسمائها ووظائفها في الكلام.

الحطام والهشيم والغناء

سورة الكهف، الآية ٤٥.

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ۝٤٥﴾

يضرب المثل للحياة الدنيا بماء اختلط به نبات الأرض، ثم صار النبات هشيماً تفرقه الرياح. وبين الامتلاء والتبدد تنكشف سرعة التحول، فيتعلم القارئ ألا يجعل نضارة الحاضر دليلاً على دوام ما يملك.

سورة الزمر، الآية ٢١.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ﴿٢١﴾

تجمع الآية مسار الماء في الأرض وخروج الزرع واختلاف ألوانه، ثم اصفراره وصيرورته حطامًا. ولفظة الحطام هنا نهاية مشهد متحرك، يتذكر به أصحاب العقول أن القوة الظاهرة مرحلة في دورة قابلة للانتهاء.

سورة الأعلى، الآيات ٤-٥.

﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ ﴿٤﴾

﴿جَعَلَهُ غَنَاءً أَحْوَى﴾ ﴿٥﴾

يخرج المرعى ثم يصير غناء أحوى، فتختصر دورة من النماء والتغير في عبارتين متعاقبتين. والسياق سياق تسبيح وتقدير، يجعل انحلال النبات موضع اعتبار مثلما يجعل خروجه موضع دهشة.

تختار الصورة من أطوار اليبس والفرق ما يقرب معناها إلى المخاطب. وأقرأ الهشيم والحطام والغناء في سياقاتها، ثم أميز هذه القراءة من التقسيم العلي لمراحل التحلل؛ فلكل منهما طريقته في وصف التحول.

الشجر الأخضر والنار

سورة يس، الآية ٨٠.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ ﴿٨٠﴾

يأتي إخراج النار من الشجر الأخضر في سياق الرد على استبعاد إحياء الموتى. فالذي يخلق للإنسان هذا الوجه من الانتفاع بما يبدو بعيداً عنه في صفته، قادر على ما يستبعده الإنسان من البعث.

سورة الواقعة، الآيات ٧١-٧٣.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ ﴿٧١﴾

﴿أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ ﴿٧٢﴾

﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقَرَّبِينَ﴾ ﴿٧٣﴾

يُسأل الناس عن النار التي يوقدونها وعن أصل شجرتها: أأنشأها هم أم أنشأها الله؟ ثم تُذكر منفعتها وتذكرتها؛ فتُرد أداة يستعملونها كل يوم إلى أصل نعمتها وما تفتحه من باب الاعتبار.

ومن هذا الموضع أنتقل إلى وجوه انتفاع الإنسان بالمادة النباتية. وأعرض ما يمكن شرحه من استعمالها مع إبقاء تعيين شجرة بعينها أو آلية مخصوصة لمعنى الآية محتاجاً إلى دليله.

تشبيهه لا نبات مسمى

سورة الرحمن، الآية ٣٧.

﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ ﴿٣٧﴾

المشهد من أحداث القيامة: تنشق السماء وتُشبه بالورد كالدهان. فالوردة هنا جزء من تصوير التحول الهائل، وليست خبراً عن بستان أو تسمية لنبات ينمو في السماء.

سورة المسد، الآيات ٤-٥.

﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ ﴿٤﴾

﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ ﴿٥﴾

تذكر خاتمة سورة المسد امرأة أبي لهب بوصف حمالة الحطب، مع حبل من مسد في جيدها. ويأتي اللفظ في سياق الوعيد، فيحمل ما يرتبط بالنبات معنى داخل صورة الجزاء، لا موضوعاً مستقلاً لمدح نبات أو ذمه.

تحتاج فهرسة هذه الألفاظ إلى مراعاة طريقة ورودها: الوردة في تشبيه السماء، والحطب في مشهد الوعيد، وأسماء الأشجار في مواضع أخرى. بهذا التفريق يحتفظ الفهرس بدلالة النص، ويميّز الاسم النباتي المباشر من الصورة التي تستعين به.

الكلمة النباتية داخل علاقتها البلاغية

تختلف وظيفة المفردة باختلاف موضعها: وصف لشيء في الدنيا، أو جزء من مثل، أو طرف في تشبيه، أو خبر عن الغيب. ومن هذه الوظيفة يتحدد نوع الاستدلال. لذلك يبدأ إعداد الفهرس بقراءة الجملة والسياق، ثم بتعيين ما تؤديه الكلمة فيهما.

ويحسن أن يسأل الباحث قبل بناء قائمته: هل يقرر النص وجود هذا النبات في المشهد، أم يستعير صورته لتقريب مشهد آخر؟ ثم يسأل عن موضع الكلمة بين ما قبلها وما بعدها. بهذه الخطوتين يقل الخلط في الفهارس، ويصبح الجمع بين الآيات قائماً على علاقة واضحة بدل الاكتفاء باشتراكها في مفردات خضراء أو زراعية.

إحالات الفصل: سورة الأنعام ٥٩؛ سورة الكهف ٤٥؛ سورة الزمر ٢١؛ سورة يس ٨٠؛ سورة الواقعة ٧١-٧٣؛ سورة الرحمن ١١ و٣٧؛ سورة الأعلى ٤-٥؛ سورة المسد ٤-٥.

الباب الثالث: النبات في قصص الأنبياء وسيرة أهل البيت عليهم

السلام

تدخل الشجرة الآن إلى حكاية الإنسان: نهي في قصة آدم، وألواح في سفينة نوح، وسنابل في رؤيا الملك التي عبرها يوسف، ونخلة في ساعة من عسر مريم. ويتغير معنى حضور النبات مع تغير الحدث ومن يعيشونه. سئمضي مع هذه المشاهد بقدر ما أخبرت به النصوص، ثم نتابع ما روي من الغرس والعمل والعطاء في سيرة أهل البيت عليهم السلام.

الفصل الخامس والعشرون: آدم وحواء — الجنة والشجرة

الشجرة وحدود الاختيار

سورة البقرة، الآيات ٣٥-٣٦.

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٣٥﴾

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ ^ط وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ ﴿٣٦﴾

أُبيح لآدم وزوجه الأكل في الجنة مع نهيهما عن الاقتراب من شجرة معينة. ثم أزلهما الشيطان، فانتقلت القصة إلى الخروج مما كانا فيه والهبوط إلى الأرض؛ وتبقى هوية الشجرة غير مسماة في هذا النص، بينما تتضح واقعة النهي والمخالفة.

في الإباحة الواسعة وحدّها المعين يبدأ معنى الاختيار. وأتابع من هذا الموضع أثر الوسوسة وفعل الإنسان ورجوعه إلى الله، مع إبقاء اسم الشجرة عند ما سكّت عنه النص؛ فوضوح العبرة لا يتوقف على تعيين ثمرتها.

اسم لم يذكره القرآن

تشيع رسوم تجعل الشجرة شجرة تفاح، وتنقل بعض التفاسير أخباراً في الحنطة أو غيرها. ولا يصير أحد هذه التعيينات نصاً قرآنياً بكثرة تداوله. كما أن القرآن يسمي آدم ويذكر زوجه دون أن يورد اسم حواء في الآيات؛ ونستعمل اسمها هنا وفق الشهرة في التراث، مع حفظ هذا الفرق.

ورق الجنة

سورة الأعراف، الآيات ١٩-٢٢.

﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾
﴿١٩﴾

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِمِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ ﴿٢٠﴾

﴿وَقَاَسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ ﴿٢١﴾

﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتِمُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ۖ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿٢٢﴾

وسوس الشيطان لآدم وزوجه، وزعم أن النهي يحول بينهما وبين منزلة أرفع وبقاء أطول، ثم أقسم لهما أنه ناصح. فلما ذاقا الشجرة ظهرت لهما سوءاتهما، وأخذوا يخصفان عليهما من ورق الجنة؛ فتحول النبات من موضع امتحان إلى وسيلة ستر.

يعود النبات إلى المشهد بوظيفة الستر بعد أن كان موضعاً للامتحان. وأحفظ للصورة إيجازها: ورق يُخفف، وحاجة ظهرت؛ أما نوع الورق وطريقة إعدادة التفصيلية فلم يعينهما النص.

من الزلة إلى التوبة

سورة البقرة، الآيات ٣٧-٣٩.

﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٣٧﴾
﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿٣٨﴾
﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٣٩﴾

لا تقفل القصة بابها عند الزلة؛ فقد تلقى آدم كلمات من ربه فتاب عليه. ثم اقترن الهبوط بوعده الهداية وبيان عاقبة اتباعها أو التكذيب بها، لتبدأ حياة الأرض على أساس إمكان الرجوع وتحمل المسؤولية.

سورة الأعراف، الآيات ٢٣-٢٥.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿٢٣﴾
﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ ﴿٢٤﴾
﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ ﴿٢٥﴾

اعترف آدم وزوجه بظلم نفسيهما، وطلبا المغفرة والرحمة. ثم جاء بيان الحياة في الأرض والموت فيها والخروج منها؛ فتضع هذه الخاتمة الحادثة في أفق عمر الإنسان كله، من السكن إلى البعث.
بهذه الخاتمة يتضح أن المسؤولية تتعلق بفعل الإنسان واختياره، وأن الشجرة جزء من مقام التكليف. وأتأمل فيها كيف يحفظ الحد معنى الحرية وسط النعم، وكيف تفتح التوبة طريقاً لمن أدرك زلته ورجع إلى ربه.

اسم الشجرة في خطاب الإغواء

سورة طه، الآيات ١١٥-١٢٠.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ ﴿١١٥﴾
﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ ﴿١١٦﴾
﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ ﴿١١٧﴾

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ ﴿١١٨﴾

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾ ﴿١١٩﴾

﴿فَوَسَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ ﴿١٢٠﴾

تستعيد الآيات العهد إلى آدم، وأمر الملائكة بالسجود، وامتناع إبليس، ثم التحذير من عداوته ومن الخروج إلى الشقاء. وبعد ذلك يسمي الشيطان الشجرة شجرة الخلد ويقرنها بملك لا يبلى؛ فيظهر كيف صاغ الإغراء بلغة تلامس رغبة الإنسان في البقاء.

تستوقفني طريقة تزيين الرغبة: يُعرض تجاوز الحد كأنه طريق إلى حفظ النعمة ودوامها. ومن هنا أفهم قوة الإغراء في الخطاب، مع الفصل بين الوعد الذي صنعتة الوسوسة وبين حقيقة الشجرة التي لم يصفها القرآن بأنها تمنح الخلود.

سورة طه، الآيات ١٢١-١٢٣.

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ ﴿١٢١﴾

﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ ﴿١٢٢﴾

﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾

﴿١٢٣﴾

بعد الأكل وظهور السوء ومحاولة الستر بالورق، يذكر النص اجتباء الله آدم وتوبته عليه وهدايته. ثم يأتي التوجيه إلى اتباع الهدى عند الهبوط؛ فالقصة تبين أثر الزلة، وتبين معها طريق العودة، ولا تختزل الإنسان في لحظة ضعفه.

تصل هذه القراءة مواضع النبات بخيط واحد: شجرة يتصل بها الحد، ووعد يغري بتجاوزه، وورق يستر ما ظهر بعده. ثم تعيد الهداية مركز الحكاية إلى اختيار الإنسان ومسؤوليته عن الطريق الذي يتبعه.

إحالات الفصل: سورة البقرة ٣٥-٣٩؛ سورة الأعراف ١٩-٢٥؛ سورة طه ١١٥-١٢٣.

الفصل السادس والعشرون: نوح - الخشب وسفينة النجاة

من الأرض إلى الفلك

سورة القمر، الآيات ١٣-١٥.

﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ ۖ ﴿١٣﴾﴾

﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۖ ﴿١٤﴾﴾

﴿وَلَقَدْ تَرَكَّاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مَّدَكِرٍ ۖ ﴿١٥﴾﴾

يصف النص نجاة نوح عليه السلام ومن معه في سفينة ذات ألواح ودسر تجري برعاية الله. وتحفظ الصورة أثر العمل المادي في وسيلة النجاة، ثم تجعل الحادثة آية تدعو إلى التذكر والاعتبار.

تفتح الألواح والدرس باب النظر إلى مادة السفينة وصنعها، ويظل نوع الخشب ومقادير البناء التفصيلية خارج ما عينه هذا التعبير. لذلك أفصل الوصف القرآني عن كل تفصيل يحتاج إلى مصدر آخر وطريق تثبت به نسبته.

العمل تحت الوحي

سورة هود، الآيات ٣٧-٤٠.

﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِينَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ۖ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ۖ ﴿٣٨﴾﴾

﴿٣٨﴾﴾

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۖ ﴿٣٩﴾﴾

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ

أَمِنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ۖ ﴿٤٠﴾﴾

أمر نوح بصنع الفلك بوحى الله، وكان قومه يسخرون منه وهو يعمل. وحين جاء الأمر وفار التنور، أمر بحمل الأزواج وأهله، إلا من سبق عليه القول، والمؤمنين القليلين؛ فانتقل البناء الذي استهزئ به إلى وسيلة إنقاذ. بين الأمر والنجاة مدة من العمل والثبات على ما أمر به نوح عليه السلام، وسط سخرية قومه. وهذه المدة تمنح الصنع قيمته في الحكاية؛ إذ تهيأ وسيلة النجاة قبل أن يرى الناس الحاجة التي ستؤديها.

النبات لغة لأصل الإنسان

سورة نوح، الآيات ١٧-١٨.

﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ ﴿١٧﴾

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ ﴿١٨﴾

يذكر نوح قومه بنشأتهم من الأرض، ثم بإعادتهم إليها وإخراجهم منها. ويقرب تعبير الإنبات الصلة بين أصل الإنسان والأرض، بينما تتجه الحجة إلى الخلق والبعث، لا إلى جعل الإنسان نوعاً نباتياً.

يتسع لفظ الإنبات هنا إلى بيان أصل الإنسان وتدير خلقه ومآله. وأفهمه من سياق خطاب نوح لقومه ومن استعمال اللغة، مع تمييزه من التصنيف الحيوي الذي يدرس خصائص الكائنات وصلاتها.

النجاة مسؤولية

سورة هود، الآيات ٤١-٤٤.

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٤١﴾

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحُ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٤٢﴾

﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ ﴿٤٣﴾

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ^ط وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٤٤﴾

بدأت السفينة تجري في موج كالجبال، ونادى نوح ابنه أن يركب، لكنه ظن أن جبلاً سيحميه من الماء. فحال الموج بينهما وكان من المغرقين. ثم أمرت الأرض بابتلاع مائها والسماء بالكف، واستوت السفينة على الجودي؛ فتكتمل صورة النجاة وحدود الاتكال على القوة الظاهرة.

سورة المؤمنون، الآيات ٢٧-٢٩.

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ^ط وَوَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ^ل فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ^ط وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ ﴿٢٧﴾
﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكَ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٢٨﴾
﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ ﴿٢٩﴾

تعيد سورة المؤمنون ذكر صنع الفلك وحمل الأزواج والأهل، ثم توجه نوحاً ومن معه إلى الحمد عند الاستقرار فيها والدعاء بمنزل مبارك. وهكذا يصاحب العمل دعاءً وشكر، وتبقى النجاة بداية لمسؤولية العيش بعد المحنة. تمنحني قصة السفينة مجالاً للتأمل في الإصغاء والعمل وحفظ ما يؤتمن عليه الإنسان. وتتضح قيمة الخشب بما أحسن صنعه منه وبالغاية التي أداها؛ فالمادة المألوفة قد تصبح، في موضع استعمالها، سبباً لحفظ حياة.

اللوحة بين السخرية والنجاة

في مشهد صنع الفلك يمر الملائكة بنوح ويسخرون، بينما يستمر العمل الذي أمر به. ويضع هذا الترتيب القارئ أمام اختلاف النظر إلى الفعل الواحد: شيء يراه قوم مدعاة للسخرية، وشيء يقوم في علم النبي مقام الطاعة والاستعداد. وحين تأتي ساعة النجاة تتبدل دلالة الألواح في نظر من يتابع القصة؛ فقد صارت أجزاء مجتمعة تؤدي وظيفة لا يؤديها لوح منفرد.

ومن هذا المشهد نستخلص قيمة العمل المتدرج وحسن استعمال المواد، مع حفظ خصوصية نوح عليه السلام وما تلقاه من الوحي. ويقرب الخشب إلى القارئ أثر تركيب الأجزاء ورعاية العمل حتى يكتمل؛ فالمادة المألوفة تكتسب منزلتها من الغاية التي تؤديها.

إحالات الفصل: سورة هود ٣٧-٤٤؛ سورة المؤمنون ٢٧-٢٩؛ سورة القمر ١٣-١٥؛ سورة نوح ١٧-١٨.

الفصل السابع والعشرون: إبراهيم وهاجر وإسماعيل — الوادي غير ذي الزرع

وصف المكان

سورة إبراهيم، الآيات ٣٥-٤١.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ ﴿٣٥﴾
﴿رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَّنَا كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ط فَن تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ط وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿٣٦﴾
﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ ﴿٣٧﴾
﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ ﴿٣٨﴾
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ج إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ ﴿٣٩﴾
﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ ﴿٤٠﴾
﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ ﴿٤١﴾

يدعو إبراهيم عليه السلام بالأمن واجتناب عبادة الأصنام، ويذكر إسكان بعض ذريته في واد غير ذي زرع عند البيت المحرم. ثم يسأل إقامة الصلاة وميل القلوب والرزق من الثمرات، ويختم بالدعاء لنفسه ووالديه والمؤمنين؛ فتجتمع حاجات الجسد والروح في طلب واحد.

يقوى الرجاء في هذا الدعاء أمام شخ أسباب الزراعة الظاهرة. ووصف الوادي بأنه غير ذي زرع متعلق بموضع الإسكان في الخطاب؛ فلا أوسعّه إلى حكم باستحالة نمو أي نبات في جميع أزمنة المكان.

الدعاء للذرية

سورة البقرة، الآية ١٢٦.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ط قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ﴿١٢٦﴾

يسأل إبراهيم الأمن للبلد والرزق من الثمرات لمن آمن من أهله. ويأتي الجواب بأن من كفر يُمتّع قليلاً ثم يصير إلى الحساب؛ فتمتيز سعة الرزق الدنيوي عن الحكم النهائي على الإنسان.

تجاور في الدعاء حاجات الإنسان: قوت وأمان وصلة بالناس وغاية تنتظم بها الحياة. وأرى في هذا الاجتماع ما يعين على فهم الرزق ضمن حياة كاملة، تحمل الصلاة فيها معناها، ويحفظ الغذاء فيها قوة الجسد.

بين الآية وتفاصيل السيرة

يرتبط المشهد في السيرة بهاجر وإسماعيل عليهما السلام، بينما لا تسرد الآية نفسها أسماء جميع الأشخاص وتفاصيل رحلتهم. ونحافظ على هذا التمييز حتى لا ننسب إلى نص الآية ما عرفناه من أخبار أخرى. ويظل دعاء إبراهيم محور هذا الفصل الموثق.

ثمرة تصل من بعيد

سورة القصص، الآية ٥٧.

﴿وَقَالُوا إِن تَبِعَ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُحْيِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٥٧﴾

يُذكر اعتراض قوم خافوا أن يؤدي اتباع الهدى إلى انتزاعهم من أرضهم، فيأتي تذكيرهم بالحرم الآمن الذي تُجلب إليه ثمرات شتى. وهنا يظهر الرزق الواصل من خارج المكان دليلاً على نعمة حاضرة كانوا ينتفعون بها. تصل الثمار إلى مكان قد لا ينتجها من خلال انتقالها وتبادلها بين الناس. ومن هذه الزاوية تتسع حكاية الزراعة إلى الطريق والسوق والأمان والعلاقات التي تجعل خير أرض متاحاً لساكين أرض أخرى.

القوت والأفئدة في دعاء واحد

تظهر في الدعاء حاجة المكان إلى أهله وإلى من يقصده ويحمل إليه الرزق. وبذلك يتسع معنى العمران ليشمل العبادة وميل القلوب وتبادل المنافع. ويقرب وصول الثمرات هذه الصلة بين الحقل الذي ينتجها والمكان الذي ينتفع بها.

وتستوقفنا صورة الثمرة التي تنشأ في حقل بعيد ثم تبلغ يد إنسان لم يغرس شجرتها. إنها تذكر بتوزع العمل بين الزارع والحافظ والناقل والبائع، وبحاجة هذه السلسلة إلى الثقة والأمان. أستلهم هذه القراءة الاجتماعية من المشهد، مع بقاء مدلول الدعاء أوسع منها. فلا يُقاس نجاح المكان بوفرة محاصيله المحلية وحدها، ولا تنفصل حاجته الروحية عن شروط عيش أهله.

إحالات الفصل: سورة إبراهيم ٣٥-٤١؛ سورة البقرة ١٢٦؛ سورة القصص ٥٧.

الفصل الثامن والعشرون: يوسف – السنابل وسنوات القحط

التدبير في ألفاظ وصية يوسف

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾

القرآن الكريم، سورة يوسف، الآية ٤٧.

تجمع الوصية بين استمرار الإنتاج، وحفظ المحصول، وتقدير الاستهلاك. فالحصاد لا يختم التفكير في الغذاء؛ بعده قرار يتعلق بما يؤكل وما يدخر. وتلفت عبارة «إلا قليلاً مما تأكلون» إلى أن زمن السعة يحتاج إلى انضباط يحفظ القدرة على مواجهة الضيق. أما تطبيق وسيلة تخزين بعينها في عصرنا فيرتبط بالمحصول والرطوبة والآفات وتجهيزات الحفظ. والمغزى الذي يبقى واضحاً في القصة هو وصل معرفة الأزمة بخطة عمل تشمل الزرع والحصاد والمعيشة.

رؤيا تحمل سؤال المستقبل

سورة يوسف، الآيات ٤٣-٤٦.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ ﴿٤٣﴾

﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ^ط وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾ ﴿٤٤﴾

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ ﴿٤٥﴾

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤٦﴾

أقلقّت رؤيا البقرات والسنابل الملك، فلم يجد عند أهل مجلسه تأويلاً لها. وتذكر الناجي من صاحبي السجن يوسف عليه السلام بعد مدة، فطلب أن يرسل إليه، وسأله عن الرؤيا ليعود بالجواب إلى الناس؛ وبذلك يصل سؤال الحكم إلى علم رجل في السجن.

يتجه سؤال السنايل إلى مستقبل جماعة وحاجتها إلى الغذاء. ومن هنا يأخذ تأويل يوسف عليه السلام قوته العملية: قراءة تُترجم إلى استعداد، ومعرفة يُنتظر منها أن تحفظ الناس حين يتغير حال الموسم.

الزراع والادخار

سورة يوسف، الآيات ٤٨-٤٩.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ﴾ ﴿٤٨﴾

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ ﴿٤٩﴾

بعد سنوات العمل والادخار تأتي سبع سنوات شديدة تستهلك ما أُعد لها إلا قليلاً يُحفظ، ثم يأتي عام يغاث فيه الناس ويعصرون. وتقرأ هذه المراحل متصلة بتوجيه يوسف السابق إلى الاقتصاد في الاستهلاك وحفظ المحصول، فتظهر غاية التخطيط عبر الزمن.

يُتخذ قرار الادخار في زمن السعة، بينما تظهر قيمته في سنوات الشدة. وأتابع هنا أثر هذا القرار في حياة الجماعة، مع مراعاة شروط تطبيق وسائل حفظ الحبوب التي تقدمت مناقشتها في مطلع الفصل.

الاقتصاد في زمن السعة

لا يبدأ الاستعداد للقحط بعد نفاد الطعام. وهذا جوهر إنساني عميق في القصة: قد تكون الوفرة فرصة لإعداد المستقبل، لا دعوة إلى استهلاك كل ما في اليد. غير أن الادخار الذي يحفظ أقوات الناس يختلف أخلاقياً عن احتكار يستغل حاجتهم.

المعرفة في خدمة المجتمع

سورة يوسف، الآيات ٥٤-٥٦.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أُمِينٌ﴾ ﴿٥٤﴾

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿٥٥﴾

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّاً لِيُوسَفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ^ج نَصِيبٌ بِرَحْمَتِنَا مِنْ شَاءَ^ط وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾
﴿٥٦﴾

استدعى الملك يوسف وقربه، فلما كلمه أعلن له مكانة وثقة. وطلب يوسف أن يتولى خزائن الأرض لما عنده من حفظ وعلم، ثم يذكر القرآن تمكينه؛ فتنقل المعرفة من تفسير الرؤيا إلى أمانة إدارة مورد تمس حاجة الناس إليه.

تلتقي المعرفة بالأمانة حين تُحمّل مسؤولية مورد يعيش منه الناس. ويمنحني هذا المعنى مدخلاً إلى التربية الزراعية: تعلم النمو والحفظ والتخطيط، واحترام من ينتجون الغذاء، والاستعداد لما قد يواجه المجتمع من حاجة.

تحويل التأويل إلى برنامج عمل

يحول جواب يوسف الرؤيا إلى مسؤولية عملية: الاستعداد في زمن الخصب، وحفظ ما تحتاج إليه سنوات الشدة. ومن ثم تصبح المعرفة أساساً لتنظيم السلوك، ويغدو ضبط الاستهلاك جزءاً من حماية المورد الذي سيعتمد عليه الناس.

وينتهي تسلسل الآيات إلى عام يأتي فيه الغوث ويعصر الناس، فيبقى أفق القصة مفتوحاً على استعادة الحياة. ويجمع هذا الختام بين الاستعداد للشدة والرجاء في تجاوزها، ويمنح التدبير غايته: حفظ الناس حتى تعود أسباب السعة.

إحالات الفصل: سورة يوسف ٤٣-٤٩ و ٥٤-٥٦.

الفصل التاسع والعشرون: موسى — الشجرة والعصا

النداء عند الشجرة

سورة طه، الآيات ٩-١٦.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ ﴿٩﴾

﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ ﴿١٠﴾

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى﴾ ﴿١١﴾

﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ ﴿١٢﴾

﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ ﴿١٣﴾

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ ﴿١٤﴾

﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ ﴿١٥﴾

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ ﴿١٦﴾

رأى موسى عليه السلام ناراً في أثناء سيره، فطلب من أهله الانتظار رجاء أن يأتيهم بشعلة أو يجد هداية للطريق. وعندما أتاه نودي باسمه، وعُرف بربه وأمر بالعبادة والصلاة وذكّر بالساعة؛ فتحول طلب الطريق إلى بدء تكليف بالرسالة.

سورة القصص، الآيات ٢٩-٣٢.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ ﴿٢٩﴾

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٣٠﴾

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ ^ط فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ^ج يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ^ط إِنَّكَ مِنَ
الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾

﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ ^ط فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ
إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾

تذكر سورة القصص أن موسى سار بأهله بعد قضاء الأجل، ثم رأى النار من جانب الطور. وجاءه النداء من شاطئ الوادي في البقعة المباركة من الشجرة، وتبعه أمر العصا واليد آيتين إلى فرعون وملئه؛ فيحضر المكان والنبات ضمن مشهد النداء والتكليف.

اقرأ النداء في مقام التكليم والاصطفاء، مع أصول تنزيه الله عن الحلول في مادة أو التحدد بها. وأحفظ للشجرة موضعها في المشهد من غير تعيين نوع لم يسمه النص.

العصا قبل الآية

سورة طه، الآيات ١٧-١٨.

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ ﴿١٧﴾

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ ﴿١٨﴾

حين سئل موسى عما بيمينه، وصف عصاه باستعمالاتها اليومية: الاتكاء عليها وهشّ الورق للغنم، مع منافع أخرى. يسبق هذا الجواب ظهور الآية، فيعرف القارئ بالأداة المألوفة قبل أن يشهد تحولها بأمر الله.

تكتسب معرفة منافع العصا أهميتها مما يليها في الحكاية؛ فهي أداة يحملها موسى ويعرفها في يومه، ثم يراها تتحول بأمر الله. وبهذا التمهيد يتبين للقارئ حالها المألوفة قبل ظهور الآية.

التحول بإذن الله

سورة طه، الآيات ١٩-٢٣.

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى﴾ ﴿١٩﴾

﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ ﴿٢٠﴾

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ ﴿٢١﴾

﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى﴾ ﴿٢٢﴾

﴿لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ ﴿٢٣﴾

أمر موسى بإلقاء العصا فصارت حية تسعى، ثم طمئن إلى أخذها وعودتها إلى حالها الأولى. وأُري آية اليد البيضاء من غير سوء؛ فالمشهد إعداد له لرؤية قدرة الله وحمل البينات في مهمته.

سورة الأعراف، الآيات ١٠٧-١١٧.

﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ ﴿١٠٧﴾

﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ ﴿١٠٨﴾

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿١٠٩﴾

﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَأَازِلُوا تَأْمُرُونَ﴾ ﴿١١٠﴾

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ ﴿١١١﴾

﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ ﴿١١٢﴾

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ ﴿١١٣﴾

﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ ﴿١١٤﴾

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ ﴿١١٥﴾

﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ ﴿١١٦﴾

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ ﴿١١٧﴾

أظهر موسى واليد أمام فرعون، فاتهمه الملأ بالسحر ودعوا إلى جمع السحرة. ألقى السحرة ما معهم فأرهبوا الناس، ثم ألقيت عصا موسى فابتلعت ما صنعوه من إفك؛ وهكذا يتدرج المشهد من الاعتراض إلى المواجهة وظهور الآية.

أعرض تحول العصا في مقام الآية الخارقة للعادة، وأبحث خبرها ودلالاتها من النص. أما خصائص الخشب التي يمكن اختبارها وتكرار أثرها فهي موضوع آخر؛ فلا يُستنتج من القصة إجراء زراعي يُحدث هذا التحول.

أدوات بسيطة ومعان عظيمة

أتأمل في هذه القصة قيمة الأداة النافعة: يد تحملها، وحاجة تقضيها، وموقف يتغير به معناها. وهذا تأمل أدبي أقدمه للقارئ، وأميزه من وقائع القصة التي أرجع فيها إلى مواضعها القرآنية.

العصا كما عرفها صاحبها

يقرب السؤال والجواب العصا من حياة موسى اليومية قبل أن يقع التحول. فالألفة السابقة بالأداة جزء من بناء المشهد، وتمنح المتابع إدراكاً أوضح لعظمة ما أمره الله أن يراه فيها.

ويحسن بالقارئ أن يتوقف عند هذا البناء القصصي: التعريف بالأداة، وبيان استعمالها، ثم الأمر الذي تظهر به الآية. فالتتابع جزء من قوة المشهد. أما أصل الخشب أو عمر الغصن الذي صنعت منه العصا فليس لازماً لفهمه. وذكروا حضور أداة الراعي بأن معاش الناس وأعمالهم ليست خارج الحكاية الدينية؛ فقد تدخل أبسط أدواتها في مقام عظيم مع احتفاظها بتاريخها اليومي في يد صاحبها.

إحالات الفصل: سورة طه ٩-٢٣؛ سورة القصص ٢٩-٣٢؛ سورة الأعراف ١٠٧-١١٧.

الفصل الثلاثون: بنو إسرائيل — طعام الأرض واختبار النعمة

الطعام في سياق جماعي

سورة البقرة، الآيات ٥٧-٦٠.

﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ^ط كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ^ط وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿٥٧﴾

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٥٨﴾

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ﴿٥٩﴾

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ^ط فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا^ط قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ^ط كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ﴿٦٠﴾

تذكر الآيات بني إسرائيل بتظليل الغمام والمَنَّاء والسَّلْوَى، وبالأمر بدخول القرية والقول والعمل على الوجه المأمور به، ثم باستسقاء موسى وضرب الحجر وانفجار اثنتي عشرة عينا. وتتجاوز صور الطعام والماء مع بيان أن النعمة تقتضي شكراً واستقامة.

سورة الأعراف، الآية ١٦٠.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا^ج أُمَّا^ج وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ^ط فَانْجَبَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا^ط قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ^ط وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ^ط كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ^ط وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿١٦٠﴾

تذكر الآية تقسيم بني إسرائيل إلى اثنتي عشرة جماعة، ومعرفة كل جماعة مشربها حين انجست العيون، مع الظل والطعام. فيظهر تدير موارد الجماعة إلى جانب توفيرها، ويقترن ذلك بالتذكير بأن ظلمهم عاد على أنفسهم.

في ترتيب هذه النعم ما يذكر الجماعة بتاريخ معاشها، ويضع اختيارها اللاحق أمام ما أعطيت. ولهذا أتابع الحوار مع موسى عليه السلام كامل المعنى، وأرد أسماء الأطعمة إلى الموقف الذي وردت فيه.

لا إدانة للعدس والبصل

سورة البقرة، الآية ٦١.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ ﴿٦١﴾

خاطب القوم موسى بأنهم لن يصبروا على طعام واحد، وطلبوا أصنافاً مما تنبت الأرض. فجاءهم التوبيخ على الاستبدال في مقامهم، ثم ذكرت الآية وجوهاً من العصيان؛ فموضوع الحكاية موقفهم من العطاء والتكليف، لا تحريم العدس أو البصل.

المقارنة في الحوار تتعلق باختيار المخاطبين وما استبدلوه بما أعطوا. وتبقى أحكام الأطعمة ومنافعها خاضعة لأدلتها المستقلة؛ فالتوبيخ في هذه الواقعة لا ينشئ تحريماً للعدس أو البصل.

الأسماء والذاكرة الزراعية

تستحضر قائمة البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل حياة مرتبطة بزراعة الأرض. وذكّرنا ذلك بأن الطعام ذاكرة بيت ومجتمع، لا عناصر غذائية مجردة. لكن هذه القراءة الاجتماعية لا تتيح الجزم بكل دوافع أصحاب القصة النفسية.

النعمة تحتاج إلى وعي

قد يغفل الإنسان عن نعمة لأنها متاحة، وقد يبالغ في قيمة ما غاب عنه لأنه يحن إليه. ومن ثمرات القصة تربية الانتباه إلى الموجود مع مشروعية السعي إلى حاجات الحياة. والشكر لا يمنع تحسين الغذاء، كما أن التحسين لا يلزم أن يصحبه بخود.

حين يصبح الطعام لغة للذاكرة

يفتح ذكر طعام الأرض باباً للتأمل في صلة المائدة بالمكان والعمل والاعتقاد. وأقدم هذه القراءة الاجتماعية مع تمييزها مما صرحت به الآية من حوار وموقف.

ويعود القارئ من هذه القراءة إلى السؤال الأخلاقي في القصة: كيف يوازن بين طلب حاجته والامتثال لما أعطي؟ يحفظ هذا السؤال موضع العتاب في سياقه، ويوجه النظر إلى التصرف في النعمة. وقد سبق شرح الأسماء النباتية والخلاف في الفوم في الفصل السابع عشر.

إحالات الفصل: سورة البقرة ٥٧-٦١؛ سورة الأعراف ١٦٠؛ وانظر الفصل السابع عشر في اختلاف تفسير الفوم.

الفصل الحادي والثلاثون: داود وسليمان — الحرث والعدل

حقل يدخل باب القضاء

سورة الأنبياء، الآيات ٧٨-٧٩.

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَمُّ الْقَوْمِ وَكُنَّا لَحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ ﴿٧٨﴾

﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَخْرَنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ﴿٧٩﴾

عُرِضَ عَلَى دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أَمْرُ حَرْثٍ دَخَلَتْهُ غَمٌّ قَوْمٍ لِيلاً فَأَفْسَدَتْهُ، فَحُكِمَ فِيهِ، وَخَصَّ اللَّهُ سُلَيْمَانَ بِفَهْمِ الْقَضِيَّةِ مَعَ إِثْبَاتِ الْحِكْمَةِ وَالْعِلْمِ لِكُلِّهِمَا. وَلَا تَفْصِلُ الْآيَتَانِ صُورَةَ التَّعْوِيزِ؛ لِذَلِكَ يَبْقَى النِّصُّ أَسَاسًا لِبَيَانِ الْعَدْلِ وَالْفَهْمِ، وَتُمَيِّزُ عَنْهُ التَّفَاصِيلَ الْمَرْوِيَّةَ فِي التَّفْسِيرِ.

يُظْهِرُ الْحَقْلُ هُنَا مَوْرَدًا لِحَقِّ أَصِيبِ بَضَرٍ، وَيُظْهِرُ عَمَلَ الْقَضَاءِ فِي مَعَالِجَةِ نِزَاعٍ نَشَأَ بَيْنَ النَّاسِ. وَمِنْ هَذَا الْوَجْهِ تَدْخُلُ الزَّرَاعَةُ فِي أَسْئَلَةِ الْمِلْكِيَّةِ وَالْمَسْئُولِيَّةِ وَجَبَرَ الضَّرَرَ، وَيَصِيرُ الْعَدْلُ جَزَاءً مِنْ حِفْظِ أَسْبَابِ الْعَيْشِ.

القدر الذي يثبت النص

يَذْكُرُ الْقُرْآنُ الْوَاقِعَةَ وَإِفْهَامَ سُلَيْمَانَ وَإِيتَاءَ كُلِّهِمَا حُكْمًا وَعِلْمًا، لَكِنَّهُ لَا يَعْرِضُ جَمِيعَ تَفَاصِيلِ الْحُكْمِ فِي الْآيَاتِ نَفْسَهَا. وَلِذَلِكَ لَا نَخْلُطُ بَيْنَ النِّصِّ الْمُخْتَصَرِ وَبَيْنَ التَّفْصِيلِ الَّذِي تَوْرَدُهُ كُتُبُ التَّفْسِيرِ وَالرِّوَايَةِ، وَلَا نَصْدُرُ فِتْوَى تَعْوِيزٍ مُعَاَصِرَةٍ بِمَجْرَدِ تَلْخِيصِ الْقِصَّةِ.

حق صاحب الزرع

وَرَاءَ النَّبَاتِ وَقْتُ وَعَمَلٍ وَقُوتٍ مُنْتَظَرٍ. وَلِهَذَا لَا يَكُونُ إِتْلَافُهُ حَادِثَةً بِسِيطَةٍ لِمَجْرَدِ أَنْ الْمُتْلَفُ حَيَوَانٌ أَوْ أَنَّ الضَّرَرَ وَقَعَ فِي سَاعَاتٍ قَلِيلَةٍ. وَمِنْ دَلَالَاتِ الْمَشْهَدِ ضَرُورَةُ وَجُودِ عَدْلٍ يَعِيدُ الْحَقُوقَ وَيُنْظِمُ عِلَاقَةَ أَصْحَابِ الْمَاشِيَةِ بِأَصْحَابِ الْحَقُولِ.

العلم والتواضع

تحفظ الآيات مقام النبيين مع تخصيص سليمان بالإفهام في هذه الواقعة. ومن أدب القراءة أن نلتزم هذا البيان، وأن نجعل العلم والعدل محور التأمل في الحكم، دون زيادة تفصيل لم يذكره النص.

الضرر الذي يقع في ليلة

يظهر أثر الضرر حين ننظر إلى ما سبقه من عمل وما كان يرجى بعده من محصول. ففي الحقل جهد مضى وقوت ينتظر، وحمايته تشمل حق أصحابه في ثمره ذلك الجهد. وهذا ما يجعل الزرع موضوعاً للعدل داخل المجتمع.

وتبقى تفاصيل التعويض التي توردها الشروح محتاجة إلى عرض مصادرها وأدلتها. أما الآيات فتثبت الواقعة والحكم والعلم والإفهام، وتجعل أمام القارئ صلة واضحة بين رعاية الزرع وصيانة الحقوق.

إحالات الفصل: سورة الأنبياء ٧٨-٧٩.

الفصل الثاني والثلاثون: يونس — اليقطين والعناية

الإنبات في خاتمة مشهد النجاة

﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ﴾

القرآن الكريم، سورة الصافات، الآية ١٤٦.

تأتي الجملة قصيرة بعد مشهد خروج يونس عليه السلام إلى العراء وهو سقيم. ويُذكر الإنبات فعلاً من أفعال العناية، فيدخل النبات إلى القصة في وقت الضعف والحاجة. وفي هذا القدر المصرح به غنى للسرد: نجاة يتبعها لطف، وأرض يصير فيها النبات جزءاً من مشهد الرحمة. أما تعيين النوع الدقيق وتفصيل الغذاء والظل والمنفعة فتبحث في اللغة والتفسير ومصادر الأخبار، ولا تُضاف إلى ألفاظ الآية كأنها جزء منها.

جسد أنهكه البلاء

سورة الصافات، الآيات ١٣٩-١٤٥.

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٣٩﴾

﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ ﴿١٤٠﴾

﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ ﴿١٤١﴾

﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ ﴿١٤٢﴾

﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ ﴿١٤٣﴾

﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿١٤٤﴾

﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ ﴿١٤٥﴾

خرج يونس عليه السلام إلى الفلك المشحون، فوقعت عليه القرعة، ثم التقمه الحوت وهو مليم. ويذكر النص تسبيحه سبباً في نجاته من البقاء في بطنه، ثم إلقاءه في العراء سقيماً؛ وبذلك يُفهم موضع شجرة اليقطين في المرحلة التي تلت النجاة.

يقع إنبات اليقطين بين النجاة واستئناف الرسالة. ويحفظ هذا الموضع صلته بحال يونس عليه السلام، فيتضح أثر العناية به حين أُلقي سقيماً، قبل متابعة ما آل إليه أمره مع قومه.

ما نعلم وما لا نعلم

نعلم أن الله أنبت عليه شجرة من يقطين، ولا يبين القرآن جميع وظائفها في جسده وبيئته. فإذا ذكر مفسر ظلاً أو غذاء أو خاصية أخرى، وجب أن ننسب التفصيل إلى قائله وأن ننظر في دليله. ولا نحول الاحتمال إلى تقرير طبي.

الرحمة بعد المحنة

سورة الأنبياء، الآيات ٨٧-٨٨.

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاصِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٨٧﴾
﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَيِّجُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٨٨﴾

ينادي ذو النون، وهو يونس عليه السلام، ربه في الظلمات بالتوحيد والتنزيه والاعتراف بظلم نفسه. فتأتي الاستجابة والنجاة من الغم، ويفتح من الحادثة معنى عام للمؤمنين: الرجوع إلى الله حاضر في قلب الشدة، لا بعد زوالها فقط.

أستلهم من ترتيب المشهد أن من ينجو من خطر قد يبقى محتاجاً إلى رعاية تعينه على استرداد قوته. فزوال سبب الأذى المباشر يفتح مرحلة أخرى من الرفق بالمتعب وملاحظة حاجته.

من اليقطين إلى الخلق

سورة الصافات، الآيات ١٤٧-١٤٨.

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ ﴿١٤٧﴾
﴿فَأَمَّا نُوا فَتَعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ ﴿١٤٨﴾

تذكر الخاتمة إرساله إلى مئة ألف أوزيدون، ثم إيمانهم وتمتعهم إلى حين. وبذلك لا تنتهي حكاية يونس عند خلاص جسده، بل تمتد إلى أثر الرسالة في جماعة من الناس؛ ويأخذ النبات موضعه داخل مسار أوسع من الرحمة والهداية.

تتسع ثمرة الرحمة إلى رجوع الإنسان إلى دوره بين الناس. ومن هنا أحفظ لليقطين منزلته عطاءً في طريق التكليف، وأقرأ عناية الله بيونس عليه السلام ضمن حكاية الرسالة بما فيها من دعوة واستجابة.

ما بعد النجاة جزء من الحكاية

يلفت ذكر السقم بعد النجاة إلى حال الإنسان حين يخرج من المحنة. ومن هذا الترتيب نستخلص أهمية ملاحظة المتعب بعد انقضاء الخطر المباشر، والرفق به في طريق استعادة قدرته.

ويمتد التأمل إلى استئناف الدور بين الناس؛ فالعناية تعين الإنسان على مواصلة ما عليه من مسؤولية. وهذا استلزام أخلاقي من تسلسل القصة. وقد عرض الفصل التاسع عشر لفظ اليقطين وحدود تعيينه، وتبقى وظيفة النبات الطبية سؤالاً يحتاج إلى دليله الخاص.

إحالات الفصل: سورة الصافات ١٣٩-١٤٨؛ سورة الأنبياء ٨٧-٨٨. وانظر الفصل التاسع عشر في الاسم النباتي.

الفصل الثالث والثلاثون: مريم وعيسى — النخلة والرطب

الرطب بين العطاء والحركة

﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقُطُ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾

القرآن الكريم، سورة مريم، الآية ٢٥.

يجتمع في المشهد أمر بالحركة وعطاء من الثمر. وتمنح كلمة «جنيًا» الرطب حضوراً قريباً من اليد والطعام، بعد ما أحاط بمريم عليها السلام من ألم ووحدة. نستحضر هنا خصوصية القصة وكرامة المخاطبة، ثم نتأمل كيف ترد الطمأنينة في صورة شيء يؤكل وفعل يؤدي. ولا يحمل الأمر في هذه الواقعة حكماً طبياً عاماً على جهد النساء وقت الولادة؛ فالرعاية الطبية تُبنى على أحوالهن، ويبقى موضع الآية من القصة مشهداً من التثبيت والرحمة.

عند جذع النخلة

سورة مريم، الآيات ٢٢-٢٤.

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ ﴿٢٢﴾

﴿فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّسِيًّا﴾ ﴿٢٣﴾

﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ ﴿٢٤﴾

حملت مريم عليها السلام واعتزلت في مكان بعيد، ثم أُلجأها المخاض إلى جذع النخلة حتى تمت أن تكون قد نُسيت. فجاءها النداء ألا تحزن، مع إخبارها بما جعل الله تحتها؛ فتظهر شدة الموقف أولاً، ثم يبدأ انتقاله إلى الطمأنينة.

ينكشف عمق اللحظة من اجتماع الألم والوحدة ثم التطمين. وأقف عند هذه العناصر التي ذكرها النص، فهي كافية لإدراك حاجة مريم عليها السلام إلى الرحمة، من غير تخيل طقس المكان أو عمر النخلة ولون ثمرها.

سورة مريم، الآية ٢٦.

﴿فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا^ط فَمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾
﴿٢٦﴾

بعد ذكر الرطب يأتي الأمر بالأكل والشرب وقرّة العين، ثم توجيهها إلى إعلان نذر الصوم عن الكلام إذا رأت أحداً. فتجتمع رعاية حاجتها في تلك اللحظة مع تهيئتها للقاء الناس؛ وليس الغذاء تفصيلاً منفصلاً عن بقية المحنة.

تظهر رعاية الجسد هنا متصلة بتثبيت القلب؛ فما يقيم القوة يصحب ما يسكن الخوف. وأقرأ هذا الاجتماع في خصوصية قصة مريم عليها السلام، ثم أتأمل ما يوقظه من رحمة بمن يمر بساعة عسر.

حركة اليد

يحضر فعل هز الجذع إلى جانب العطاء الإلهي. ويمكن التأمل في اجتماع الأخذ بالسبب والتوكل، لكننا لا نعرف من الآية مقادير القوة المبذولة أو تفاصيل الحالة الجسدية بما يصلح لمقارنة سريرية. فالعبرة لا تستدعي اختراع قياسات.

كرامة الإنسان في ضعفه

سورة آل عمران، الآية ٤٢.

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٤٢﴾

تبلغ الملائكة مريم باصطفاء الله لها وتطهيرها واصطفائها على نساء العالمين. ويضيء هذا الخبر منزلتها في القصة؛ فحاجتها إلى الطعام والطمأنينة عند المخاض لا تنقص من كرامتها، بل تكشف حضور الرحمة في تجربتها الإنسانية.

تظل كرامة مريم عليها السلام ظاهرة وهي تحتاج إلى ما يقيم جسدها ويطمئن قلبها. ومن هذا المعنى أرى في خدمة المحتاج حفظاً لكرامته، وأتبع حضور النبات ضمن هذه الرعاية التي جمعت الغذاء والسكينة.

غذاء الجسد وطمأنينة القلب

يجتمع في خطاب مريم الأكل والشرب وقرّة العين، ثم توجيهه يتعلق بما تواجه به الناس. فالرعاية في المشهد تتناول الجسد وما يحيط به من خوف ووحشة ومواجهة اجتماعية. لا تنفصل النخلة عن هذه العناصر، ولا يُقرأ الرطب كما لو سقط في فراغ خارج القصة.

ومن هذا الاجتماع نستخلص أن الحاجة لا تنقص الكرامة، وأن من يمر بحنة يحتاج إلى ما يطمئنه كما يحتاج إلى ما يقيم جسده. وتظل حركة مريم نحو الجذع فعلاً في سياقها الخاص، يتأمل مع سائر عناصر القصة ومع مقام المخاطبة.

إحالات الفصل: سورة مريم ٢٢-٢٦؛ سورة آل عمران ٤٢ في الاصطفاء.

الفصل الرابع والثلاثون: النبي محمد — الأشجار في مشاهد الرسالة

البيعة تحت الشجرة

سورة الفتح، الآية ١٨.

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ ﴿١٨﴾

يخبر الله برضاه عن المؤمنين الذين بايعوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم تحت الشجرة، وبعلمه بما في قلوبهم وإنزاله السكينة عليهم وإثابتهم فتحاً قريباً. فتذكر الشجرة شاهداً مكانياً على البيعة، بينما تتجه دلالة الآية إلى صدق القلوب والثبات.

تتجه العناية في الآية إلى صدق البيعة وما في القلوب وما نزل من السكينة. وأحفظ للشجرة موضعها شاهداً على الحدث، مع إبقاء نوعها عند ما لم يسمه النص.

النخل في سورة الحشر

سورة الحشر، الآية ٥.

﴿مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّبْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿٥﴾

تذكر الآية ما قُطع من النخل وما تُرك قائماً على أصوله في واقعة المواجهة التي تعرضها سورة الحشر، وترتبط الأمر بإذن الله. لذلك يُقرأ الفعل في ظرفه المحدد، ولا يُحوّل إلى إذن مطلق بإتلاف الزرع أو الاعتداء على موارد الناس.

أحفظ قيد الإذن وسياق الواقعة عند قراءة القطع والإبقاء على النخل. وأعود إلى دالتهما في الفصل التاسع والخمسين، حيث أناقش التصرف في الشجر وصلته بالمسؤولية عن حفظ موارد الحياة.

ينقل الكافي خبراً عن تدير الماء في أرض النبي صلى الله عليه وآله، في الحديث السابع من باب الاقتداء بالأئمة في التعرض للرزق [ح ٦]. وقد وصفه المجلسي بأنه «مجهول» في مرآة العقول، ج ١٩، ص ١٨ [ح ٢٨]؛ فأذكره بصيغة الرواية، وأميزه من الشاهد القرآني في هذا الفصل. وفي أخبار البساتين التالية يأتي لفظ الحائط بمعنى البستان، وهو مثال على حاجة قارئ السيرة إلى معرفة لغة الزراعة القديمة.

لا انفصال بين الرسالة والمعاش

تظهر الأشجار والحقول والثمار في معاش المجتمع الذي خوطب بالوحي. ويتصل حضورها بتنظيم الحقوق وإطعام الناس والوفاء بالعهد؛ فتقرب هذه المشاهد صلة الرسالة بحياة الناس اليومية.

الشجرة بوصفها معلماً للمكان

قد تحفظ الذاكرة حادثة كبيرة بذكر الموضع الذي وقعت فيه: تحت شجرة، أو عند ماء، أو في بستان. وفي بيعة الرضوان يظهر هذا الارتباط المكاني، بينما تركز الآية على حال المؤمنين والعهد والسكينة. فالشجرة تجعل المشهد قابلاً للتصور، لكنها لا تستقل بمعنى الواقعة عن الأشخاص وما انعقد بينهم.

بهذا المعنى تحفظ الشجرة موضع الواقعة في الذاكرة، ويظل العهد الذي انعقد تحتها محور دلالتها. ويستكمل الباحث ما يتعلق بالمكان من مصادر السيرة، وما يتعلق بتعيين النبات من أدلته إن وجدت. وعند غياب التعيين يبقى المشهد مفهوماً بما نص عليه القرآن.

إحالات الفصل: سورة الفتح ١٨؛ سورة الحشر ٥؛ الكافي، ج ٥، باب ما يجب من الاقتداء بالأئمة في التعرض للرزق، الحديث ٧، ص ٧٥ في النسخة المعروضة [ح ٦]؛ وتقويمه: مرآة العقول، ج ١٩، ص ١٨ [ح ٢٨].

الفصل الخامس والثلاثون: ما روي من آيات النبي المتعلقة بالشجر

خبر الشجرة في القاصعة

يروى نهج البلاغة في الخطبة القاصعة خبر طلب قوم من قريش أن يدعو النبي صلى الله عليه وآله وسلم شجرة فتأتيه، ثم استجابتها بإذن الله. أورد الخبر منسوباً إلى مصدره، وأميز وجوده في الكتاب من تحقيق طرقه في المصادر الأخرى.

حنين الجذع

روى البيهقي في كتاب الاعتقاد أخبار حنين الجذع حين اتخذ النبي المنبر، وذكر لها طرقاً ومتوناً. وترد القصة في مدونات أخرى أيضاً. وإيراد مصدر من غير المدونة الإمامية هنا للمقارنة والتوثيق، لا لتغيير منهج الكتاب أو التسوية التلقائية بين درجات الأخبار.

البركة في الثمر

تداول كتب السيرة والدلائل أخباراً عن بركة الطعام والثمر. وأقتصر هنا على مثالي الشجرة والجذع اللذين عينت مصدرهما، وأحفظ لكل رواية حدودها؛ أما الزيادات التي لم أتأكد من مصادرها فأتركها للبحث.

كيف تقرأ المعجزة؟

تبحث المعجزة من جهة ثبوت خبرها ودلالته، ولا تقاس على عملية زراعية عادية. والإيمان بإمكان الخارق لا يلزم منه تصديق كل حكاية، كما أن طلب المصدر لا يعني إنكار القدرة الإلهية. وبين الطرفين مجال للبحث المنضبط والتوقير.

من متن الخبر إلى تاريخ نقله

حين تُروى حادثة الشجرة أو حنين الجذع، فإن أول عمل توثيقي هو المحافظة على حدود الرواية المختارة: من المتكلم، وما المناسبة، وأين يبدأ الخبر وأين ينتهي؟ ثم تقارن الصيغ دون تركيب صيغة جديدة من أكثر من

مصدر وتقديمها على أنها لفظ واحد. فقد تتفق الأخبار في أصل الحادثة وتختلف في تفصيل يغير طريقة عرضها.

وتبين بطاقات التوثيق في نهاية الكتاب ما أمكن مقابلته وما بقي محتاجاً إلى دراسة. وبالرجوع إليها يميز القارئ بين إثبات وجود الخبر في مصدره وتقويم ثبوته، ويحافظ السرد على اتصال الحكاية دون إعادة شرح المنهج في كل موضع.

إحالات الفصل: نهج البلاغة، الخطبة القاصعة، موضع خبر الشجرة [ح٧]؛ البيهقي، الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد، أخبار حنين الجذع [ح٨].

الفصل السادس والثلاثون: أمير المؤمنين — الغرس والوقف والعمل

النوى بوصفه مستقبلاً

للنواة زمان في عين الغارس: حاضر صغير يمسكه بيده، ومستقبل يرجوه شجرة نافعة. ويعرض خبر حمل النوى، الذي سيأتي بلفظه وموضعه في هذا الفصل، هذا الانتقال من الرجاء إلى العمل. ثم يضيف خبر ينبع وجهاً آخر إلى المعنى: كيف يصير المورد الذي أنشئ بالجهد منفعة مستمرة للناس.

من الماء إلى الصدقة

روى الكليني في كتاب الوصايا خبر عين ينبع، عن أيوب بن عطية الحذاء، عن الإمام الصادق عليه السلام. وفيه أن أمير المؤمنين عليه السلام احتفر عيناً في أرض أصابها، فلما جاءه البشير جعل نفعها للحجيج وعابري السبيل. وقد راجعت الموضع مباشرة في الكافي، ج ٧، ص ٥٤-٥٥، الحديث التاسع من باب صدقات النبي وفاطمة والأئمة عليهم السلام ووصاياهم [ح ٩].

ومن لفظ الخبر في بيان جهة الصدقة:

«هي صدقة بثة بتلا في حجيج بيت الله وعابري سبيل الله، لا تباع ولا توهب ولا تورث».

هذا مقتطف من الخبر، يبين المستفيدين ويقيد التصرف في الأصل. ومن تأمله أفهم أن دوام الخير يحتاج إلى حفظ المورد وحفظ غايته معاً. أما التفصيل الفقهي لشروط الوقف وأحكامه فله بحثه الخاص؛ ولا أزعج أن المقابلة النصية هنا استقصاء لجميع طرق الخبر أو تحقيق لأصوله الخطية.

المصدر المباشر: الكافي، ج ٧، كتاب الوصايا، الحديث ٩، ص ٥٤ [ح ٩].

تمة الخبر ونص الصدقة: الكافي، ج ٧، ص ٥٥ [ح ٩].

مال يعمل بعد صاحبه

يتيح الوقف التفكير في عمر آخر للغرس؛ فقد يستمر نفعه بعد رحيل من ابتدأه. غير أن إنشاء وقف صحيح وتحديد إدارته وشروطه يحتاج إلى معرفة فقهية وقانونية، ولا تكفي العاطفة الجميلة لحفظ حقوق المستفيدين.

درس في الكرامة

تضع هذه الأخبار العمل المنتج إلى جوار مكانة الإمام، فلا تكون خدمة الأرض نقيضاً للرفعة. ومن وفائنا لهذا المعنى أن نحترم العمال والفلاحين، وألا نحول قصص الجهد إلى مواعظ يرددها من يخس أصحاب الجهد أجورهم.

الغرس الذي يتجاوز عمر الغارس

يبدأ العمل بالنوى والماء والتراب، ثم تتسع دلالاته حين يخصص النفع لغير الغارس. في هذه النقلة ينتقل التفكير من امتلاك المورد إلى تنظيم بقاءه نافعاً. وتبرز قيمة الوقف في القصة من صلته بالاستمرار: مورد لا تنتهي فائدته عند لحظة العطاء الأولى، بل يحتاج إلى حفظ وإدارة وصيانة.

ومن التأمل في هذا المعنى تنشأ أسئلة عملية قبل أي مشروع خيري: من يتولى العناية بعد الغرس، وكيف تحفظ شروط الانتفاع، وما الذي يمنع ضياع الأصل؟ ليست هذه الأسئلة بديلاً من الأحكام الخاصة بالوقف، بل تذكير بأن دوام الخير يحتاج إلى ترتيب كما يحتاج إلى نية. ويكون الوفاء بسيرة العمل في إتقان خدمة الناس، لا في الاكتفاء بتزيين مشروع حديث باسم موروث دون حفظ غايته.

نخل إن شاء الله: تسمية الغرس بمستقبله

يروى الكليني عن عبد الله بن سنان، عن الإمام الصادق عليه السلام، خبر خروج أمير المؤمنين عليه السلام بأحمال النوى؛ وفيه أن الناس يسألونه عما معه، فيقول:

«نخل إن شاء الله».

ثم يذكر الخبر غرسه النوى. وتحمل الإجابة صورة لطيفة للعمل: يرى السائل حملاً من الأنوية، ويرى الزارع في هذا الحمل ما يرجو أن يصير إليه. وليس في العبارة استغناء عن الجهد؛ فالقصة تصل الجواب بفعل الغرس. وهكذا يلتقي الأمل باليد التي تعمل، ويظل تعليق المستقبل بمشيئة الله جزءاً من لفظ الجواب.

نقل المصدر هذا الخبر في الحديث التاسع من الباب، بطريق عدة من أصحاب الكليني، عن سهل بن زياد، عن ابن محبوب، عن عبد الله بن سنان. ووصفه المجلسي بأنه «ضعيف على المشهور» في مرآة العقول، ج ١٩،

ص ١٩ [ح ٢٨]. أحفظ هذا التقويم مع لفظ الخبر، ولا أضم إليه أعداداً وردت في أخبار أخرى عن الغرس أو العتق؛ إذ لكل رواية طريقها وألفاظها.

المصدر: الكافي، ج ٥، باب ما يجب من الاقتداء بالأئمة عليهم السلام في التعرض للرزق، الحديث ٩، ص ٧٥

[ح ٦].

إحالات الفصل: الكافي، ج ٥، باب الاقتداء بالأئمة في التعرض للرزق، الحديث ٩، ص ٧٥ [ح ٦]؛ الكافي، ج ٧، كتاب الوصايا، باب صدقات النبي وفاطمة والأئمة عليهم السلام ووصاياهم، الحديث ٩، ص ٥٤-٥٥ [ح ٩]؛ وتقويم خبر النوى: مرآة العقول، ج ١٩، ص ١٩ [ح ٢٨].

الفصل السابع والثلاثون: النبات في سيرة بقية أهل البيت

العمل في البستان

تقرب أخبار الكافي العمل في البستان من عين القارئ: أداة تحمل، وماء يوجه، وجهه يبذل. ويأتي في هذا الفصل مشهد الإمام الصادق عليه السلام مع المسحاة وفتح الماء، بلفظه وإحالاته.

الإمام الكاظم وطلب الرزق

ينقل الكافي، في الحديث العاشر من الباب، عن علي بن أبي حمزة رؤيته أبا الحسن عليه السلام يعمل في أرضه، مع جواب يصل هذا العمل بسيرة النبي والأئمة [ح ٦]. والكنية هنا تفهم من طريق الخبر وسياقه، لا بمجرد تشابه الكنى بين الأئمة. وقد وصف المجلسي هذا الحديث بأنه «ضعيف»، في مرآة العقول، ج ١٩، ص ١٩ [ح ٢٨]؛ وأورد تقويمه مع نسبة المشهد إلى روايته.

الرضا وأخبار الغداء

من أخبار النبات والغذاء المنسوبة إلى الإمام الرضا عليه السلام خبر التين، وقد عرض نصه وتقويمه المنقول في الفصل الرابع عشر. وتصل هذه الإحالة مشاهد السيرة هنا بأبواب الطعام، مع حفظ كل خبر في موضعه.

السيرة أوسع من قصة مشهورة

قد يحضر النبات في أخبار أهل البيت عليهم السلام من خلال طعام أو صدقة أو وقف أو تعليم أخلاقي. وأجمع ما أمكن توثيق موضعه، وأبقى الأخبار غير المحققة مسجلة للبحث، من غير إنشاء حكاية لكل إمام لمجرد استكمال عدد الأسماء.

تفاصيل العمل تحفظ إنسانية المشهد

تذكر أخبار البستان أداة وعرقاً وماءً وحركة يد، فيرى القارئ العمل كما يجري في يوم الناس. وفي الحديث الثالث عشر من الباب يروي أبو عمرو الشيباني مشهد الإمام الصادق عليه السلام يعمل بالمسحاة في حائط له؛

وقد وصف المجلسي هذا الخبر بأنه «مجهول»، في مرآة العقول، ج ١٩، ص ٢٠ [ح ٢٨]. وأقرأ هذه التفاصيل في سياق كرامة الكسب والجد واحترام المنتجين، مع مراعاة اختلاف أحوال الناس وقدراتهم، وحفظ تقويم كل خبر على حدة.

ويعين ترتيب الأخبار بحسب موضوعها على جمع مشاهد العمل والغذاء والوقف، ثم رد كل مشهد إلى صاحبه ومصدره. وثبتت بطاقات التوثيق الطريق والاسم كما وردا، وتبين ما يحتاج منهما إلى مزيد من البحث، ولا سيما عند اشتراك الكنى.

المسحاة وفتح الماء في خبر إسماعيل

قال إسماعيل بن جابر، في الخبر الذي أورده الكليني:

«أتيت أبا عبد الله عليه السلام وإذا هو في حائط له بيده مسحاة وهو يفتح بها الماء وعليه قميص شبه الكرايس كأنه مخيط عليه من ضيقه».

يقف الراوي على مشهد عمل محدد: بستان، ومسحاة، وماء يفتح له مجرى. والحائط هنا في سياق الخبر بستان، لا مجرد جدار. وتبقي هذه التفاصيل النظر قريباً من واقع الرعاية الزراعية؛ فالماء الموجود لا يصل دائماً إلى موضع الحاجة من تلقاء نفسه، ومن عمل صاحب الأرض أن يتعهد وصوله.

ويعرّض إسناده الخبر بمحمد بن يحيى، وأحمد بن محمد، وابن سنان، إلى إسماعيل بن جابر. أبقيت اسم «ابن سنان» كما ورد في هذا الموضع. ووصف المجلسي الحديث الحادي عشر بأنه «ضعيف على المشهور»، في مرآة العقول، ج ١٩، ص ١٩ [ح ٢٨]. وهذا تقويم منقول عنه للخبر المعين؛ أما مشهد العناية بالأرض فيفتح باب التأمل في قيمة العمل، ولا يوجب تقليد هيئة الثوب أو ظروف العمل في كل زمان.

المصدر: الكافي، ج ٥، الباب نفسه، الحديث ١١، ص ٧٦ [ح ٦].

إحالات الفصل: الكافي، ج ٥، الباب المذكور، الأحاديث ١٠ و ١١ و ١٣، ص ٧٥-٧٦ [ح ٦]؛ الكافي، ج ٦، باب التين [ح ٤]؛ وتقويم أخبار العمل: مرآة العقول، ج ١٩، ص ١٩-٢٠ [ح ٢٨].

مشاهد متممة في قصص الأنبياء

أيوب والضغث

أبدأ المشاهد المتممة بأيوب عليه السلام، وقد ورد في قصته الضغث، وهو حزمة في التفسير اللغوي العام. وأقرأ الأمر في خصوصية الواقعة وما أحاط بها من صبر وإنابة، من غير اتخاذ ترخيصاً عاماً في ضرب الناس.

سورة ص، الآيات ٤١-٤٤.

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ ﴿٤١﴾

﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ ﴿٤٢﴾

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَلِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ ﴿٤٣﴾

﴿وَاخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ ۖ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعَمَ الْعَبْدُ ۚ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ﴿٤٤﴾

نادى أيوب عليه السلام ربه من شدة ما أصابه، فجاءه الأمر أن يضرب الأرض برجله، وذكر له مغتسل بارد وشراب. ثم يذكر القرآن ردَّ أهله إليه ومثلهم معهم رحمة، والأمر بأخذ ضغث للوفاء بيمينه من غير حنث، ويثني على صبره وإنابته. هذا هو تسلسل المقطع؛ أما تعيين من تعلق به اليمين وتفاصيل سببه فتد في التفسير، ولا يسردها النص هنا.

صالح والنخل ذو الطلع الهضم

ثم يقودني ذكر النخل ذي الطلع الهضم إلى خطاب صالح عليه السلام لثود. أحفظ وصف الطلع كما ورد، من غير تعيين صنف محدد من التمر به، وأتابع صلته بالجنات والعيون والعمران في الآيات التالية.

سورة الشعراء، الآيات ١٤٦-١٥٢.

﴿اتَّزَكَوْا فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ﴾ ﴿١٤٦﴾

﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿١٤٧﴾

﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ ﴿١٤٨﴾

﴿وَتَخْتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ ﴿١٤٩﴾

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ ﴿١٥٠﴾

﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿١٥١﴾

﴿الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ ﴿١٥٢﴾

يسأل صالح عليه السلام قومه إن كانوا يتوقعون البقاء آمنين في جنات وعيون وزروع ونخيل، مع بيوت يختونها في الجبال. ثم يدعوهم إلى تقوى الله وطاعته وترك اتباع المسرفين المفسدين. فتأتي صورة العمران الزراعي في صدر الموعظة، لتكشف أن وفرة المعاش لا تسقط مسؤولية الإنسان عن عمله.

شعيب وأصحاب الأيكة

وتحمل تسمية أصحاب الأيكة صلة أخرى بالنبات، فالأيكة في اللغة تتصل بالشجر الملتف. ومن هذا الاسم أنتقل إلى دعوة شعيب عليه السلام، حيث يظهر عدل الكيل والميزان وحقوق الناس محوراً للحكاية.

سورة الشعراء، الآيات ١٧٦-١٩١.

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٧٦﴾

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿١٧٧﴾

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ﴿١٧٨﴾

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ ﴿١٧٩﴾

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ^ط إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٨٠﴾

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ ﴿١٨١﴾

﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ ﴿١٨٢﴾

﴿وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعَثُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ﴿١٨٣﴾

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ﴾ ﴿١٨٤﴾

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ ﴿١٨٥﴾

﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ﴿١٨٦﴾

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿١٨٧﴾

﴿قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٨٨﴾

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ^ج إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿١٨٩﴾

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً^ط وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٩٠﴾

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١٩١﴾

دعا شعيب عليه السلام أصحاب الأيكة إلى التقوى، وبين أمانته وأنه لا يطلب أجراً منهم، ثم أمرهم بإيفاء الكيل والوزن وترك بخس الناس والإفساد. لكنهم اتهموه بالسحر والكذب، وطالبوه أن يسقط عليهم قطعاً من السماء؛ فردّ الأمر إلى علم ربه. ثم يذكر النص تكذيبهم وعذاب يوم الظلة، ويختم بالعبارة وعزة الله ورحمته؛ فتظهر صلة المشهد بعدل المعاملة، لا باسم الشجر وحده.

الباب الرابع: النبات في الأمثال القرآنية والرموز

رأينا النبات حاضراً في أحداث الرسالة ومعاش الناس، ونراه هنا صورة تقرب معنى الكلمة والعطاء والغرور ومصير العمل. قد تبدأ الآية بحبة صغيرة، ثم تحمل النظر إلى أثر لا يقاس بصغرها؛ وقد تعرض بستاناً عامراً ليظهر فيه ما خفي من موقف صاحبه. سنقرأ هذه الأمثال في تنابع صورها، ونصغي إلى السؤال الذي يعيده كل مشهد إلى حياتنا.

الفصل الثامن والثلاثون: الشجرة الطيبة والشجرة الخبيثة

أصل ثابت وفرع صاعد

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾

القرآن الكريم، سورة إبراهيم، الآية ٢٤.

يفتح السؤال «ألم تر» باب المشاهدة، ثم ينقل إلى صورة تستطيع الذاكرة أن تحفظها: أصل وفرع، ثبات وامتداد. وبذلك تكتسب الكلمة معنى يتجاوز لحظة التلفظ بها؛ فلها ما تستند إليه، ولها أثر يظهر ويتصل بغيرها. ويكمل السياق القرآني مشهد الثمرة في الآية التالية. وعند شرح هذا المثل ينبغي أن تبقى الصلة بين أجزائه حاضرة، حتى لا يتحول الأصل أو الفرع إلى رمز منفصل نحلّه كل معنى يخطر لنا.

كلمة لها أصل وثمر

سورة إبراهيم، الآية ٢٥.

﴿تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٢٥﴾

يتواصل مثل الكلمة الطيبة بثمره تتجدد بإذن الله، فيقابل رسوخ الأصل وارتفاع الفرع دوام النفع. ولا يروي المثل خبر شجرة تاريخية محددة، بل يجعل نمو الشجرة صورة قريبة لأثر كلمة صالحة تستقر وتثمر.

من اجتماع الرسوخ والامتداد والثمر أستلهم سؤالاً عن الكلمة التي أنطقها: ما أصلها، وإلى من يصل نفعها، وأي أثر يبقى منها؟ وبذلك ينتقل جمال الصورة إلى امتحان يخص صدق القول وعمله في حياة الناس.

الثبات والنمو

الثبات في الصورة لا يعني الجمود؛ فالشجرة ثابتة الأصل نامية الفروع مثمرة. ويمكن أن يستلهم الإنسان من ذلك ثبات المبدأ مع تجدد العمل، ما دام يعلم أن هذا استلهم أخلاقي، لا تفسير حصري لكل جزء من أجزاء المثل.

الصورة المقابلة

سورة إبراهيم، الآية ٢٦.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ ﴿٢٦﴾

في الصورة المقابلة شجرة خبيثة منزوعة من فوق الأرض لا قرار لها. ويفهم ضعف الكلمة الخبيثة من افتقاد هذا الأصل الثابت؛ فظاهر الامتداد لا يكفي إذا انقطع ما يحمل البقاء والنفع. يظهر ضعف الكلمة من فقدان ما يثبتها ويجعل أثرها نافعاً. وأقرأ وصف الخبث في مقام تمثيل الكلمة، من غير نقله إلى حكم أخلاقي على نوع نباتي في الحقيقة.

التفسير والرواية

وردت في التراث تطبيقات للشجرة على أشخاص أو معان إيمانية. ويقتضي التحقيق أن يعرض كل تطبيق مع مصدره ووجه دلالاته، دون إلغاء ظاهر المثل العام أو جعل كل تأمل حديث رواية عن المعصوم. والقدر الثابت هنا هو البناء القرآني للمقابلة.

الأثر الذي يميز طيب الكلمة

سورة إبراهيم، الآية ٢٧.

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ^ط وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ^ج﴾

﴿٢٧﴾

يأتي تثبيت المؤمنين بالقول الثابت بعد مثلي الشجرتين، فيكشف المقصد من الصورة النباتية. فالثبات المطلوب يتصل بالإيمان والهداية في الدنيا والآخرة، ويقابله ضلال الظالمين؛ ومن هنا يعود المثل إلى مصير الإنسان وعمله.

يقود ختام المثل إلى معنى الثبات بالهداية، ويصل ما سبق من صورة الشجرة بمسؤولية صاحب الكلمة. وأعرض ما أسألهمه من صدق القول وتجدد نفعه بوصفه تأملاً في هذا البناء، مع حفظ ما يذكره المفسرون من وجوه أوسع.

وتكشف الصورة المقابلة أن فقد القرار مشكلة في أصل البناء، لا مجرد نقص في زينته. ويمكن للقارئ أن يراجع بهذا المعنى خطاباً بليغاً يخلو من الصدق، أو وعداً يكثر ترديده ولا يحمل عملاً. أما تنزيل الشجرتين على أشخاص معينين فيبقى باباً آخر يحتاج إلى نقل ودلالة؛ فلا يصبح كل إعجاب شخصي تطبيقاً مأثوراً للمثل.

إحالات الفصل: سورة إبراهيم ٢٤-٢٧.

الفصل التاسع والثلاثون: الحبة والسنابل والجنة بربوة — أمثال الإنفاق

حبة الإنفاق وسعة المضاعفة

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية ٢٦١.

يمضي الخيال مع الحبة إلى السنابل، ومع السنابل إلى كثرة الحب، فيرى أثر البذل ممتداً بعد مفارقتة يد صاحبه. ويزداد المعنى اتساعاً في خاتمة الآية بالمضاعفة والعلم. والمثل متعلق بالإنفاق في سبيل الله؛ فلا ينفصل عن سياقه الأخلاقي، ولا يصير وعداً بحاصل زراعي ثابت لكل بذرة. وهو يعلم القارئ أن ينظر إلى العطاء بما يمكن أن ينشأ عنه من خير، مع إخلاص القصد وصيانة كرامة من يصل إليهم.

ما بعد حجم الحبة

سورة البقرة، الآيات ٢٦٢-٢٦٣.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مَا أَنْفَقُوا مِنْ أَدَىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿٢٦٢﴾
﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَدَىٰ ۚ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ ﴿٢٦٣﴾

تتبع صورة الحبة المضاعفة وصية بحفظ الإنفاق من المن والأذى. وتقدم الآيات القول المعروف والمغفرة على صدقة تجرح صاحب الحاجة؛ فيتضح أن جودة العطاء ليست في مقداره وحده، بل في النية والطريقة والأثر على المتلقي.

وتصون هذه الوصية أثر العطاء بعد خروجه من اليد، حين تحفظ كرامة من يتلقاه. أما المضاعفة التي افتتح بها المثل فوضعها ثواب الله؛ فلا أقرأها وعداً بعائد مالي دنيوي محدد لكل منفق.

سورة البقرة، الآية ٢٦٤.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ فَنُفِلَتْهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا
يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٢٦٤﴾

يُشَبَّهُ الإنفاق الذي يفسده الرياء والمنّ بصخر أملس عليه تراب أصابه مطر شديد، فانكشف خالياً مما بدا
عليه. فالصورة تكشف عملاً يوههم بالنماء، ثم يظهر أنه لم يستند إلى أصل يحفظ ثمرة العطاء.
يمتحن المطر في هذه الصورة ما كان مستتراً تحت التراب. وأتأمل هذا الانكشاف في صلته بالبواعث: ما
الذي يحمل العمل حين تزول صورته أمام الناس، وهل بقي فيه ما يحفظ نفعه عند الاختبار؟

جنة ربوة

سورة البقرة، الآية ٢٦٥.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ رَّبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَاتَتْ أُكُلَهَا
ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿٢٦٥﴾

تقابل الصورة السابقة جنة مرتفعة ينفق صاحب المثل ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من نفسه؛ فإن أصابها مطر
غزير تضاعف ثمرها، وإن لم يصبها كفاها الطل. هكذا يقرب المثل أثر الأصل الصالح في استمرار النفع.
يجتمع موضع البستان والمطر والثر لتقريب ثبات الأثر حين يستقيم الباعث على الإنفاق. وأحفظ للصورة
غرضها، بينما يحتاج اختيار موقع مزرعة ودراسة انحدارها إلى معرفة ظروف الأرض نفسها.

سورة البقرة، الآية ٢٦٦.

﴿أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾

﴿٢٦٦﴾

يرسم السؤال رجلاً كبير سنه وله أبناء ضعفاء، وله جنة وافرة هي موضع حاجته ورجائه، ثم يحرقها إعصار فيه نار. وتكمن شدة الصورة في وقوع الخسارة عند أعظم الحاجة؛ فتوقظ الخوف من إضاعة ثمرة العمل قبل وقت الانتفاع بها.

يتصل وقع الضرر هنا بحال من أصابه: كبر في السن، وذرية تحتاج إلى العناية، ومورد يعسر تعويضه. ومن هذه الصلة تأمل صيانة ثمرة العمل، ومسؤولية الإنسان تجاه من يعتمدون عليه.

أربعة مشاهد لسؤال واحد

تتحرك أمثال الإنفاق بين حبة تتضاعف، وسطح ينكشف، وبستان يثمر، وجنة تحترق عند شدة حاجة أهلها. ولا يقتصر السؤال الجامع على مقدار المال، بل يشمل ما يقوم عليه الفعل وما يلحق به وما يبقى من أثره. إن ترتيب الصور يجعل القارئ يرى المن والأذى والرياء من خلال نتائج محسوسة، بدل أن تبقى ألفاظاً أخلاقية مجردة.

ويجعل ذكر الكبر والذرية الضعفاء خسارة البستان أشد وقعاً، لأن المورد يضيع حين تشتد الحاجة إليه. ومن هنا نستخلص أن أثر الضرر يتصل بحال من يصيبه وقدرته على التعويض، مثلما يتصل بمقدار ما فقده.

إحالات الفصل: سورة البقرة ٢٦١-٢٦٦.

الفصل الأربعون: النبات يصير هشيمًا — صورة الدنيا

من اخضرار الأرض إلى تفرق الهشيم

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَزْلَنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾

القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية ٤٥.

تختصر الآية زمنًا ممتدًا في انتقال سريع من الماء والنبات إلى الهشيم الذي تفرقه الرياح. ويؤثر هذا الاختصار في القارئ لأنه يجمع البداية والنهاية في مشهد واحد. من عاش موسمًا في حديقة يعرف كيف يتعلق النظر بالخشرة، ثم يتعلم أن تبدلها جزء من واقعها. ويستدعي المثل مراجعة التعلق بالدنيا، مع بقاء العمل والعمران والإحسان أعمالًا ذات قيمة؛ فعرفة الزوال تهذب التصرف فيما نملك وتدعو إلى اغتنام زمن النفع.

المشهد الذي يعرفه الجميع

سورة الزمر، الآية ٢١.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ قَرَارُهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ﴿٢١﴾

يخرج الزرع بالماء مختلف الألوان، ثم يهيج ويصفر ويصبح حطامًا. لا تعرض الآية المصير الأخير وحده، بل تحفظ جمال البداية أيضًا؛ وبجمعهما يتعلم الإنسان أن يرى النعمة ويشكرها من غير أن يظنها باقية على حال واحدة.

لقرب هذا المثل أثره في النفس؛ فقد يشهد الإنسان تبدل الأرض في المكان الذي يعيش فيه، من غير سفر أو أدوات نادرة. وتكفي العودة إلى المشهد عبر المواسم لتجدد السؤال عما يستغرق القلب وعما يبقى من العمل.

الزينة حين تبلغ تمامها

سورة يونس، الآية ٢٤.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَظَنَ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿٢٤﴾

تتكمّل زينة الأرض ويظن أهلها أنهم قادرون عليها، ثم يأتيها أمر الله ليلاً أو نهاراً فتصبح كأنها لم تزدهر بالأمس. والمثل لا يسمي قوماً بعينهم؛ إنما يكشف وهم الاطمئنان إلى تمام القدرة حين تبلغ الأسباب أوجها.

أتوقف عند ظن القدرة حين تبلغ الزينة تمامها. فالعناية بالزرع والفرح بالحصول يظلان من وجوه الانتفاع، ويقع موضع العبرة في الغرور الذي ينسى حدود ما يستطيع صاحبه ضمانه.

معرفة الفناء لا إهمال الحياة

سورة الحديد، الآية ٢٠.

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ ﴿٢٠﴾

تعدّد الآية وجوه الانشغال بالدنيا من لعب وزينة وتفاخر وتكاثر، ثم تقرب زوالها بزرع يعجب الناظرين ويصير حطاماً. وبعد ذلك تُذكر عاقبة الآخرة، ليعود تقدير الحياة إلى ما يصنعه الإنسان فيها من عمل.

قد يقود إدراك قصر الموسم إلى مزيد من العناية والعدل؛ فمن يعلم أن ما في يده يزول يحسن تقدير أثره في الناس. ويصبح السؤال عن الإرث الذي يتركه باعثاً على الإصلاح وحفظ المورد.

ذاكرة الزارع

يعرف الزارع أن صورة الحقيقة متحركة. ومن تأملها تعلم أن ما يهجه اليوم يحتاج إلى شكر، وما يفقده غداً لا يستنفد معنى الحياة. وهذا تأمل شخصي يتصل بالمثل، ولا يقوم مقام تقرير غيبي عن سبب خسارة كل مزرعة.

ما الذي يزول، وما الذي يبقى موضع اختيار؟

يختلف فعل الإنسان في الموسم عن قدرته على إيقاف الزمن. يمكنه أن يغرس ويحفظ ويصلح، ولا يمكنه أن يمنع كل تحول أو يجعل هيئة الحقل دائمة. يضع المثل هذه الحقيقة أمام نظره حين ينتقل من الزينة إلى الهشيم، فيرد امتلاكه المؤقت إلى حدوده.

فالفرح بالخضرة قد يكون شكراً تصحبه معرفة النعمة، وقد يتحول إلى غرور إذا صحبه وهم الاستغناء والضمان. ويظهر الفرق في السلوك: كيف يرمى الإنسان ما في يده، وكيف يؤدي حقوق من يعتمدون عليه؟ ومن هذا السؤال تنتقل الحكاية إلى صاحب الجنتين.

إحالات الفصل: سورة يونس ٢٤؛ سورة الكهف ٤٥؛ سورة الزمر ٢١؛ سورة الحديد ٢٠.

الفصل الحادي والأربعون: صاحب الجنتين

بستان ناجح وقلب مختل

سورة الكهف، الآيات ٣٢-٣٦.

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾
﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَجَرَّرْنَا خِلَاهُمَا نَهْرًا ﴿٣٣﴾
﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾
﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾
﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِمَّنَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾

أعطى أحد الرجلين جنتين من أعناب تحيط بهما النخيل، وبينهما زرع ونهر، وكانتا وافرتي الثمر. ففاخر صاحبه بالمال والأنصار، ثم استبعد فناء جنته وقيام الساعة، وتوقع خيراً إن رجع إلى ربه؛ فبدأ الخلل من فهمه للنعمة ودالاتها.

كانت أسباب الوفرة ظاهرة في البستان، وبدأ اضطراب صاحبه من المعنى الذي أعطاه لامتلاكها. ومن هنا أتبع كلامه عن المال والمنزلة والمآل، ففيه يظهر الخلل قبل أن تتغير صورة الجنتين.

الحوار عند بوابة النعمة

سورة الكهف، الآيات ٣٧-٤١.

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾
﴿لَنَكُنَّ هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾
﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴿٣٩﴾
﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيَّا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾
﴿أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾

ذَكَرَهُ صَاحِبُهُ بِأَنَ الَّذِي خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَظْفَةٍ وَسَوَاهُ رَجُلًا هُوَ رَبُّهُ، وَأَرْشَدَهُ إِلَى نِسْبَةِ النِّعْمَةِ إِلَى مَشِيئَةِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ. ثُمَّ نَبَّهَ إِلَى اِحْتِمَالِ خَرَابِ الْجَنَّةِ أَوْ غَوْرِ مَائِهَا؛ فَكَانَتِ النَّصِيحَةُ رَدًّا عَلَى الْغُرُورِ وَدَعْوَةً إِلَى الشُّكْرِ. تَمُنَّحُ الصَّدَاقَةُ فِي هَذَا الْحَوَارِ مَجَالًا لِلنَّصِيحَةِ وَرَدَّ الْإِنْسَانَ إِلَى أَصْلِ خَلْقِهِ وَمَصْدَرِ نِعْمَتِهِ. وَتَتَعَلَّقُ الْمَرَاجَعَةُ بِالْكَلِمَةِ الَّتِي قَالَهَا صَاحِبُ الْبُسْتَانِ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى مَالِهِ، وَبِمَا كَشَفَتْ عَنْهُ مِنْ اسْتِعْلَاءٍ وَغَفْلَةٍ.

انقلاب المشهد

سورة الكهف، الآيات ٤٢-٤٤.

﴿وَأَحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفِّهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ ﴿٤٢﴾

﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ ﴿٤٣﴾

﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ ﴿٤٤﴾

وقع الهلاك بالثمر، وأصبح صاحبه يقلب كفيه حسرة على النفقة، والجنة ساقطة على عروشها. وتمنى لو لم يشرك بربه، فلم يجد ناصراً يدفع عنه ما نزل؛ وعند النهاية تتضح محدودية المال والرجال أمام سلطان الله. يكشف الندم هشاشة الأمان الذي بناه صاحبه على المال وحده. وأحفظ هذا المعنى داخل سياق الواقعة؛ فالقرآن يبين موقف هذا الرجل، ولم يجعل كل خسارة زراعية دليلاً على تكبر صاحبها.

ماذا نأخذ معنا؟

يستطيع صاحب الحديقة أن يفرح بغرسه ويعتز بعمله، ثم يقول في قلبه ولسانه إن نجاحه لم يصنعه وحده. وراءه أرض وماء وعلم وعمال وظروف لا يملكها جميعاً. وهذا الإدراك يجعل الاعتزاز بالعمل أقل قسوة وأكثر شكرًا.

ألفاظ الملكية حين تنقلب إلى استعلاء

تُظهر القصة أثر اللغة التي يتحدث بها الإنسان عن ماله. فهو لا يصف بستاناً فقط، بل يقارن نفسه بغيره ويستنتج من وفرته منزلة وأماناً للمستقبل. وهنا يتحول المحصول من رزق ينتفع به إلى حجة يتعالى بها. ويعيده صاحبه في الحوار إلى أصل خلقه وإلى الاعتراف بربه، فيصح طريقة النظر قبل أن يناقش مقدار الثمر. تبدأ العبرة في القصة قبل الخسارة، حين يظهر الخلل في كلام صاحب البستان وهو بين ثماره. ولذلك يُقرأ الحوار أولاً لفهم ما يتغير بعده، وتبقى دلالة هذه الواقعة مرتبطة بسياقها. نخسارة مورد في حياة الناس لا تكشف وحدها سريرة صاحبه.

إحالات الفصل: سورة الكهف ٣٢-٤٤.

الفصل الثاني والأربعون: أصحاب الجنة

موعد حصاد بلا مسكين

سورة القلم، الآيات ١٧-١٨.

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾

﴿وَلَا يَسْتَنْتُونَ ﴿١٨﴾﴾

أقسم أصحاب الجنة أن يقطعوا ثمرها في الصباح، ولم يستنثوا في قسمهم. بهذا القرار تبدأ القصة: بستان ينتظر الحصاد، وأصحاب يخططون لما سيأخذونه، قبل أن ينكشف في بقية الأحداث ما أضمره تجاه المساكين. تبدأ قصة أصحاب الجنة بقرار جماعي عن موعد الحصاد، قبل أن تكشف الآيات ما أرادوه من منع المساكين. ومن هذه البداية أتبع كيف يتحول الثمر إلى امتحان للضمير: ماذا يفعل الإنسان حين يجتمع في يده خير الأرض وحاجة الآخرين إليه؟

طائف يغير الخطة

سورة القلم، الآيات ١٩-٢٧.

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾

﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾

﴿فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾

﴿أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾

﴿فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ ﴿٢٣﴾

﴿أَن لَّا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾

﴿وَعَدُوا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴿٢٦﴾

﴿بَلْ نَحْنُ مُحْرَمُونَ﴾ ﴿٢٧﴾

طاف بالجنة طائف من عند الله وهم نائمون فأصبحت كالصريم. وفي الصباح خرج أصحابها يتناجون بألا يدخل عليهم مسكين، واثقين بقدرتهم، فلما رأوها ظنوا أولاً أنهم أخطؤوا الطريق ثم أدركوا أنهم حرموا ثمرها؛ فسبقت الخسارة تنفيذ خطتهم.

تظهر المسافة بين ثقة أصحاب الجنة بما سيجنونه وبين ما وجدوه عند الوصول. ومن هذه المفارقة ينكشف ضيق علم الإنسان، ويعود السؤال عن الثمر إلى ما نواه أصحابه من منع حق المحتاج.

صوت الاعتراف

سورة القلم، الآيات ٢٨-٣٣.

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ ﴿٢٨﴾

﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿٢٩﴾

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ﴾ ﴿٣٠﴾

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ ﴿٣١﴾

﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ ﴿٣٢﴾

﴿كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ۖ وَلَئِنَّ الْآخِرَةَ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٣﴾

ذكرهم أوسطهم بما كان يدعوهم إليه، فأقروا بظلمهم وأخذ بعضهم يلوم بعضاً، ثم اعترفوا بالطغيان ورجوا أن يبدلهم ربهم خيراً منها. ويختم النص بالتنبيه إلى عذاب الآخرة؛ أما استجابة طلب التعويض فلا تُروى هنا، فلا أضيفها إلى أحداث القصة.

يتغير كلام الجماعة حين تواجه نتيجة فعلها: اعتراف بعد ثقة، ولوم بعد اتفاق، ورجاء بعد حرمان. وفي هذا التحول موضع للتأمل في انكشاف الأنانية وبداية الرجوع.

الحصاد امتحان مشترك

يمكن أن نقرأ القصة ونحن نوزع فائض حديقة منزلية، أو ننظم تجارة غذاء، أو نخطط لمساعدة محتاج. ولا يعني ذلك إسقاط أحكام الزكاة والصدقة كلها على حادثة واحدة؛ إنما يعني ألا يغيب الإنسان عن الإنسان في موسم النعمة.

الخطوة الجماعية ومسؤولية الفرد

يتبادل أصحاب اللجنة العزم والتواصي، فتظهر الأناية هنا قراراً تتعاون عليه مجموعة. وقد يوهم اتفاق الجماعة أفرادها بأن الفعل صار مقبولاً لمجرد أنهم اجتمعوا عليه. ثم يبرز صوت أوسطهم في لحظة المراجعة، ليدل على إمكان أن ينشأ التنبيه من داخل الجماعة نفسها.

وتصف القصة انتقالاً في الكلام: من التخطيط والمنع إلى الاعتراف واللوم والرجاء. فهي تعرض تلف البستان وتغير وعي أصحابه معاً، ولا تصرح الآيات بطريقة هذا التلف. ومن تأمل القرار المشترك ينشأ سؤال للقارئ: هل يراجع ما يراه ظلماً، أم يطمئن إلى أنه لم يكن وحده؟ وهو سؤال أخلاقي مستلهم من المشهد.

إحالات الفصل: سورة القلم ١٧-٣٣.

الفصل الثالث والأربعون: سبأ وجنتاها

عمران يقوم على نعمة

سورة سبأ، الآية ١٥.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ۖ جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۚ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ ﴿١٥﴾

كانت مساكن سبأ محاطة بجنتين، عن اليمين وعن الشمال، واجتمع لهم رزق وبلدة طيبة. وقرن وصف هذا العطاء بدعوتهم إلى الأكل والشكر لرب غفور؛ فتبدأ الحكاية من نعمة واضحة ومسؤولية تجاه واهبها. يتسع خير الجنتين إلى العمران وسبل المعاش والعلاقات التي تقوم حول مورد منتظم. ولذلك أقرأ نعمة سبأ في حياة جماعة كاملة، وأتبع أثر الشكر أو الإعراض في مسار هذه الحكاية.

الإعراض والتبدل

سورة سبأ، الآيات ١٦-١٧.

﴿فَاعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سِيلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ ﴿١٦﴾

﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ ﴿١٧﴾

أعرض القوم، فجاء سيل العرم وتبدلت الجنتان إلى نبات ذي أكل مرّ وأثل وقليل من سدر. وتربط الآيات هذا التحول بكفرانهم؛ فيصبح تغير المشهد الزراعي علامة على انقلاب حال الجماعة بعد وفرة واستقرار. يبين النص انقلاب الحال من الوفرة إلى فقدانها. أما تعيين التفاصيل الهندسية والتاريخية للمنشآت المرتبطة بسبأ فبحث آخر له شواهد الأثرية؛ وأقتصر هنا على ما يسرده القرآن وما يدل عليه سياقه.

قراءة النباتات في موضعها

ورد الخمط والأثل وشيء من سدر قليل في وصف البديل. ودلالة النقص نابعة من مجموع المقارنة. أما النباتات نفسها فلا تصبح ملعونة أو عديمة النفع في جميع المواضع، وقد سبق بيان هذا الفرق في الفصل الثامن عشر.

يمكن أن يظهر الشكر في صيانة الماء والوفاء بحقوق الناس وعدم إهدار الموارد. وهذه تطبيقات أخلاقية معاصرة لمعنى عام؛ لا نزعم أنها تفسير ماثور لكل كلمة. فحكاية سبأ تفتح سؤالاً يبقى حياً: كيف نحافظ على النعمة دون اغترار بها؟

العمران الذي يحتاج إلى ذاكرة شكر

سورة سبأ، الآيات ١٨-١٩.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ^ط سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾
﴿١٨﴾

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَرَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ^ج إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾
﴿١٩﴾

تتسع الحكاية من البساتين إلى طرق بين قرى ظاهرة، قُدرت فيها مراحل السير وأُتيح الأمن. لكن القوم طلبوا مباحدة أسفارهم وظلموا أنفسهم، فصاروا أحاديث وتفرقوا؛ وبذلك تضم القصة ضياع مورد العيش وضياع الاجتماع والأمان.

تكشف هذه الخاتمة اعتماد العمران على الزرع والطريق والأمان معاً. وإذا اضطرب المورد الذي اعتاده الناس تأثرت أعمالهم وروابطهم وأمكنة عيشهم؛ فيتسع معنى الخسارة عن حدود الثمرة التي ضاعت.

ومن معاني الشكر التي أستهلمها ألا تتحول وفرة المورد إلى نسيان لضرورة صيانتها أو لحقوق المستفيدين منه. ولكن هذا الاستهلام لا يميز تفسير كل فيضان معاصر بوصفه عقوبة على جماعة. فالنص يخبر عن واقعة بعينها، بينما تحتاج الكوارث التي نشهدها إلى بحث أسبابها ومساعدة المتضررين منها. إن الموعظة التي تصحب البحث والرحمة أنفع من موعظة تستعمل لتوجيه الاتهام إلى أصحاب المصيبة.

إحالات الفصل: سورة سبأ ١٥-١٩.

الفصل الرابع والأربعون: الزرع الذي اشتد واستوى

نمو متدرج

سورة الفتح، الآية ٢٩.

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿٢٩﴾

تصف الآية محمدًا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والذين معه بصفات العبادة والتراحم والثبات، ثم تضرب لهم مثل زرع ينبت فروعه فتقويه حتى يغلظ ويستوي على سوقه ويعجب الزراع. فيقرب النمو النباتي معنى التساند والاشتداد، ويُختم الوعد بالمغفرة والأجر لمن آمن وعمل صالحًا.

تتابع أفعال النمو في المثل، فيرى القارئ المساندة وهي تتحول إلى اشتداد واستقامة. ويقرب هذا التدرج أثر البناء المتصل عبر الزمن، بما يعرفه الزارع من الفرق بين خروج البادرة واكتمال قوتها.

إعجاب الزراع

يذكر النص إعجاب الزراع، فيجعل خبرتهم جزءًا من قوة الصورة. فمن اعتاد رعاية النبات يدرك معنى أن يرى نموه قائمًا متماسكًا. وهذه اللحظة تمنح العمل الزراعي حضورًا في لغة المثل، لا مجرد وجود في خلفية الحياة.

الجماعة وصورة المساندة

يقع المثل في وصف الرسول والذين معه، في سياق صفات ومقاصد محددة. ويمكن الاستئناس به في قيمة التعاون، لكن لا يصح أن نلحق كل جماعة معاصرة بالمدح القرآني لمجرد أنها تكثر عددًا أو تتماشك تنظيميًا.

القوة ذات الغاية

ليست زيادة الحجم غاية أخلاقية مستقلة؛ فقد يكبر مشروع وهو يظلم، وقد يتسع مال وهو يفسد. والذي يرشد إليه السياق هو قراءة النمو مع الصفات التي سبقت الصورة، حتى تبقى القوة متصلة بالعبادة والرحمة والصدق.

بلاغة الأفعال المتتابعة

تجعل الأفعال المتتابعة الزمن ظاهراً في المثل؛ فكل مرحلة تمهد لما بعدها حتى يقوم الزرع متماسكاً. وتتيح هذه الحركة للقارئ أن يرى معنى المساندة في أثناء النمو، ثم يلاحظ أثرها في الهيئة التي انتهت إليها. ويمثل إعجاب الزراع بتقدير من يعرف مراحل النمو وقيمة ما انتهت إليه. ومن هذا الوجه نستخلص فائدة النظر إلى النتيجة مع طريق بنائها في التعليم والعمل المشترك. وأقدم هذا التطبيق، مع حفظ المدح القرآني لمن ورد في سياقهم وبصفتهم.

إحالات الفصل: سورة الفتح ٢٩.

الفصل الخامس والأربعون: سجود الشجر وتسبيح الخلق

الشجر في آية السجود

﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾

القرآن الكريم، سورة الرحمن، الآية ٥٦.

تضع الآية الشجر في خطاب الخضوع لله، فتتسع نظرة المؤمن إليه وراء المنفعة المباشرة. ومن الأدب في القراءة إثبات ما أخبر به النص من السجود، والوقوف في وصف كيفيته عند ما يدل عليه الوحي. ويعرض الفصل هذه الدلالة مع تمييزها من الاستجابات التي يدرسها علم النبات.

عالم أوسع من الصمت

سورة الإسراء، الآية ٤٤.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ^ج وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبَحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ^ف إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ ﴿٤٤﴾

تخبر الآية بتسبيح السماوات والأرض ومن فيهن، وبأن كل شيء يسبح بحمد الله مع قصور الإنسان عن فقه ذلك التسبيح. فيدخل النبات في هذا الأفق العام، ويدعى القارئ إلى الاعتراف بأن فهمه للموجودات لا يحيط بكل شأنها.

يلفت هذا الخبر إلى حدود إدراكي لما حولي؛ فقصور السمع والفهم عن تسبيح الموجودات لا ينفي ما أخبر الله به. ومن هنا يصحب التأمل في الشجر تواضع أمام ما لا أحيط به من شأنه.

سجود له كلفيته

سورة الحج، الآية ١٨.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ
وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۚ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ

﴿١٨﴾ ﴿١٩﴾

يجمع المشهد سجود ما في السماوات والأرض، ثم يسمي الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب
وكثيراً من الناس. فتظهر الشجرة ضمن خضوع الخلق لله، مع بقاء حال الإنسان مرتبطة بموقفه ومسؤوليته كما
تبين خاتمة الآية.

أعرض في معنى سجود الشجر ما بحثته التفاسير من الخضوع والتسخير والدلالة وغيرها، مع حفظ نسبة كل
وجه إلى قائله. وتبقى كيفية ذلك عند حدود ما يدل عليه النص، من غير قياسها على هيئة سجود الإنسان.

العلم لا يقيس كل معنى

قد يدرس العلم استجابة النبات للمؤثرات، لكن إثبات الاستجابة لا يساوي إثبات التسبيح بالمختبر، كما أن
عدم قياس التسبيح لا ينفي الخبر الديني. والخطأ في الحاليين أن ننقل سؤالاً من مجاله إلى مجال آخر ثم نعلن
حلّه.

أدب المشاهدة

يستطيع المؤمن أن ينظر إلى الشجرة باحترام، لأنها جزء من خلق الله، مع بقائه قادراً على تقليمها والانتفاع بها
وفق الحق. فالتوقير لا يلغي الاستعمال، وإنما يبعد الاستهانة والعبث ويذكر الإنسان بمحدودية فهمه.

بين لغة المختبر ولغة التعبد

يحدد الباحث في الاستجابة النباتية مؤثراً ونتيجة يمكن ملاحظتها، ويتلقى المؤمن خبر التسبيح من النص
الديني. ويقتضي فهم المجالين بيان مصدر المعرفة في كل منهما وحدود ما يثبتته.

وتثمر هذه القراءة شعوراً بالمسؤولية عند الانتفاع بالموجودات؛ فالقدرة على التصرف فيها تصبحها معرفة بحدود العلم وحرص على ترك العبث. وهذا أثر أخلاقي أستلهمه من التأمل، وتظل كيفية التسبيح والسجود مقروءة في حدود النص.

إحالات الفصل: سورة الرحمن ٦؛ سورة الإسراء ٤٤؛ سورة الحج ١٨.

الفصل السادس والأربعون: الشجرة الملعونة والرموز في التأويل

موضع يحتاج إلى ضبط

سورة الإسراء، الآية ٦٠.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ^ج وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ ﴿٦٠﴾

تذكر الآية إحاطة الله بالناس، والرؤيا التي أراها نبيه، والشجرة الملعونة في القرآن، في سياق امتحان الناس وتخويفهم. ولا تسمي الآية الشجرة في هذا الموضع؛ ولذلك يُبحث تعيينها في ضوء سائر النصوص وأقوال المفسرين مع تمييز التفسير من لفظ الآية.

تعددت أقوال المفسرين في تعيين الشجرة: فمنهم من وصلها بالزقوم، ومنهم من قرأها رمزاً لامتناد بشري مفسد. وأعرض كل وجه بوصفه تفسيراً له مأخذه، مع إبقاء عبارة الآية متميزة من الأسماء التي عُنيت بها في الشرح.

قراءة الميزان

يناقش الطباطبائي الوجه النباقي، ويرجح حمل الشجرة على امتداد من المنافقين، ويصل البحث بما نقله من أخبار بني أمية. وهذا تلخيص لرأيه في الموضع، لا ادعاء اتفاق المفسرين عليه، ولا تحقيق مستقل لكل رواية ساقها.

المقارنة بين التفاسير

سورة الصافات، الآيات ٦٢-٦٥.

﴿أَذِلَّكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ ﴿٦٢﴾

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ ﴿٦٣﴾

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ ﴿٦٤﴾

﴿طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ ﴿٦٥﴾

تُعرض شجرة الزقوم في مقابلة نعيم أهل الجنة، وتوصف بأنها تخرج في أصل الجحيم وأنها فتنة للظالمين. ويُصور طلوعها بصورة مخيفة؛ فيتجه البيان إلى الوعيد، ويتيح صلة تفسيرية بذكر الشجرة في سورة الإسراء دون إلغاء ضرورة بيان مأخذ هذا الربط.

ويعرض القرطبي القول بالزقوم وأقوالاً أخرى، ويناقش بعض التأويلات التاريخية. وتتيح المقارنة تحديد موضع الاتفاق والخلاف بين القراءات، مع وضوح نسبتها وأدلتها؛ وهي عناية أحفظها وأنا أكتب من مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

الرمز لا يبيح التعميم

إذا حملت الشجرة على جماعة تاريخية في تفسير معين، فلا ينتقل الحكم تلقائياً إلى كل من تشابه معها في نسب أو اسم في زمن آخر. ويجب أن تبقى المسؤولية الأخلاقية متصلة بأفعال الأشخاص وأدلتها، وألا تتحول قراءة التراث إلى اتهام بلا بينة.

مراتب العبارة عند عرض الخلاف

تختلف قوة الدعوى باختلاف صياغتها. فقولنا «فسر فلان الشجرة بكذا» ينسب رأياً إلى صاحبه، وقولنا «أجمع المفسرون» دعوى أوسع تحتاج إلى استقراء، وقولنا «يسمي القرآن الجماعة» لا يصح إذا لم يرد اسمها في الآية. وقد ينشأ الخلط من حذف كلمات النسبة عند اختصار النصوص، فتتحول نتيجة تفسيرية إلى عبارة توهم أنها لفظ التنزيل.

تحفظ نسبة الأقوال إلى أصحابها وضوح البحث وموضع الخلاف. ويستطيع القارئ بذلك مراجعة كل وجه من وجوه التفسير وأدلتها، دون أن يلتبس رأي المفسر بلفظ الآية. كما يبقى تطبيق الحكم على شخص بعينه محتاجاً إلى بينته، بحسب ما سبق بيانه.

إحالات الفصل: سورة الإسراء ٦٠؛ سورة الصافات ٦٢-٦٥؛ الميزان، تفسير سورة الإسراء ٦٠ [ت ٤]؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تفسير الآية نفسها [ت ٥].

الباب الخامس: النبات في روايات الطعام والطيب والتداوي

تصل الثمرة إلى المائدة، ويصل الريحان إلى اليد، فتدخل حكاية النبات في تفاصيل اليوم. وفي الأخبار المنقولة مشاهد لأكل وبذل وهدية وطيب، وأقوال في منافع تحتاج إلى فهم وتوثيق. سنقرأها بعبارتها وسياقها، ونستعين بما ثبت من تقويم أهل الاختصاص، حتى يبقى حضورها قريباً من حياة الناس ومعلوم المصدر للقارئ.

الفصل السابع والأربعون: الثمار والحبوب في روايات الطعام

خريطة الأبواب

يضم كتاب الأطعمة من الكافي أبواباً للخبز والأرز والعدس والتمر والعنب والرمان والتفاح والسفرجل والتين وغيرها. وتكشف هذه العناوين سعة حضور النبات في المائدة التي تتحدث عنها الروايات. غير أن وجود باب باسم طعام لا يعني أن كل ما جمع فيه صحيح السند أو عام الدلالة.

الثمر في النص

تختلف الأخبار: منها ما يصف فعلاً، ومنها ما يتضمن أدباً، ومنها ما ينسب منفعة صحية أو فضيلة. ومنهج القراءة أن نعرف أولاً ماذا يقول الخبر فعلاً. فشاهدة الإمام يأكل ثمرة ليست مساوية لأمر جميع الناس بأكلها، وذكر منفعة ليس بالضرورة وعداً مطلقاً لكل حال.

مثال العدس

يرد في باب العدس خبر في رقة القلب، ويرد فيه أيضاً إنكار لقول متداول يربط تقديسه بعدد كبير من الأنبياء. وتجاوز الخبرين يذكرنا بأن التراث نفسه يحفظ مادة للتثبت والنقد، وأن جمع الفضائل بلا تمييز قد يخفي اختلافاً حاضراً في المصدر.

حين نقرأ هذه الأبواب، نرى الطعام جزءاً من معاش الناس وعلاقاتهم، لا قائمة من العقاقير فقط. ويستطيع القارئ أن يحب الثمار والحبوب ويشكرها، مع احتفاظه بحرية التذوق ومراعاة حالته الصحية. والمقصد ألا تتحول المائدة إلى ميدان وعود علاجية لا تسندها الأدلة.

الفعل المروي والأمر العام

وأبدأ بطاقة القراءة بصيغة الخبر ومخاطبه وما يثبته سياقه، ثم أصل ذلك بموضعه وتقويم طريقه. بهذه الخطوات تنتظم المواد المختلفة، وتُقرأ آداب الطعام والمنافع المنسوبة على قدر ما يسندها.

إحالات الفصل: الكافي، ج ٦، فهرس كتاب الأطعمة؛ باب العدس، الأحاديث ١-٤ [ح ١١]؛ أبواب الزيت والعنب والرمان والتين [ح ٢-٥].

الفصل الثامن والأربعون: الخضروات والبقول وما يؤكل من النبات

البقل على المائدة

ينقل الكافي في باب البقول مشاهد للطعام تحضر فيها الخضرة، ومنها خبر حنان مع الإمام الصادق عليه السلام. وهذا حضور يمنح النبات اليومي مكانه في الرواية، لكنه لا يلغي ضرورة تقويم طريق الخبر وفهم لغة التشبيه التي قد ترد فيه.

معنى البقول

البقول في الاستعمال القديم قد يراد بها الخضرة، ولا تساوي دائماً مجموعة البقوليات بالمفهوم الغذائي الحديث. لذلك لا ننقل عبارة عن البقل إلى الحمص والعدس وحدهما، ولا نقرأ عنواناً تراثياً بمعنى اصطلاحى متأخر دون بيان.

أسماء تحتاج إلى ضبط

تضم المدونة أبواباً للهندباء والكراث والكرفس والكزبرة والرجلة والخس والسلق والقثاء والباذنجان والبصل والثوم. ومفتاح الاستفادة منها ضبط الاسم والجزء المستعمل وطريقة إعداده. فقد يتعلق الخبر بورق يؤكل، بينما ينصرف ذهن القارئ إلى بذرة أو مستخلص آخر.

تنوع يراعي الإنسان

تؤكد الإرشادات الغذائية الحديثة أهمية التنوع والتوازن وكفاية الغذاء وسلامته. وهذه مبادئ لا تستلزم أن يناسب كل نبات كل شخص، أو أن تصبح الحديقة مصدر غذاء مأموناً بمجرد كونها منزلية. فلاهتمام بالزراعة يكتمل بمعرفة ما نأكله وكيف نعهده.

الاسم والجزء وطريقة الاستعمال

قد يقول ناقل إن خبراً ورد في نبات معين، ثم يعرض صورة لجزء لم يكن هو موضوع الخبر. وينشأ الخطأ من الاكتفاء بالاسم العام وإغفال الورق أو الثمرة أو البذرة أو ما يصنع منها. ولهذا ينبغي أن تبدأ بطاقة القراءة بتحديد ما ورد فعلاً، ثم تتبع لغة المصدر قبل مطابقتها على منتج معاصر.

ويزداد الأمر أهمية حين تختلف الأسماء بين البلدان. فقد يطلق اسم شعبي واحد على أكثر من نبات، أو تتعدد أسماء النبات نفسه. لا يحل هذا الالتباس شكل صورة منفردة أو ترجمة آلية للكلمة؛ بل يحتاج إلى مصدر لغوي ونباتي مناسب. وفي حدود هذا الكتاب أعتمد الوصف العربي الواضح، وأصرح بالخلاف، وأمتنع عن إدراج مقابل علمي دقيق حيث لم تكتمل أدلة التعيين.

حنان على المائدة: للخضرة سياق

يذكر حنان أنه كان مع الإمام الصادق عليه السلام على المائدة، وأن الإمام مال إلى البقل، بينما امتنع حنان منه «لعله كانت بي». ثم يروي سؤاله عن حضور البقل على مائدة أمير المؤمنين عليه السلام، وفي جواب الخبر: «لأن قلوب المؤمنين خضرة وهي تحن إلى أشكالها».

يحفظ ذكر العلة اختلاف حال الراوي عن حال من يأكل معه، ويمنع حذف السياق عند تداول العبارة. والمقابلة بين خضرة القلوب وخضرة البقل صورة في لغة الموعظة؛ فلا تحمل على وصف تشريحي للعضو. وفيها مجال لتأمل صلة الطيب والجمال بما تستأنس به النفس.

والخبر مروى بطريق علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن حنان. ووصفه المجلسي في مرآة العقول بأنه «حسن أو موثق»، بينما وصف الحديث الأول من باب البقول بأنه «ضعيف» [ح ٢٣]. لم يسم النص مرض حنان ولا نوع البقل المعين؛ فيبقى المشهد خبراً عن مائدة وآدابها، ويظل تقرير الملاءمة الغذائية لشخص بعينه محتاجاً إلى معرفة حاله.

المصدر: الكافي، ج ٦، كتاب الأطعمة، باب البقول، الحديث ٢ [ح ١٠]؛ مرآة العقول، ج ٢٢، ص ٢٠٤ [ح ٢٣].

إحالات الفصل: الكافي، ج ٦، كتاب الأطعمة، باب البقول، الحديثان ١ و ٢، وفهرس أبواب الخضر [ح ١٠]؛ مرآة العقول، ج ٢٢، ص ٢٠٤ [ح ٢٣]؛ منظمة الصحة العالمية، النظم الغذائية الصحية، تحديث ٢٠٢٦ [ص ٣].

الفصل التاسع والأربعون: الأزهار والرياحين والنباتات العطرية

متعة لا تختزل في الأكل

قد تكون منفعة النبات لوناً يبهج أو رائحة تؤنس، لا ثمرة تؤكل. وهذا يوسع معنى العطاء؛ فالإنسان يحتاج إلى الجمال كما يحتاج إلى القوة. والحديقة التي تجمع بين النافع غذائياً والجميل في منظره تربي عيناً ترى أكثر من حساب المحصول.

الرياحين في الكافي

يفرد الكافي باباً للرياحين يضم أخباراً عن قبولها وشمها، ومنها مشهد وعاء الريحان في يد الإمام الصادق عليه السلام، الذي سيأتي بلفظه. وتختلف طرق أخبار الباب وتقويماتها، فلا يعطى الباب كله حكماً واحداً لمجرد اجتماع أخباره تحت عنوان واحد [ح ١٣، ح ١٩].

الورد والذكر

ورد في الحديث الخامس من الباب خبر أبي هاشم الجعفري مع أبي الحسن صاحب العسكر في وردة ناوله إياها صبي، وما اقترن بها من ذكر النبي وآله. وفي الطريق عبارة «عن بعض أصحابه»، وقد وصف المجلسي هذا الحديث بأنه «مرسل». فننسب الثواب المفصل إلى الخبر بصيغة النقل، ولا نجعل شهرة القصة وحدها إثباتاً لصحة جميع تفاصيلها [ح ١٣، ح ١٩].

عطر وحديقة وذاكرة

للروائح قدرة على استدعاء ذكريات البيوت والأحبة في التجربة الإنسانية اليومية. ومن هذا الباب أتحدث عن تعلقي بالخضرة وما تبعثه في نفسي من أنس، مع إدراكي أن الذاكرة الشخصية لا تكفي دليلاً طبيئاً. وما يسعد إنساناً من رائحة قد لا يلائم آخر؛ لذا يتصل حسن الذوق بمراعاة من يشاركنا المكان.

حديقة تربي الانتباه إلى الجمال

في الزهرة منفعة لا تنتظر الحصاد: لون وشكل ورائحة وتغير يلاحظه من يتوقف عندها. وقد يكون للغارس نصيب من هذا الجمال قبل أن تحمل شجرته ثمراً أو قبل أن ينجح طعم ينتظره. هكذا يتسع معنى العناية بالنبات إلى صحة يومية تعلم الصبر والانتباه، ولا تختزل في مقدار ما ينتجه من طعام.

ويظهر هذا الأثر في بعض أخبار الهدية والذكر. أُنقل منها إلى المشهد المقتضب الذي رواه يونس بن يعقوب عن وعاء الريحان، وأحفظ له ما ذكره الراوي من تفاصيل.

وعاء الريحان في يد الإمام

يروى يونس بن يعقوب مشهداً مقتضباً فيقول:

«دخلت على أبي عبد الله عليه السلام وفي يده مخضبة فيها ريحان».

المخضبة وعاء، وبمعرفة اللفظة تتضح هيئة المشهد. وقد اكتفى الراوي بذكر حضور الريحان، من غير تعيين نبات باسمه المعاصر أو وصف عدد الأزهار وألوانها أو نقل كلام للإمام في تلك اللحظة؛ وهذا الإيجاز نفسه يحفظ قرب الخبر من الحياة اليومية.

ويمر الطريق بأحمد بن أبي عبد الله والحسن بن علي بن يقطين إلى يونس بن يعقوب. وقد وصف المجلسي الحديث الرابع في مرآة العقول بأنه «موثق». أما أحاديث الباب الأول والثاني والثالث فذكر لها، بالترتيب: «مرفوع»، و«صحيح»، و«مرفوع»؛ ووصف الخامس بأنه «مرسل». أنقل هذه الأوصاف عنه على تعيين الأحاديث، مع الفصل بين تقويم الطريق وفهم الدلالة. ولا يحمل مشهد الوعاء في الحديث الرابع وحده دعوى علاجية أو ثواباً معيناً.

[المصدر: الكافي، ج ٦، باب الرياحين، الحديث ٤، ص ٥٢٥ في العرض الرقي المقابل للمرجع \[ح ١٣\].](#)

[مصدر تقويم أحاديث الباب: مرآة العقول، ج ٢٢، باب الرياحين، ص ٤٣٥ \[ح ١٩\].](#)

إحالات الفصل: الكافي، ج ٦، كتاب الزي والتجمل والمروءة، باب الرياحين، ولا سيما الحديثان ٤ و ٥ [ح ١٣]؛ مرآة العقول، ج ٢٢، ص ٤٣٥ [ح ١٩].

الفصل الخمسون: الأعشاب والتداوي – بين الرواية والدليل

ثلاثة أسئلة مختلفة

يسأل الباحث: هل ثبت الخبر؟ وما المراد منه؟ وهل ثبتت المنفعة الطبية بالطريقة المناسبة؟ وهذه أسئلة تتعاون ولا تتطابق. فقد تثبت نسبة نص ثم يحتاج فهمه إلى تخصيص، وقد تظهر منفعة في بحث طبي دون أن تثبت بذلك صحة كل خبر قديم يحمل المعنى نفسه.

النبات ليس مستحضراً واحداً

اسم النبات لا يكفي لتحديد ما تناوله المريض؛ فالجزء المستعمل والتركيز وطريقة التحضير تدخل في تعريف المادة. ولهذا لا تساوي ثمرة تؤكل مستخلصاً مركزاً منها. وينبه المركز الوطني الأمريكي للصحة التكميلية والتكاملية إلى أن الوصف بالطبيعي لا يضمن السلامة أو الأفضلية.

التداخل مع الأدوية

قد تتداخل بعض المستحضرات العشبية مع الأدوية، لكن قوة الدليل تختلف بين حالة وأخرى. وتوضح المراجعة الرسمية أن بعض المخاوف قائم على بيانات محدودة، بينما توجد تداخلات موثقة. ومن ثم لا نعمم الاطمئنان ولا الخوف، بل نرجع إلى دليل المنتج والحالة.

مسؤولية الباحث الوقائي

تجعلني دراستي لصحة المجتمع أكثر حرصاً على أن تصل المعرفة إلى الناس دون مبالغة. وليس في هذا الكتاب توجيه لترك علاج موصوف أو لتجربة خلطة مجهولة. وحين يحتاج القارئ إلى علاج، تكون مراجعة الطبيب أو الصيدلي مع بيان ما يستعمله من مكملات خطوة عملية لفهم حالته.

ما الذي تثبته دراسة على مستحضر معين؟

إذا اختبر بحث مستحضراً محدداً، فلا تنتقل نتيجته تلقائياً إلى كل عبوة تحمل اسم النبات. فقد يختلف المنتج المتداول عن الذي دُرِس، وتختلف مكوناته أو طريقة استعماله. وينبه المصدر الصحي الرسمي إلى هذا الفرق بين منتجات السوق والمستحضرات المستخدمة في الدراسات. [ص ٤]

ومن هنا يبدأ سؤال الباحث قبل إعلان الفائدة: ما المادة التي اختبرت، وعلى من، وبأي صورة، وما النتيجة التي قيسَتْ؟ لا يكفي أن تتحسن علامة محدودة كي نعلن شفاء مرض كامل، ولا أن يذكر شخص تجربة نافعة كي نعممها على الجميع. والمقارنة المنصفة تذكر حدود النتيجة مع نتائجها. هذا الانضباط يخدم الوقاية ويصون ثقة القارئ، لأنه يسمح بقبول ما ثبت بقدره، وبإبقاء ما لم يثبت في مجال البحث.

إحالات الفصل: المركز الوطني للصحة التكميلية والتكاملية، «الطبيعي لا يعني بالضرورة أكثر أماناً أو أفضل» [ص ١]؛ «تداخل الأعشاب والأدوية»، إصدار كانون الأول ٢٠٢٤ [ص ٢].

الفصل الحادي والخمسون: النباتات الضارة والسّموم والمواد المؤثرة

جمال لا يكفي للحكم

قد يجذبنا لون ثمرة أو شكل ورقة، لكن الاستحسان ليس وسيلة لتحديد صلاحيتها للأكل. وتبدأ المعرفة من التعرف الموثوق إلى النبات، لا من الشبه بصورة عابرة. وهذا الفصل لا يقدم دليل جمع للنباتات البرية ولا وصفات لتجربة مجهولها.

معنى الضرر

لا تختصر السلامة في تقسيم بسيط إلى طبيعي وصناعي. فالنبات يضم مركبات، وقد تختلف آثارها باختلاف المقدار والصورة والاستعمال. ويورد المصدر الصحي الرسمي مثال السموم الطبيعية ليبين أن منشأ المادة لا يحسم مأمونيتها.

المادة والمنتج

قد تتغير طبيعة التعرض للمادة حين تركز أو تدخل في مستحضر أو تستخدم بطريقة لم تكن مألوفة في الطعام. ولذلك لا يصح الاستناد إلى استعمال غذائي محدود لتسويق استعمال آخر بلا دراسة، ولا إلى اسم تراثي عام لتحديد محتوى عبوة حديثة.

حفظ العقل والنفس

تثير المواد المؤثرة في الإدراك أسئلة صحية وأخلاقية وفقهية تتعلق بالضرر وبطبيعة الاستعمال. ولا يحسم هذا الكتاب أحكام منتجات أو علاجات خاصة من اسم النبات وحده. مقصده أن يصحب الانتفاع وعي، وألا يصبح الوله بالطبيعة سبباً في التساهل مع أذى الإنسان.

التعرف الموثوق يسبق تجربة المجهول

يبدأ التحقق بتعيين العينة نفسها، ثم بتحديد الجزء والصورة اللذين سيستعملان منها. وتصل هذه الخطوات بين وصف النبات والسؤال عن سلامته، وتوضح لماذا لا يكفي الاسم الشعبي أو التشابه في المظهر للحكم على مادة بعينها.

وتذكر الإرشادات الرسمية أن بعض المكملات قد تتداخل مع الأدوية أو تثير مخاطر لدى أصحاب حالات صحية معينة. [ص ٤] لذلك يفيد وصف ما يستعمله الشخص بدقة عند مناقشة حالته مع المختص. ويكمل هذا الفصل مبحث التداوي السابق، فيجعل محبة النبات مقترنة بمعرفة هويته وحدود الانتفاع به.

إحالات الفصل: المصدران الصحيان [ص ١، ص ٢] في حدود السلامة العامة. ولم تدرج جرعات أو طرق إعداد لمواد سامة أو مؤثرة.

الفصل الثاني والخمسون: الأخبار العجيبة والمنافع المنسوبة

حين تتسع الحكاية

قد تبدأ الحكاية بنص موجز، ثم تلتحق بها أعداد وعود وتفسيرات حتى يصعب معرفة أصلها. ومهمة الباحث أن يعيدها إلى أقدم موضع استطاع التحقق منه، وأن يفرق بين ألفاظ المصدر وما أضافه الناقل أو الواعظ.

مثال فواكه الجنة

يورد باب الفواكه في الكافي خبرين مختلفين في العدد والعبارة. ولمنع الخلط بينهما تعرض المقارنة الآتية لفظ كل خبر وموضعه وتقويم المجلسي له. ولا يستخرج من هذين الخبرين تاريخ علمي لنشأة المحاصيل أو انتقالها، كما لا تختزل أسماء الأصناف القديمة في مقابلات زراعية معاصرة لم تحقق [ح ١٢، ح ٢٠].

الأعداد والتعميم

إذا نُسب إلى نبات شفاء أمراض كثيرة أو ثواب بعدد هائل، احتاجت النسبة والدلالة إلى فحص، لا إلى إعادة نشر آية. وقد رأينا في باب العدس نفسه خبراً يعترض على عدد متداول من الأنبياء، وهو تذكير عملي بأن شهرة العبارة لا تحسم صحتها.

سجل مفتوح للتحقيق

يحفظ الملحق السابع أمثلة لما بقي محتاجاً إلى دراسة، بدل أن يسقطها بصمت أو يثبتها بيقين مصطنع. وبهذا يعرف القارئ حدود النسخة، ويستطيع الباحث اللاحق أن يكمل التحقيق من نقطة واضحة.

كيف تتضخم العبارة في أثناء تداولها؟

قد يرد في المصدر خبر مقيد، ثم يسقط القيد في التلخيص، وتضاف إليه منفعة من خبر آخر، ثم تنشر الصيغة المركبة تحت عنوان مثير. وبعد تكرارها يصعب على القارئ أن يميز أصل النص من صناعة التداول. لذلك لا يكفي العثور على العبارة نفسها في مواقع كثيرة؛ إذ قد تكون المواقع كلها قد نقلت خطأ واحداً.

والعمل التحقيقي يعيد فصل الطبقات: لفظ المصدر، وشرح المصنف، وتعليق المحرر، واستنتاج الناقل الحديث. ثم يسأل عن طريق الخبر ومعناه دون أن يجعل قوة الأثر العاطفي بديلاً من الدليل. هذه الطريقة لا تسعى إلى إفقار الحكاية، بل إلى حفظها من زيادات تنسب إلى مقام ديني بلا تثبت. وتظل العبارة الآمنة، ولو كانت أقل إثارة، أصلح لبناء معرفة يستطيع القارئ مراجعتها.

خمسة في خبر وأربعة في آخر

يرد في الحديث الأول، عن أبي عبد الله عليه السلام:

«خمس من فواكه الجنة في الدنيا: الرمان الأمليسي، والتفاح الشيسقان والسفرجل والعنب الرازي والرطب المشان».

وفي الحديث الثاني، عن أبي جعفر عليه السلام:

«أربعة نزلت من الجنة: العنب الرازي والرطب المشان والرمان الأمليسي والتفاح الشيسقان».

ينفرد النص الأول هنا بذكر السفرجل، ويختلف التعبير بين «من فواكه الجنة في الدنيا» و«نزلت من الجنة». لذلك لا ننشئ من الخبرين عبارة ثلاثة تقول إن خمسة أصناف نزلت، ثم ننسبها إلى أحدهما. وقد أوردت الأسماء بحسب نسخة الكافي المقابلة؛ وتبقى اختلافات ضبطها بين النسخ والاستعمالات موضوعاً مستقلاً.

وفي طريق الخبر الأول عبارة «عمن حدثه»، وهي واسطة غير مسماة. وعند الرجوع إلى مرآة العقول وجدت تقويم المجلسي للأول: «مجهول مرسل»، وللثاني: «ضعيف». وبذلك صار في هذا الموضع نص محدد وحكم منقول عن شارح معين؛ ولا يلزم من نقل حكمه ادعاء استقصاء جميع الطرق أو اتفاق الباحثين عليه.

[المتن الأول وبداية الثاني: الكافي، ج ٦، أبواب الفواكه، ص ٣٤٩ \[ح ١٢\].](#)

[تمة المتن الثاني: الكافي، ج ٦، ص ٣٥٠ \[ح ١٢\].](#)

[التقويم المنقول: مرآة العقول، ج ٢٢، أبواب الفواكه، ص ١٨٧ \[ح ٢٠\].](#)

يورد الكليني في باب العدس خبر محمد بن الفيض أنه أكل عند الإمام الصادق عليه السلام مرقعة بعدس، ثم ذكر له قولاً يتداوله قوم عن تقديس ثمانين نبياً للعدس. وجاء في جواب الخبر:

«كذبوا لا والله ولا عشرون نبياً».

تجعل هذه المحاورة نفس القول الشائع موضوعاً للسؤال والمراجعة. فلا تكفي كثرة التداول لإثبات عدد منسوب إلى الأنبياء. وقد وصف المجلسي الحديث الرابع بقوله «مجهول وآخره مرسل» في مرآة العقول، ج ٢٢، ص ١٧٨ [ح ٢٤]. تُقرأ الفائدة المنهجية المستخرجة من بناء الحوار مع هذا التقويم المصريح به، فلا يصبح الخبر مقطوع النسبة لمجرد موافقته للخطر من المبالغة.

وبعد المحاورة ترد في المصدر عبارة تبدأ بـ«وروي» عن رقة القلب وسرعة الدمعة. وهي صيغة نقل أخرى في الصفحة، فلا نصلها بالحوار وكأن محمد بن الفيض نقلها في كلامه نفسه. ومن هنا تظهر قيمة علامات الفصل وألفاظ الأداء في حفظ حدود النص، حتى قبل البدء في الحكم على الأسانيد.

المصدر: الكافي، ج ٦، كتاب الأطعمة، باب العدس، الحديث ٤ وما أعقبه من صيغة نقل [ح ١١]، مرآة العقول، ج ٢٢، ص ١٧٨ [ح ٢٤].

إحالات الفصل: الكافي، ج ٦، كتاب الأطعمة، أبواب الفواكه، الحديثان ١ و ٢، ص ٣٤٩-٣٥٠ [ح ١٢]؛ باب العدس، الحديث ٤ [ح ١١]؛ مرآة العقول، ج ٢٢، ص ١٨٧ و ص ١٧٨ [ح ٢٠، ح ٢٤].

الباب السادس: الزراعة في حياة الإنسان وعبادته وأخلاقه

وراء كل مائدة حكاية عمل: أرض هيئت، وماء وصل، وغرس تعهدته يد، وحصاد انتظرتة أسرة. ومع هذا العمل تنشأ حقوق وعلاقات وأسئلة عن العدل وحسن الانتفاع. ثمضي في هذا الباب من الغرس إلى الحصاد، ومن ملكية المورد إلى حق العامل والجار والمحتاج، ثم إلى حضور النبات في العبادة والبيت، لنرى أثر المعرفة في التصرف اليومي.

الفصل الثالث والخمسون: الزراعة – العمل والرزق

يد لا تخجل من التراب

قد يبتعد الإنسان عن مصدر طعامه حتى ينسى ما بذل فيه من جهد. وتعيده أخبار العمل الزراعي إلى حقيقة بسيطة: وراء المائدة أيد تعمل. ومن هذا الوجه تكون دراسة النبات دراسة لكرامة الإنسان العامل أيضاً.

ازرعوا واغرسوا

يرد في الكافي، في جواب سؤال عن كراهة الزراعة، الحث على الزرع والغرس ووصف العمل بالحل والطيب. ويأتي في هذا الفصل نص الخبر وطريقه وتقويم المجلسي المنقول له، حتى تكون الإحالة إلى متن معين معلوم الموضع.

الرزق والمسؤولية

طلب الرزق بالزراعة لا يعني صاحبه من الصديق في البيع، ولا من الوفاء بحق العامل، ولا من حفظ حقوق الماء والأرض. فصلاح عنوان المهنة لا يجعل كل ممارسة داخلها صالحة. وقد يكون التفريط في هذه الحقوق أشد أثراً من خسارة موسم.

قد يزرع الإنسان طلباً للمعاش، وقد يزرع في مساحة صغيرة حباً بالخضرة. أما الزراعة في تجربتي فهي شغف رافق دراساتي وعملي، وفتح لي باباً إلى التعلم من الأرض ومن خبرة الفلاحين. وكلها تابعت غرساً يشتر وينمو ازددت تقديراً للصبر والجهد اللذين يحتاج إليهما.

كرامة العمل وما يحيط بها من حقوق

حين نرى الحصاد في سوق مرتب قد تختفي عنا سلسلة التعب التي سبقته: تهيئة الأرض، ومتابعة الماء، وانتظار الموسم، وتحمل ما لا يملكه الزارع من تقلبات. وإعادة هذه السلسلة إلى الوعي تغير طريقة النظر إلى الفلاح؛ فيصبح شريكاً في استمرار الحياة، لا مجرد اسم بعيد في أصل السلعة. ويكتمل تقدير العامل بالعدل في معاملته، والوفاء بالاتفاق معه، واحترام وقته وظروف عمله. ومن هذا الوجه تلتقي قراءة السيرة بواقع المزرعة؛ فما يصل إلى المائدة يحمل أثر عناية ينبغي أن يقابلها الاعتراف بالفضل وأداء الحقوق.

متن الحث على الغرس وتقويم المجلسي

في جواب من سأل عن قول قوم بكراهة الزراعة، يروي الكليني عن الإمام الصادق عليه السلام: «ازرعوا واغرسوا فلا والله ما عمل الناس عملاً أحل ولا أطيب منه والله ليزرعن الزرع وليغرسن النخل بعد خروج الدجال».

هذا هو موضع الحث الذي استند إليه العرض، وفي آخره استمرار ذكر الزرع والغرس في مشهد مستقبلي. ويمر الطريق بمحمد بن يحيى، وأحمد بن محمد بن عيسى، ومحمد بن خالد، وسيابة. وقد وصف المجلسي الحديث الثالث من باب فضل الزراعة في مرآة العقول بأنه «مجهول». أنسب هذا التقويم إلى صاحبه وإلى الخبر المعين، دون دعوى أنه إجماع أو أنه حكم مستقل أنجزته.

يفيد عرض المتن والتقويم معاً في قراءة أمينة: يعرف القارئ العبارة المستشهد بها وموضعها، ويعرف أن سلامة المعنى العام في نظره ليست بديلاً من بحث الإسناد. وأما ما يستلهمه الفصل من احترام العامل وحفظ الحقوق فيبين بوصفه قراءة أخلاقية، مع الرجوع في الأحكام التفصيلية إلى أدلتها.

مصدر المتن: الكافي، ج ٥، كتاب المعيشة، باب فضل الزراعة، الحديث ٣ [ح ١].

مصدر التقويم: المحلّسي، مرآة العقول، ج ١٩، ص ٣٣١، شرح الحديث الثالث من باب فضل الزراعة

[ح ١٧].

إحالات الفصل: الكافي، ج ٥، كتاب المعيشة، باب فضل الزراعة، الحديث ٣ [ح ١]؛ باب الاقتداء بالأئمة في التعرض للرزق [ح ٦].

الفصل الرابع والخمسون: الغرس وإحياء الأرض

بداية صغيرة

قد يبدأ الإصلاح بإزالة عائق عن مورد ماء، أو تهيئة أرض صالحة للغرس، أو رعاية شتلة. وليس كل إصلاح مشروعاً ضخماً. المهم أن نفهم حاجة المكان، وأن يستمر الاهتمام بعد يوم الغرس والصورة الاحتفالية.

الإحياء مصطلح فقهي

إحياء الموات له معنى وأحكام في الفقه، ولا يساوي مجرد زراعة أي أرض تبدو خالية. يميز منهاج الصالحين بين أحوال الأرض والحقوق السابقة، وينص على أن الغابات الكثيفة ليست من الموات، كما يذكر موانع تتصل بحق الغير والمصلحة العامة.

المعرفة قبل الامتلاك

ينبغي لمن يريد الانتفاع بالأرض أن يعرف وضعها وحقوقها والأنظمة السارية عليها، وألا يجعل الحث على الغرس ذريعة للاستيلاء. فما يحبي نباتاً قد يعتدي على حق إنسان إن وقع بغير وجه مشروع.

بقاء النفع

العبرة ليست بعدد الشتلات يوم الزراعة وحده، بل بقدرتها على البقاء وبما تقدمه للمكان. ومن ثم يدخل في حسن الغرس اختيار ما يلائم الموقع، وتوفير الرعاية، ومراجعة الأثر في الجوار. وهذه مبادئ عملية عامة، لا خطة زراعية لمناخ بعينه.

ما بعد يوم الغرس

ويعين سجل الملاحظة والرعاية على معرفة ما بقي من الغرس، وما احتاج إلى تعديل، وما ظهر أنه غير ملائم للمكان. فمن هذه المتابعة يتعلم الغارس كيف يحسن عمله في الموسم التالي.

وفي المعنى الأخلاقي للإحياء يحسن ألا ننظر إلى الأرض الخالية من المحصول التجاري كأنها خالية من كل حياة أو حق. فقد يكون فيها استعمال أو وظيفة لا تظهر للناظر العابر. لذلك تأتي معرفة المكان قبل تغييره، ويأتي التحقق من الحقوق قبل دعوى امتلاكه. بهذه القراءة يصبح الحث على الغرس باعثاً على الإصلاح المدروس، لا استعجالاً يبدل صورة الأرض ثم يترك تبعاتها للآخرين.

إحالات الفصل: الكافي، ج ٥، باب في إحياء أرض الموات [ح ١٥]؛ السيد السيستاني، منهاج الصالحين، ج ٢، كتاب إحياء الموات [ف ٧].

الفصل الخامس والخمسون: الأرض والماء والمحصول – الحقوق والعقود

أكثر من طرف

قد تكون الأرض لشخص، والبذور لآخر، والعمل لثالث، والماء مشتركاً بين جماعة. فإذا غابت الحدود نشأ النزاع، ولو كان الجميع قد بدأ بحسن نية. ولهذا لا تنفصل الزراعة عن لغة العقود والحقوق.

المزراعة والمساقاة

يعرض الفقه المزراعة بوصفها علاقة تتصل بزراعة الأرض واقتسام الحاصل وفق شروطها، ويبحث المساقاة في العمل المتعلق بالأصول والحاصل. وتتضمن الأبواب الفقهية ضبط الحصص والمدة والأعمال والمسؤوليات. وهذا عرض للموضوع، لا نموذج عقد يكفي توقيعه دون مراجعة.

الماء مورد مشترك

تضم الروايات باباً في بيع الماء ومنع فضوله، وتفصل كتب الفقه الحقوق المتعلقة بالأنهار والعيون ومرافقها. ويذكرنا ذلك بأن وصول الماء إلى مزرعة لا يحو حاجات من يقع بعدها، وأن تديره يحتاج إلى معرفة بالحق وبحقيقة المورد.

الوضوح يحفظ المودة

من المفيد تدوين ما اتفق عليه الأطراف بلغة يفهمونها، وتحديد من يتحمل النفقات وكيف تعالج الخسارة. غير أن صحة الشروط وتوافقها مع النظام المحلي والمرجع الفقهي أمر يحتاج إلى مختص. فالكاتب يفتح السؤال ويبين أهميته، ولا يقوم مقام التوثيق المهني.

الاتفاق الواضح قبل انتظار المحصول

يمكن أن تبدأ علاقة زراعية على تفاهم شفهي واسع، ثم تظهر عند أول خسارة أسئلة لم يتنبه إليها أصحابها: ما العمل المقصود، ومن يتخذ القرار، وكيف تثبت النفقات، وما الذي اتفق عليه فعلاً؟ إن ظهور هذه الأسئلة لا يعني بالضرورة سوء نية، فقد يكون سببه أن كل طرف فهم العبارة العامة على وجه مختلف.

ولهذا يحفظ الوضعُ التفاهمَ عند تغير الأحوال؛ إذ يستطيع كل طرف الرجوع إلى ما اتفق عليه بدل إعادة تأويل عبارة عامة عند الخلاف. وتبقى أحكام كل عقد مرتبطة بشروطه ونظامه.

إحالات الفصل: منهاج الصالحين، ج ٢، كتاب المزارعة [ف٤] وكتاب المساقاة [ف٥]؛ الكافي، ج ٥، باب بيع الماء ومنع فضوله [ح ١٤].

الفصل السادس والخمسون: يوم الحصاد

ثلاثة أفعال عند الثمرة والحصاد

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾

القرآن الكريم، سورة الأنعام، الآية ١٤١.

بعد تنوع الجنات والزروع تتوجه الأوامر إلى فعل الإنسان: الأكل، وإيتاء الحق، واجتناب الإسراف. وبذلك يجمع يوم الثمر بين الانتفاع والمسؤولية وضبط السلوك. ولا تنحصر صورة الحصاد في مقدار ما يدخل مخزن المالك؛ ففيه سؤال عما يجب أدائه وكيف تستعمل النعمة. ولتفاصيل الحق الواجب وشروطه ومقاديره بحثها الفقهي الذي يحال إليه في موضعه. أما هذا المشهد فيمنح الفصل وحدته الأخلاقية: فرح بالرزق يصحبه أداء واعتدال.

فرح يلتفت إلى الآخرين

يوم الحصاد خاتمة جهد وبداية توزيع. وتجمع آية سورة الأنعام بين الأكل من الثمر وإيتاء حقه يوم حصاده والنهي عن الإسراف. فلا يضيع الفرح، لكنه يجد حدوده في الحق وفي الاعتدال.

حق لا تختزله لفظة عابرة

سورة القلم، الآيات ١٧-٣٣.

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ ﴿١٧﴾

﴿وَلَا يَسْتَنْوُونَ﴾ ﴿١٨﴾

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ ﴿١٩﴾

﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ ﴿٢٠﴾

﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾ ﴿٢١﴾

﴿أَنْ اٰغْدُوْا عَلٰٓى حَرْثِكُمْ اِنْ كُنْتُمْ صٰرِمِيْنَ﴾ ﴿٢٢﴾

﴿فَانْطَلَقُوْا وَهُمْ يَتَخَفَتُوْنَ﴾ ﴿٢٣﴾

﴿اَنْ لَا يَدْخُلْنٰهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَّسْكِيْنَ﴾ ﴿٢٤﴾

﴿وَعَدُوْا عَلٰٓى حَرَدٍ قٰدِرِيْنَ﴾ ﴿٢٥﴾

﴿فَلَمَّا رَاَوْهَا قَالُوْا اِنَّا لَصٰلُوْنَ﴾ ﴿٢٦﴾

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُوْمُوْنَ﴾ ﴿٢٧﴾

﴿قَالَ اَوْسَطُهُمْ اَلَمْ اَقُلْ لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُوْنَ﴾ ﴿٢٨﴾

﴿قَالُوْا سُبْحٰنَ رَبِّنَا اِنَّا كُنَّا ظٰلِمِيْنَ﴾ ﴿٢٩﴾

﴿فَاقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلٰٓى بَعْضٍ يَتَلَوْمُوْنَ﴾ ﴿٣٠﴾

﴿قَالُوْا يَا وَيْلَنَا اِنَّا كُنَّا طٰغِيْنَ﴾ ﴿٣١﴾

﴿عَسٰٓى رَبُّنَا اَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا اِنَّا اِلٰٓى رَبِّنَا رٰغِبُوْنَ﴾ ﴿٣٢﴾

﴿كَذٰلِكَ الْعَذَابُ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ اَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوْا يَعْلَمُوْنَ﴾ ﴿٣٣﴾

أراد أصحاب الجنة أن يحصدوا ثمرهم صباحاً، واتفقوا سراً على إبعاد المساكين، لكن الجنة أصابها الطائف ليلاً قبل خروجهم. وحين رأوا ما حدث انتقلوا من الظن بأنهم أخطؤوا الطريق إلى الاعتراف بالحرمان والظلم، ثم لام بعضهم بعضاً ورجوا رحمة ربهم.

أستحضر القصة هنا لأن وفرة المحصول لم تمنع فساد النية عند توزيعه؛ فالامتحان ظهر فيمن يسمحون له بالوصول إلى الخير. أما مقادير الحقوق المالية وأحكام وجوبها فتحتاج إلى أدلتها الفقهية، ولا تُستخرج تفصيلها من القصة وحدها.

وتبقى الزكاة الواجبة وشروطها ومقاديرها متميزة من الصدقة والمواساة، ويُرجع في تفصيلها إلى كتب الفقه. ففرقة الحق المحدد تسبق الحكم بأن هدية رمزية أدته، كما تسبق تعميم حكم محصول على جميع ثمار الحدائق.

ما يسبق التوزيع

قبل وصول الطعام إلى مستحقه تأتي أعمال الجمع والفرز والحفظ والنقل. ويمكن أن يهدر الجهد إذا أسيء تدبير هذه المراحل. والوعي الأخلاقي لا يقتصر على نية العطاء، بل يشمل أن يصل غذاء صالح في وقت ينتفع به صاحبه.

أثر المشاركة

حين يهدي الإنسان من ثمر غرسه، فإنه يشارك الآخرين شيئاً من وقته وعنايته. وهذه قيمة لا يقيسها سعر الثمرة وحده. وقد تصير الهدية الزراعية الصغيرة باباً للمودة بين جيران تختلف لغاتهم وأصولهم.

الثمرة بين يد المنتج ويد المحتاج

قد تكون نية العطاء حاضرة، ثم يصل الطعام في وقت لا ينتفع به صاحبه أو في صورة لا تحفظ كرامته. ولهذا يحتاج توزيع الثمر إلى معرفة بالحاجة وبطريقة الوصول، لا إلى مجرد التخلص من الفائض. ومن حسن العطاء أن ينظر المعطي إلى نفسه بوصفه مشاركاً في نعمة، لا صاحب فضل يحق له أن يتبع هديته بالأذى. ويجمع يوم الحصاد فرحين: فرح من رأى نتيجة عمله، وفرح من ناله نصيب من الخير. ومع صيانة الحقوق وحسن التوزيع يتسع أثر المزرعة إلى من حولها. ومن هذا المعنى نقرأ الخبر التالي، الذي يصل الزرع بالإصلاح وأداء الحق.

زرع يصلحه صاحبه ويؤدي حقه

في خبر يرويه الإمام الصادق عليه السلام عن سؤال النبي صلى الله عليه وآله عن خير المال، يأتي هذا المقتطف من الجواب:

«الزرع زرعه صاحبه وأصلحه وأدى حقه يوم حصاده».

تتوالى في العبارة أعمال صاحب الزرع: يزرع، ويصلح، ويؤدي. فيدخل حسن التعهد وأداء الحق في الصورة التي يقدمها الخبر عن المال. والربط بين هذه الأفعال مفيد لفهم الحصاد نهايةً لمرحلة من المسؤولية وبدايةً لمرحلة أخرى؛ فبعد الرعاية والتعب يأتي اختبار التصرف في الثمرة.

ورد المقتطف في الحديث السادس من باب فضل الزراعة، ضمن جواب أطول يتناول صوراً أخرى للمال، وبطريق علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن النوفلي، عن السكوني. أوردت هذا المقتطف مع بيان أنه جزء من الحديث. أما تحديد الحق المذكور ومقداره في واقعة معينة فيحتاج إلى جمع الأدلة الفقهية وشروطها.

وفي مرآة العقول، ج ١٩، ص ٣٣٢، وصف المجلسي الحديث السادس بأنه «ضعيف على المشهور وآخره مرسل» [ح ٢٧]. وتظهر في تمة الموضع، ص ٣٣٤، رواية أخرى مصدرة بصيغة «وروي»، بعد انقضاء الجواب الطويل. أحفظ هذا التفصيل عند عرض الخبر، فلا أسوي بين أجزاء النقل في صيغ الإسناد، ولا أكتفي بالمقتطف للحكم على الحديث كله.

المصدر: الكافي، ج ٥، كتاب المعيشة، باب فضل الزراعة، الحديث ٦ [ح ١].

إحالات الفصل: سورة الأنعام ١٤١؛ سورة القلم ١٧-٣٣؛ منهاج الصالحين، ج ١، أحكام زكاة الغلات [ف ٦].

الفصل السابع والخمسون: النبات في العبادة والطهارة والتجهيز

مادة تدخل في الحكم

يحضر النبات في أبواب العبادة بأشكال متعددة، من موضع السجود إلى تجهيز الميت. ولا يعني ذلك أن كل استعمال نباتي عبادة، بل إن بعض المواد تقع موضوعاً لحكم مخصوص له شروطه.

السجود

يبين السيد السيستاني أن موضع الجبهة يكون من الأرض أو مما أنبتته مما لا يؤكل ولا يلبس، مع التفاصيل والاستثناءات في محلها. ويورد الخشب والأوراق غير المأكولة ضمن الأمثلة. فالمرجع في التطبيق هو وصف المادة والحكم، لا لونها أو تسميتها التجارية وحدهما.

السدر والكافور والجريدتان

يذكر باب تغسيل الميت السدر والكافور ضمن ترتيب الأغسال، وتذكر أحكام الجريدتين استحباب وضع عودين رطبين معه، مع تفصيل الأنواع والكيفية. ويعرض هذا الفصل الصلة بالنبات فقط؛ أما التنفيذ فيرجع فيه إلى الأحكام الكاملة وإلى من يحسن التجهيز.

السواك والحناء والطيب

تمتد صلة النبات بالنظافة والزينة إلى السواك والحناء والروائح. ولا نسند لكل عادة حكماً شرعياً لمجرد قدمها، ولا نجعل كل منتج حديث مساوياً للمادة التي وردت في الخبر. ففهم الحكم يبدأ بتحديد موضوعه، ثم التحقق من دليله.

تحديد المادة قبل تطبيق الحكم

تلتقي المعرفة النباتية بالفقه حين يحتاج الحكم إلى معرفة المادة التي يتناولها. فقد يكون السؤال عن نبات يؤكل، أو ليف يدخل في لباس، أو خشب، أو مادة مركبة لا يكشف اسمها التجاري حقيقتها. ولهذا لا يغني حفظ العبارة الفقهية عن التحقق من موضوعها في الحالة المراد تطبيقها.

وعندما يتغير المنتج بالصناعة أو يختلط بغيره، يبدأ البحث بوصف مكوناته، ثم بمعرفة حكمه لدى المرجع المختار. يساعد ترتيب الخطوتين على وصل المعلومة النباتية بالسؤال الفقهي، وتبقى تفاصيل العمل مرتبطة بالنص الكامل للحكم.

إحالات الفصل: الفتاوى الميسرة، السجود [ف ١]؛ المسائل المنتخبة، كيفية تغسيل الميت [ف ٢]؛ منهاج الصالحين، الجريدتان [ف ٣]. وهذه الإحالات وفق المصادر المذكورة، ولا تدعي توحيد تفاصيل فتاوى جميع المراجع.

الفصل الثامن والخمسون: النبات في السكن واللباس والصناعة

ما وراء المائدة

تدخل المواد النباتية في حياة الإنسان بغير الأكل: خشب وألياف وأوراق وزيت وروائح. وحين نقرأ حكاية النبات من هذا الباب، نرى أن أثره يسكن البيت ويلامس اليد ويصحب الكتابة والعمل.

ألياف تكسو الإنسان

يظهر القطن والكتان مثالين معروفين لمادتين نباتيتين تدخلان في اللباس. وتذكرهما الكتب الفقهية عند بيان الملبوس من النبات. أما تاريخ صناعتها وخصائص كل نسيج فبحث صناعي مستقل، لا يستنتج من الإشارة الفقهية وحدها.

النار والوقود

سورة يس، الآية ٨٠.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ ﴿٨٠﴾

يذكر الإنسان بأن النار التي يوقدها أخرجت له من الشجر الأخضر. وفي سياق القدرة على الإحياء، يعيد هذا المثال النظر من أداة مألوفة إلى أصل خلقها، ومن استعمال النعمة إلى الاعتراف بواهبها.

سورة الواقعة، الآيات ٧١-٧٣.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ ﴿٧١﴾

﴿الَّتِي أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ ﴿٧٢﴾

﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَنَمَاعًا لِلْمُقِيمِينَ﴾ ﴿٧٣﴾

يسأل الخطاب عن النار التي يوربها الناس وعن شجرتها، ثم يبين كونها تذكرة ومنفعة. فيحضر النبات هنا مورداً للطاقة والانتفاع، ويصاحب المنفعة معنى يوقظ الشكر ولا يترك الاستعمال اليومي منفصلاً عن التأمل.

تمتد منفعة الوقود النباتي إلى الطهو والتدفئة والصناعة، ويصحب الانتفاع به سؤال حفظ المورد وأثر استعماله في حياة الآخرين. وبذلك تتصل معرفة المادة بالطريقة التي نستهلكها بها.

دورة الشيء

قد ننظر إلى الطاولة أو الورقة فننسى أصلها النباتي، ثم نرميها كأنها بلا تاريخ. وإعادة الانتباه إلى هذا الأصل قد تحسن استعمالنا للأشياء وصيانتها. وهي دعوة إلى المسؤولية في الاستهلاك، لا حكم بأن كل مادة نباتية مستدامة في جميع ظروف إنتاجها.

ذاكرة المادة التي تسكن البيت

يمتد عمر المادة النباتية في بعض استعمالاتها سنوات، كما في باب أو كتاب أو نسيج. وخلال هذه المدة تصبح الصيانة وحسن الانتفاع جزءاً من صلتنا بالمورد الذي نشأت منه. ومن هنا تدخل الأشياء اليومية في حكاية النبات بعد خروجها من الحقل.

ويُبحث أثر المنتج البيئي عبر الحصول على مادته وصناعتها واستعمالها وما يحدث لها بعد ذلك. يوجه هذا النظر الانتباه إلى رحلة المنتج كاملة، ويجعل العناية بما بين أيدينا متصلة بالعناية بمصدره.

إحالات الفصل: سورة يس ٨٠؛ سورة الواقعة ٧١-٧٣؛ المصدر الفقهي [ف ١] في مثالي القطن والكان.

الفصل التاسع والخمسون: قطع الشجر وإتلاف الزرع

القطع ليس حالة واحدة

قد يقع القطع لحاجة مشروعة، وقد يقع عبثاً أو اعتداءً، وقد يتعلق بشجرة تشكل خطراً في موضعها. ولذلك لا يستقيم حكم أخلاقي واحد يجمع جميع الصور من غير نظر إلى الحق والضرر والبدائل.

الآية والسياق

سورة الحشر، الآية ٥.

﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِجَ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿٥﴾

تذكر سورة الحشر قطع بعض النخل وترك بعضه قائماً بإذن الله في واقعة محددة من المواجهة. وبهذا تضع الفعل داخل سياقه، فلا تكفي مشابهة الصورة الظاهرة للحكم على كل قطع للشجر بأنه من الباب نفسه.

سورة البقرة، الآية ٢٠٥.

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ ﴿٢٠٥﴾

تصور الآية شخصاً يسعى في الأرض فساداً ويهلك الحرث والنسل، ثم تنفي محبة الله للفساد. فيحضر تخريب الزرع والاعتداء على أسباب استمرار الحياة علامةً على السلوك المذموم، بما يختلف عن الفعل المحدد في سياقه وإذنه.

تمنع قراءة الموضعين معاً إغفال سياق الفعل وقيدته. واقعة لها إذنها المحدد، وإفساد يُذم بما يهلكه من الحرث والنسل. وأحفظ هذا الفرق عند مناقشة المسؤولية عن قطع الشجر والتصرف في الأرض.

حق الجار

قد تتجاوز أغصان الشجرة حدود الملك، أو تؤثر أعمال الحفر في مورد مشترك. وتبحث الكتب الفقهية هذه الصور بتفصيل، كما تنظمها الأنظمة المحلية. ومن حسن التدبير معالجة المشكلة بالحوار والخبرة قبل أن تصبح خصومة أو ضرراً دائماً.

أثر يتجاوز المالك

قد يكون الشجر ملكاً خاصاً، ويكون لوجوده أثر في الظل والمشهد والبيئة المحيطة. وهذا لا يلغي حق الملكية، لكنه يدعو إلى استعمالها بمسؤولية. فأحياناً يحفظ تعديل محدود منفعة كبيرة، ويغني عن إزالة لا يمكن تعويضها سريعاً.

القرار الذي يصعب التراجع عنه

قبل إزالة شجرة كبيرة يختلف السؤال عن سؤال تقليم غصن محدود. فالأثر قد يستمر بعد انتهاء العمل، وقد يحتاج التعويض إلى زمن طويل. ومن الحكمة العملية تحديد المشكلة التي يراد حلها أولاً: هل هي خطر موثق، أم ضرر في موضع بعينه، أم مجرد ضيق من أوراق متساقطة؟ ثم تُدرس البدائل المناسبة مع أصحاب المعرفة والحق.

ولا يعني هذا أن كل شجرة يجب أن تبقى مهما كانت حالها، بل أن يكون القرار متناسباً مع السبب. كما لا يصح أن ينفرد صاحب رغبة في القطع بالحكم على مورد مشترك أو بحقوق الجوار. يجمع النظر المسؤول بين سلامة الناس وحفظ المنفعة والتحقق من الملكية والأنظمة المحلية. وتبقى هذه مبادئ لتنظيم السؤال، لا فتوى أو تصريحاً عاماً بالإزالة في واقعة لم تُبحث.

إحالات الفصل: سورة البقرة ٢٠٥؛ سورة الحشر ٥؛ منهاج الصالحين، ج ٢، كتاب إحياء الموات، مسائل الحريم والأغصان [ف٧].

الفصل الستون: المائدة النباتية — الشكر والاعتدال

طعام له رحلة

سورة البقرة، الآية ١٦٨.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿١٦٨﴾

يتوجه الخطاب إلى الناس بالأكل من الحلال الطيب في الأرض، ويحذرهم من اتباع خطوات الشيطان وعداوته. فتربط المائدة بالإباحة والطيب وحسن الاتباع، ويصبح اختيار الطعام جزءاً من سلوك الإنسان الواعي.

سورة البقرة، الآية ١٧٢.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿١٧٢﴾

يُخاطب المؤمنون بالأكل من طيبات ما رزقهم الله وبشكره إن كانوا يعبدونه. فلا يفصل الغذاء عن الاعتراف بالنعمة، ولا يجعل الشكر لفظاً بعيداً عن الطريقة التي يتلقون بها رزقهم وينتفعون به.

حين تصل الخضرة إلى المائدة تكون قد مرت بأرض وماء وعمل ونقل. واستحضار هذه الرحلة يقرب معنى الشكر؛ فاللحمة ليست شيئاً ظهر فجأة في طبق، بل ثمرة تعاون واسع لا نرى جميع أطرافه.

الاعتدال

سورة الأعراف، الآية ٣١.

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿٣١﴾

تجمع الآية أخذ الزينة عند كل مسجد مع الأكل والشرب والنهي عن الإسراف. ويظهر الاعتدال داخل الإذن بالانتفاع؛ فالمطلوب تقدير النعمة وحدود الحاجة، لا إهدارها ولا تحويلها إلى مظهر للتجاوز.

يجتمع الاستمتاع بالطيبات مع الاعتدال في مقدارها واستعمالها. ويُقدَّر الغذاء المناسب للإنسان بحسب حاجته وحالته، ليظهر الشكر في حسن الانتفاع بما أُبيح وفي حفظه من الهدر.

تنوع لا شعار

تضع منظمة الصحة العالمية التنوع والتوازن ضمن مبادئ الغذاء الصحي، وتؤكد أهمية سلامته. ولا يعني وصف الطعام بأنه نباتي أنه يحقق هذه المبادئ تلقائياً؛ فالمكونات وطريقة الإعداد ومجموع النظام الغذائي أمور تؤثر في التقييم.

حفظ الفائض

يمكن أن يبدأ تقليل الهدر بشراء ما نحتاج إليه، وحفظ الطعام بطريقة ملائمة، ومشاركة الفائض الصالح. وهذه ممارسات يومية تجعل المعنى الأخلاقي مرئياً. أما الطعام الفاسد فلا يصير هدية كريمة لأنه يمنع شعور صاحبه بالخسارة.

الشكر الذي يظهر في العادة اليومية

سورة الأنعام، الآية ١٤١.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [١٤١]

بعد عرض تنوع الجنات والثمار يأتي الأمر بالأكل وإيتاء حق الحصاد واجتناب الإسراف. وتتابع الأوامر يصل بين الاستهلاك وحق الغير وحفظ النعمة، فيمنح الشكر صورة عملية عند جمع المحصول وتقاسمه.

قد يقال الشكر باللسان ثم تناقضه عادة شراء لا تقدر الحاجة، أو حفظ مهمل يفسد الطعام، أو مائدة يلقي فائضها من غير تفكير. ولا يطلب الاعتدال أن تتحول كل وجبة إلى حساب مرهق؛ بل أن يتعلم الإنسان من تكرار تجربته ما يحتاجه وما يهدره، وأن يصحح عاداته على قدر استطاعته.

وتعطي المشاركة معنى آخر للثمرة. فقد تكون هدية صغيرة من حديقة سبباً لحديث وود بين جارين، وقد يعلم إشارك الطفل في رعاية نبات ثم أكل ثمرته صلة لا يمنحه إياها شراء الطعام وحده. أقترح هذه الصور التربوية، ولا أدعي أنني قست نتائجها تجريبياً. وهي ترد المائدة إلى سياقها الإنساني: رزق يصل عبر الطبيعة والعمل والعلاقات، ويستحق أن يقابل بالوعي والرفق.

إحالات الفصل: سورة البقرة ١٦٨ و ١٧٢؛ سورة الأعراف ٣١؛ سورة الأنعام ١٤١؛ منظمة الصحة العالمية [ص ٣].

الباب السابع: النبات والبيئة والمعرفة

إذا وقفنا عند شجرة واتسع نظرنا قليلاً، ظهرت صلتها بما حولها من تربة وماء وكائنات. وعند هذه الصلات تستأنف الحكاية أسئلتها: كيف نحفظ ما ينمو، وكيف نفهم أثر تدخلنا، وكيف تصل خبرة الفلاح بما يتعلمه الباحث؟ سنقترب من البيئة والتنوع والتوثيق، ونرى كيف تتحول محبة النبات إلى عناية تتعلم من نتائجها.

الفصل الحادي والستون: النبات والتوازن البيئي

شبكة لا زينة منفردة

الشجرة جزء من علاقات مع الماء والتربة والهواء والكائنات الأخرى. ولذلك قد تكون إزالة غطاء نباتي تغييراً في أكثر من مشهد بصري. وتلفت منظمة الأغذية والزراعة إلى دور الغابات في تنظيم المياه وجودتها، مع كون الغابات نفسها مستهلكة للماء.

ليست كل زيادة إصلاحاً

لا تعني الرغبة في الخضرة أن غرس أي نوع في أي مكان عمل مناسب. فالموقع والمناخ وموارد الماء وطبيعة النظام البيئي تدخل في الحكم. وقد تكون حماية غطاء قائم أو استعادة نبات محلي أليق من فرض صورة مستوردة على المكان.

التربة مخزن حياة

توضح المنظمة أن التربة تسهم في دورات المغذيات والماء والكربون، وتحتضن كائنات تؤدي وظائف حيوية. ومن ثم لا تكون العناية بالسطح الأخضر وحده كافية إذا أهمل ما تحته. وقد يبدو المكان مرتباً، بينما تضعف عملياته التي لا تراها العين.

من المعرفة إلى الخلق

سورة الأعراف، الآية ٥٦.

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٥٦﴾

تنهى الآية عن الإفساد في الأرض بعد إصلاحها، وتدعو إلى دعاء الله خوفاً وطمعاً، وتذكر قرب رحمته من المحسنين. ومن هذا الأصل الأخلاقي نفهم مسؤولية تجنب الضرر، ثم نستعين بالمعرفة لتحديد آثاره في الأرض والماء والنبات.

تمنح قيمة الأمانة باعثاً لحفظ البيئة، وتعين المعرفة العلمية على فهم آثار الفعل فيها. وأجمع بينهما في النظر والعمل، مع تمييز المعنى الذي يدل عليه النص من المصطلح الذي نشأ في البحث البيئي.

منظر أخضر ووظيفة بيئية

قد يرضي سطح أخضر عين الناظر، بينما تبقى أسئلة الماء والتربة والتنوع خارج الصورة. ولهذا لا يكفي الحكم على المكان من لونه وحده. ينبغي أن نسأل عن الوظائف التي يؤديها الغطاء الموجود، وعن أثر تغييره في محيطه، وعن الموارد التي يحتاج إليها ليستمر. وقد يكون الإصلاح في بعض المواضع حفظ ما هو قائم بدل استبداله بمشهد أكثر ترتيباً في نظرنا.

وما يجري في التربة يذكرنا بأن حياة المكان أوسع مما يظهر في صورته. تبدأ العناية بملاحظة هذه العلاقات، ثم بتحديد ما يحتاج إلى حفظ أو تغيير، ومراجعة أثر العمل بعده. وبذلك تتصل الرغبة في الحضرة بمعرفة ما يجعلها نافعة ومستقرة.

إحالات الفصل: منظمة الأغذية والزراعة، الغابات والمياه [٢]، ولحة عامة عن التربة [٣]؛ سورة الأعراف ٥٦ في النهي العام عن الإفساد.

الفصل الثاني والستون: النبات وسائر الكائنات

طعام ومأوى

سورة عبس، الآيات ٢٤-٣٢.

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ ﴿٢٤﴾

﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ ﴿٢٥﴾

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ ﴿٢٦﴾

﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ ﴿٢٧﴾

﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ ﴿٢٨﴾

﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ ﴿٢٩﴾

﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾ ﴿٣٠﴾

﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ ﴿٣١﴾

﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ ﴿٣٢﴾

تبدأ رحلة الطعام بالماء وإنبات الأرض، ثم تتعدد أصناف القوت والشجر والفاكهة والأب، وتُختم بمنفعة الناس والأنعام. وتلفت هذه الخاتمة إلى اشتراك الأحياء في موارد النبات؛ فالمشهد أوسع من طبق الإنسان وحده.

تتسع منفعة النبات في شبكة الحياة: غذاء لكائن، ومأوى لآخر، وموضع لتكاثر غيرهما. وحين أراقب هذه العلاقات أرى موارد تشاركها، فأفهم حاجتي إلى النبات ضمن حياة تتجاوز ما آخذه منه مباشرة.

الملقحات

سورة النحل، الآيات ٦٨-٦٩.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ ﴿٦٨﴾

﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلَالًا ۚ يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿٦٩﴾

تذكر الآيات إلهام النحل اتخاذ البيوت في الجبال والشجر وما يعرش الناس، ثم الأكل من الثمرات وسلوك السبل الميسرة، وخروج شراب مختلف الألوان فيه شفاء للناس. ويتصل النبات هنا بالمأوى والغذاء والنتاج، وتختتم الصورة بدعوة إلى التفكير.

يسهم عدد من الحيوانات في تلقيح نباتات، ويؤدي هذا التفاعل أدواراً في الإنتاج واستمرار الأنواع. ولا يعني ذلك أن كل نبات يحتاج إلى حشرة، أو أن جميع الحشرات نافعة للمحصول في كل ظرف. فالعلاقة تتحدد بالنوع والسياق.

ما تحت القدم

تشارك كائنات التربة في تحليل البقايا ودوران المغذيات. وقد يغفل عنها صاحب الحديقة لأنها لا تظهر في صورة الثمرة. لكن الاعتناء بالنبات يدعونا إلى الاهتمام بالوسط الذي يعيش فيه، لا إلى ملاحظة كل كائن صغير بقصد التخلص منه.

الرعاية معرفة بالتوازن

يرى المزارع أثر الآفات في محصوله، وتبقى حاجته إلى حمايته مشروعة. غير أن حسن التدبير يبدأ بتحديد المشكلة والاستعانة بالمعرفة، لا بمعاملة كل حركة في الحديقة على أنها عدو. والكتاب لا يقدم برنامج مكافحة؛ فهو يدعو إلى فهم العلاقة قبل التدخل.

تغيير زاوية النظر إلى الحديقة

يرى صاحب المزرعة ثمرة ينتظرها، وقد ترى حشرة موضع غداء، ويرى طائر غصناً يصلح للاستقرار. ليست هذه الصور أوصافاً متناقضة للمكان؛ إنها تبين تعدد العلاقات التي تجتمع فيه. ويساعد إدراكها على تجاوز فكرة أن ما لا يخدم حاجتنا المباشرة لا وظيفة له.

ويستكمل تعدد العلاقات بالملاحظة الدقيقة: ما الكائن الموجود، وما الضرر الذي ظهر، وما الصلة بينهما؟ فوجود كائن قرب ورقة متضررة لا يثبت وحده أنه سبب الضرر. وتعين هذه الأسئلة الزارع على حماية محصوله مع فهم ما يشاركه المكان من حياة.

ما يصل من الحرث إلى الطير والبهائم

في الحديث الخامس من باب فضل الزراعة خبر يبتدئ بتفضيل الحرث، ويذكر انتفاع البر والفاجر به، ثم يرد فيه:

«ويأكل منه البهائم والطير».

يخرج هذا الجزء من الخبر بصورة الحقل من دائرة صاحبه وحده؛ فثمر العمل يدخل في غذاء كائنات أخرى. ويمكن أن يستأنس القارئ بهذا المعنى في تنمية الشعور بسعة أثر الزرع، مع بقاء وصف العلاقات البيئية التفصيلية مجالاً للبحث العلمي. فالرواية ليست جدولاً بأعداد الكائنات أو مقدار ما تأكله.

وفي طريق هذا الخبر عبارة «عن بعض أصحابنا»، وهي واسطة لم يسمها هذا الموضع، ثم يرد النقل عن أبي جعفر عليه السلام بقوله: «كان أبي يقول». وقد وصف المجلسي الحديث الخامس بأنه «مرسل»، في مرآة العقول، ج ١٩، ص ٣٣٢ [ح ٢٧]. أنجل ذلك مع المقتطف، مع بقاء تقدير ضرر الآفات ووسائل الوقاية منه بحثاً عملياً؛ فالانتفاع المشترك لا يسقط حق الزارع في حماية رزقه بوسائل مناسبة.

المصدر: الكافي، ج ٥، كتاب المعيشة، باب فضل الزراعة، الحديث ٥ [ح ١].

إحالات الفصل: سورة عبس ٣٢-٢٤؛ سورة النحل ٦٨-٦٩؛ منظمة الأغذية والزراعة، نظرة عامة على التنوع البيولوجي [ب ١]؛ التربة [ب ٣].

الفصل الثالث والستون: تنوع النبات وحفظه

تنوع داخل الاسم الواحد

قد يضم المحصول الواحد أصنافاً تختلف في الطعم والموعد والقدرة على التكيف. ولهذا لا يقتصر حفظ التنوع على منع اختفاء أسماء الأنواع الكبرى؛ بل يتعلق أيضاً بما يحمله الناس من أصناف ومعرفة زراعية.

في الموطن وخارجه

يمكن حماية النبات في بيئته، كما يمكن حفظ مادة إكثاره في مؤسسات متخصصة. ويعرض مشروع بنك بذور الألفية في كيو مثلاً لشراكات تحفظ البذور وتتيحها للبحث واستعادة الموائل. وهذه وسيلة مكّلة لحماية الطبيعة، لا سبب للتفريط فيها.

معرفة ترافق البذرة

تزداد قيمة العينة حين يعرف مصدرها وتاريخها واسمها وحالتها. وبالمثل تفيد الهاوي بطاقةٌ يسجل فيها معلومات شتلتها، بدل الاعتماد على ذاكرة قد تخطئ. فالحفظ ليس وضع بذور في وعاء فحسب، بل حفظ قصة يمكن التحقق منها.

المشاركة المسؤولة

قد يحب الإنسان تبادل البذور والعقل مع أصدقائه، لكن الانتقال بين البلدان والمناطق يرتبط بضوابط زراعية وصحية محلية ينبغي معرفتها. وليس مقصد هذا الفصل بيان أنظمة بلد بعينه، بل التأكيد أن حب التنوع يصحبه حرص على البيئة التي نستقبل النبات فيها.

حفظ التنوع وحفظ الذاكرة الزراعية

وتصل البطاقة الحافظ الأول بمن يستعمل العينة بعده، فتمنح المقارنة نقطة بدء معلومة. من أين جاءت العينة، وما الذي لوحظ عليها، وأي تغير طرأ بعد حفظها؟ هكذا ينتفع اللاحق بما دوّنه السابق.

وينطبق هذا المعنى على المعرفة التي يتداولها المزارعون حول أصنافهم. فالتدوين الأمين يحفظ ما قالوه وما شاهدوه، مع تمييز الخبرة المحلية من القاعدة التي يمكن تعميمها. ولا يكتمل حفظ التنوع بجمع الأسماء في كتاب وحده؛ إنه يتصل ببقاء المادة الحية والموطن والمعرفة المصاحبة. وتفيد المؤسسات المتخصصة مثل بنوك البذور في جانب من هذا العمل، بينما يبقى ربط الحفظ بالحياة في الطبيعة غاية لا يستغنى عنها.

إحالات الفصل: الحقائق النباتية الملكية في كيو، شراكة بنك بذور الألفية [ب ٤]؛ منظمة الأغذية والزراعة، التنوع البيولوجي [ب ١].

الفصل الرابع والستون: من خبرة الفلاح إلى علم النبات

ملاحظة تتعلم من الخطأ

يعرف صاحب الحديقة تفاصيل قد لا يلاحظها الزائر: موعد تفتح برعم، واختلاف استجابة شتلتين، وأثر تغيير محدود في الرعاية. وتصبح هذه الملاحظة أكثر فائدة حين تسجل وتقارن، وتتاح لغيره مراجعتها.

الإكثار الخضري

يمكن إكثار نباتات بوسائل لا تمر باندماج الأمشاج، مثل العقل والترقيد. ويختلف ذلك عن التكاثر الجنسي الذي يرتبط بالتلقيح والإخصاب. ولكل طريقة شروطها وحدودها؛ فلا تكفي رؤية نجاح عقلة من نبات لإثبات صلاحية الطريقة لكل الأنواع.

التطعيم والتهجين

في التطعيم يوصل طعم نباتي بأصل متوافق ليواصل النمو متصلين. أما التهجين الجنسي فيتعلق باجتماع المادة الوراثية عبر التكاثر. ولذلك لا تعني شجرة تحمل أصنافاً متعددة أن كل ثمرة فيها أصبحت خليطاً وراثياً من بقية الفروع. ويحفظ التفريق قيمة الإنجاز الزراعي من الوصف المضلل.

خبرتي في المحبة والتعلم

يمتد ولعي بالزراعة من العراق إلى أستراليا، وتأتي تجاربي في التطعيم وتعليم الطلبة جزءاً من هذه الرحلة. وأرى أن أجمل ما تمنحه الهواية ليس نجاح تجربة واحدة، بل استمرار الرغبة في السؤال. فالمعلم والفلاح والباحث والهاوي يستطيعون تبادل المعرفة، مع وضوح حدود خبرة كل منهم.

دقت التجربة الزراعية

يمكن أن تتحول تجربة الهاوي إلى معرفة أوضح إذا سجل ما فعله وما حدث، بما في ذلك المحاولات التي لم تنجح. يبدأ السجل باسم النبات ومصدره وتاريخ الإجراء والظروف الملحوظة، ثم يضيف وصفاً للنتيجة بدل الاكتفاء

بكلمة «نجح». وفي التطعيم مثلاً يفرق بين بقاء الطعم في مرحلة مبكرة وبين استقرار نموه لاحقاً؛ فكل عبارة تصف قدراً مختلفاً من المشاهدة.

وعند المقارنة بين طريقتين، يحسن ألا تتغير عوامل كثيرة ثم ننسب الفرق إلى عامل واحد اخترناه. كما لا تكون صورة التجربة الناجحة وحدها سجلاً أميناً لجميع المحاولات. هذه المبادئ تقرب الهواية من روح البحث دون أن تدعي تحويل كل تجربة منزلية إلى دراسة منشورة. وأرى فيها امتداداً لما تعلمته من الزراعة والأحياء وصحة المجتمع: السؤال الواضح، والملاحظة، والاستعداد لتصحيح الفهم.

إحالات الفصل: مرجع علم الأحياء، التكاثر اللاجنسي [٨٤]؛ الفصل السابع في التكاثر الجنسي؛ صفحتي عن الزراعة [س٢]. ولا تقدم هذه الفقرات بروتوكولاً عملياً لتطعيم نوع بعينه.

الباب الثامن: النبات في مشاهد الغيب والآخرة

رافقتنا الحبة من الأرض إلى الشجرة والمائدة، وحضر النبات في القصة والمثل والعمل. ونصل الآن إلى ما يخبر به الوحي عن الغيب والآخرة: سدرة المنتهى، وبركات الأرض، والإحياء والبعث، وثمار النعيم ومشاهد الوعيد. تتقدم النصوص في هذا الباب، ويصحها الشرح بحدود ما تدل عليه، حتى تبقى الحكاية موصولة بالإيمان والعمل وحسن المآب.

الفصل الخامس والستون: سدرة المنتهى

الاسم في سورة النجم

سورة النجم، الآيات ١٣-١٨.

﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ ﴿١٣﴾

﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾ ﴿١٤﴾

﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ ﴿١٥﴾

﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ ﴿١٦﴾

﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ ﴿١٧﴾

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ ﴿١٨﴾

تصف سورة النجم رؤية أخرى عند سدرة المنتهى، وتذكر جنة المأوى وما يغشى السدرة، ثم تؤكد ثبات البصر ورؤية آيات كبرى من آيات الرب. فيقع ذكر السدرة داخل مشهد عظيم من آيات الله، ويظل تفصيل ما سكت عنه النص خارج وصفه المباشر.

أقف أمام هذا المشهد بما يورثه من تعظيم لآيات الله، وأحفظ إيجاز النص حيث أجمل. ثم أميز ما يرد في التفسير والرواية من تفاصيل عن الوصف القرآني نفسه، حتى يعرف القارئ مصدر كل زيادة.

حد المعرفة الحسية

نعرف الصدر اسماً في عالمنا، ولا يقتضي اشتراك الاسم أن نحيط بحقيقة سدره المنتهى أو مقاديرها أو كیفيتها. فالخبر الغيبي يفهم من ألفاظه وما ثبت في بيانه، لا من قياس مباشر على شجرة في حديقة.

المشاهدة والتوقير

يمكن للقارئ أن يتأمل في اقتران السدره بآيات عظمى، فيزداد شعوراً بحدود معرفته. وهذا التأمل يقوده إلى التواضع، لا إلى ادعاء رسم دقيق لمكان لم يره أو بناء خريطة فلكية لا يدل عليها النص.

ما يترك بلا زيادة

تقتصر الرسوم التعليمية في هذا الكتاب على موضوعات نباتية محسوسة يمكن بيانها والتحقق منها. أما سدره المنتهى فتعرض بنصها القرآني وما أمكن توثيقه في بيانها، مع حفظ الفرق بين وصف الوحي والتصور الفني.

بلاغة ما لم يفصله النص

يذكر النص أن السدره غشيها ما غشي، فيبقى في التعبير اتساع لا يملؤه القارئ من مخيلته ثم ينسبه إلى الوحي. وقد تكون قوة المقام في هذا الحد نفسه: أن نعلم عظم ما وقع من غير أن نحيط بجميع كیفياته. ولذلك أقف عند ما أخبر به النص، ولا أصنع تفاصيل لم يذكرها.

ويظل الرسم الرمزي تعبيراً بشرياً عن معنى روحي، مهما بلغ أثره في النفس؛ فليس وثيقة بصرية للمشهد الغيبي. يتيح هذا التمييز للمتلقي أن يفهم وظيفة الصورة وحدودها، وأن يبقى معرفة السدره متصلة بما أخبر به النص.

إحالات الفصل: سورة النجم ١٣-١٨.

الفصل السادس والستون: بركات الأرض في عصر الإمام المهدي

أمل متصل بالعدل

تحدث روايات الظهور عن العدل والأمان واتساع الخير. وفي هذا الأفق يرد ذكر بركات الأرض. فالنبات حاضراً ضمن صورة مجتمع يتبدل حاله، لا بوصفه تفصيلاً منفصلاً عن رد الحقوق ورفع الظلم.

خبر في الإرشاد

ينقل الشيخ المفيد في الإرشاد، عن علي بن عقبة عن أبيه، خبراً يجمع قيام القائم عليه السلام بالعدل وأمن السبل وإخراج الأرض بركاتها. وأثبت إحالة النص كما وردت في المصدر، دون ادعاء استكمال سلسلة طرقه أو إصدار حكم نهائي بصحته.

لا توقيت من المحاصيل

لا تتيح هذه الأخبار تحديد سنة الظهور من موسم مطير أو محصول غزير، ولا تعليقها على حدث مناخي مجرد التشابه. فالتوقيت يحتاج إلى دليل لا يملكه هذا الاستنتاج، وقد يعرض الناس لوهم متكرر.

انتظار يعمل

لا يعني رجاء العدل الآتي من رعاية الأرض والإنسان الآن. يستطيع المنتظر أن يصدق في كسبه، وأن يحفظ حق جاره، وأن يصلح ما يقدر عليه. وهذه ثمرة أخلاقية معاصرة لمعنى الانتظار، لا إضافة إلى تفاصيل الرواية.

العدل والبركة في صورة مترابطة

يجمع الخبر المنقول بين العدل وأمن السبل وبركات الأرض، فيرى القارئ الخير ضمن حياة جماعية، لا في محصول معزول عن أحوال الناس. ومن جهة التأمل الأخلاقي، تصبح وفرة الطعام أكل معنى حين تصل

منافعها في أمن وعدل، بدل أن تجتمع مع خوف أو حرمان. وهذا استلهاً من اجتماع المعاني، لا تفسير تفصيلي لآليات البركة في الخبر.

ويتصل الرجاء بمسؤولية الإنسان الحاضرة: حفظ حق، وإصلاح ضرر، وصدق في تعامل. ومن هذا الوجه يصبح الأمل باعثاً على أداء الخير الممكن، مع الوقوف في تفاصيل المستقبل وتوقيته عند الدليل.

مقتطف البركات في سياق رد الحقوق

أورد الشيخ المفيد في الإرشاد، عن علي بن عتبة، عن أبيه، خبراً جاء في أوله:

«إذا قام القائم عليه السلام حكم بالعدل، وارتفع في أيامه الجور، وأمنت به السبل، وأخرجت الأرض بركاتهما، ورد كل حق إلى أهله».

تنظم عناصر المقتطف في صورة حياة يعمها العدل ويعود فيها الحق إلى أهله. وتقرأ بركات الأرض مع هذه العناصر، فتتسع دلالة العطاء وراء مقدار المحصول وحده، ويبقى تفصيل الغيب تابعاً لما تثبته أدلته.

والعزو هنا دقيق في حدوده: صيغة الموضع المقابل في الإرشاد تقول «عن علي بن عتبة، عن أبيه»، ولا تصرح في هذا الموضع باسم إمام يروي عنه الأب. لذلك لم أضف إلى السلسلة اسماً من عندي، ولم أصف المقتطف بأنه تمام الخبر. وتظل مقابلة طرقة في مصادر أخرى عملاً مستقلاً يستكمل عند التحقيق التخصصي.

المصدر: المفيد، الإرشاد، ج ٢، ص ٣٨٤، فصل سيرة القائم عليه السلام عند قيامه [ح ١٦].

إحالات الفصل: الشيخ المفيد، الإرشاد، ج ٢، ص ٣٨٤، فصل سيرة القائم عليه السلام عند قيامه [ح ١٦]؛ الكافي، باب فضل الزراعة، الحديث ٣ [ح ١] في استمرار الغرس.

الفصل السابع والستون: إحياء الأرض والبعث

أرض تبدو هامدة

سورة الحج، الآيات ٥-٧.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مَّضْغَةٍ مُّخْلَقَةٍ وَغَيْرِ مُخْلَقَةٍ لِّنَبِّئَنَّكُمْ وَنَقْرُؤُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِّتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُّتَوَقَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مَن بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾

تخاطب الآيات من يرتاب في البعث، فتذكر أطوار خلق الإنسان ومراحل عمره، ثم تنتقل إلى أرض هامدة تهتز وتربو وتنبت بالماء. وبعد هذين المشهدين تقرر قدرة الله على إحياء الموتى وقيام الساعة؛ فتساند خبرة الإنسان بنفسه وخبرته بالأرض في الحجة.

يقرب هذا الاستدلال معنى الإحياء من خبرة يراها الإنسان في نفسه وفي الأرض من حوله. وأتبع انتقال الخطاب من المشهد المحسوس إلى الإقرار بقدرة الخالق على البعث، فهو وجه اجتماع هذه الصور في السياق.

دلالة على القدرة

سورة الأعراف، الآية ٥٧.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

تسبق الرياح السحاب الثقيل، ويساق المطر إلى بلد ميت فتخرج به الثمرات. ثم يقرب النص إخراج الموتى بهذا المشهد؛ فيستدل بالفعل الذي يراه الناس على قدرة الخالق على ما غاب عن مشاهدتهم.

سورة فصلت، الآية ٣٩.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ^ج إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ ^ج إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

تبدو الأرض خاشعة ساكنة، فإذا نزل عليها الماء اهتزت وربت. ثم تصرّح الآية بأن محييا قادر على إحياء الموتى؛ فلا يبقى الربط تخميناً من القارئ، بل يُذكر وجه الاستدلال في العبارة نفسها. يستدل الخطاب بما يُشهد على قدرة الخالق على ما يغيب عن الحس. وأقرأ دورة النبات ضمن هذه الحجة، مع حفظ الفرق بينها وبين بعث الإنسان؛ فتشابه وجه الاستدلال لا يقتضي تماثل التفاصيل، ولا يجعل تجربة إنبات واحدة برهاناً مستقلاً على جميع مسائل الآخرة.

من قنوط إلى رجاء

سورة الروم، الآية ٥٠.

﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ^ج إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتِ ^ط وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

يدعو الخطاب إلى النظر في آثار رحمة الله حين يحيي الأرض بعد موتها، ثم يصل هذه الرحمة بقدرته على إحياء الموتى. فيجتمع في الخصرة معنى النعمة الحاضرة ومعنى الرجاء فيما وراء الحياة المشهودة. وقد يوقظ هذا المشهد في النفس رجاءً بعد يأس. وأعرض ذلك بوصفه أثراً للتأمل، مع الوقوف عن التنبؤ بمصائر الأفراد أو الجزم بوقت تعويض خسارة بعينها؛ فالرجاء يفتح القلب للعمل والصبر.

مسؤولية من يرى

إذا صار تغير الأرض مدخلاً إلى تذكر المآل، أمكن أن تتغير طريقة العيش: يقل التكبر، ويزداد الحرص على الحق، ويصبح العمل موصولاً بالمسؤولية. وهكذا يعود مشهد النبات من الحقل إلى الضمير.

سورة فاطر، الآية ٩.

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرُ سَحَابٍ فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا^ج كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾
﴿٩﴾

يبدأ المشهد بإرسال الرياح وإثارة السحاب، ثم سوقه إلى بلد ميت وإحياء الأرض به. وتختتم الآية بالمقارنة بالنشور؛ فتجعل حركة الماء والنبات مثلاً قريباً يوقظ الإيمان بالقدرة على إعادة الحياة.

سورة ق، الآيات ٩-١١.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ ﴿٩﴾
﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ ﴿١٠﴾
﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ^ط وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً^ج مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ ﴿١١﴾

ينزل الماء المبارك فتخرج الجنات والحبوب والنخيل الباسقات، ويذكر الرزق وإحياء البلدة الميتة، ثم يقرب بذلك الخروج بعد الموت. فيرى القارئ في الحقل والبستان منفعة يومية وشاهداً يتكرر أمامه على الإحياء.

يراجع المتأمل حكمه على الممكن والمستحيل وهو يرى أرضاً حسبها ساكنة تتغير أمامه. ومن هذا المدخل تقرّبه الصورة من إدراك القدرة على الإحياء، وتبقى معرفة أصناف الكائنات وخصائصها في مجال بحثها.

ويبقى للشاهد أثره في عين من يراقب الموسم: أرض تتبدل، وغصن تظهر عليه ورقة جديدة، وحياة كانت أسبابها خافية عليه. ومن هنا يعود السؤال إلى قدرة الخالق وحدود ما يراه الإنسان. ويتكامل هذا التأمل مع بيان البعث في النص، دون ادعاء مطابقة تفاصيله لدورة النبات.

إحالات الفصل: سورة الأعراف ٥٧؛ سورة الحج ٥-٧؛ سورة الروم ٥٠؛ سورة فاطر ٩؛ سورة فصلت ٣٩؛ سورة ق

الفصل الثامن والستون: أشجار الجنة وثمارها

نعيم في لغة قريبة

سورة البقرة، الآية ٢٥.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٢٥﴾

تُبَشِّرُ الآية المؤمنين العاملين بالصلوات بجنت تجري تحتها الأنهار، وثمار يتلقونها متشابهة، وأزواج مطهرة وخلود. فيعرض النعيم بوصفه رزقاً وطمأنينة واستقراراً، ويتصل الوعد منذ بدايته بالإيمان والعمل.

سورة الرحمن، الآيات ٤٦-٥٣.

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ ﴿٤٦﴾

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٤٧﴾

﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ ﴿٤٨﴾

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٤٩﴾

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ ﴿٥٠﴾

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٥١﴾

﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ ﴿٥٢﴾

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٥٣﴾

لمن خاف مقام ربه جنتان ذواتا أفنان، فيهما عينان تجريان ومن كل فاكهة زوجان. ويتكرر السؤال عن التكذيب بالنعم خلال الوصف، فيجمع المشهد جمال العطاء والتذكير بمن يستحق الشكر والخشية.

تقرب الأسماء المألوفة معنى النعيم إلى السامع بما عرفه من لذة الثمر وراحة الظل والماء. وتظل حقيقة الموعود أوسع من خبرته؛ فأحفظ هذا الحد وأنا أقرأ أوصافه وأتأمل ما تبعثه من رجاء.

سورة الواقعة، الآيات ٢٧-٣٤.

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ ﴿٢٧﴾

﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ ﴿٢٨﴾

﴿وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ﴾ ﴿٢٩﴾

﴿وَوَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ ﴿٣٠﴾

﴿وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ ﴿٣١﴾

﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ ﴿٣٢﴾

﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ ﴿٣٣﴾

﴿وَفُرْشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ ﴿٣٤﴾

تُعرض منزلة أصحاب اليمين من خلال سدر مخضود وطلح منضود وظل ممتد وماء وفاكهة وفيرة وفرش مرفوعة. وتتضافر هذه الصور لتقريب حياة يزول فيها الحرمان والانقطاع، مع بقاء تفسير بعض الألفاظ محتاجاً إلى عرضه في موضعه.

وقد نقل المفسرون في الطلح أقوالاً، منها الموز ومنها شجر معروف في الاستعمال الدنيوي بظله أو شوكه. وأحفظ اللفظ القرآني عند عرض هذا الخلاف، وأبين مأخذ الأقوال من غير فرض هوية علمية نهائية على الموصوف الأخرى.

ثمر غير منقطع

سورة الرعد، الآية ٣٥.

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ^ط تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ^ط أُكْلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا^ج تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا^ط وَعُقْبَى^ط الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ ﴿٣٥﴾

يُضْرَب وصف الجنة الموعودة للمتقين بأنهار تجري، وأكل دائم وظل، ثم تقابل عاقبتهم بعاقبة الكافرين. فدوام النعمة هنا هو موضع بارز في الصورة، ويختلف عن ثمر الدنيا الذي يحده موسم ويعرض له الزوال.

سورة الرحمن، الآيات ٦٢-٦٩.

﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ ﴿٦٢﴾

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٦٣﴾

﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ ﴿٦٤﴾

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٦٥﴾

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ﴾ ﴿٦٦﴾

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٦٧﴾

﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ ﴿٦٨﴾

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٦٩﴾

تذكر سورة الرحمن جنتين أخريين شديقتي الخضر، فيهما عينان نضاختان وفاكهة ونخل ورمان. ويتكرر التذكير بالنعم بين الأوصاف؛ فتقرأ أسماء النبات داخل وفرة متصلة بالماء والراحة والامتنان.

تتيح هذه الأسماء تصور وجوه من الوفرة، ويبقى الوعد أوسع من حصره في قائمة نباتات أرضية. وأتبع في الأوصاف ما يجمع بين كثرة الرزق ودوامه وتيسير الوصول إليه.

نعيم لا يصنعه الظلم

يرتبط الوعد بالإيمان والعمل الصالح والتقوى. فلا ينفصل الرجاء في جنات الآخرة عن حقوق الخلق في الدنيا. وما أحوج من يحب البساتين الموعودة إلى ألا يفسد على الناس بسايتهم وأقواتهم وماءهم.

التيسير والدوام في وصف الثمر

سورة الرحمن، الآيات ٥٤-٦١.

﴿مُتَكِّئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۖ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ ﴿٥٤﴾

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٥٥﴾

﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْنِ إِنَّسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ ﴿٥٦﴾

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٥٧﴾

﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ ﴿٥٨﴾

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٥٩﴾

﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ ﴿٦٠﴾

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٦١﴾

يُصَوِّرُ أهل النعيم متكئين على فرش، وثمر الجننتين قريب منهم، ثم يرد وصف رفقة طاهرة مصونة ويختتم المقطع بمقابلة الإحسان بالإحسان. وهكذا يتسع النعيم عن الطعام إلى الأنس والتكريم، وتبقى الثمار جزءًا من هذه الصورة الجامعة.

سورة الإنسان، الآية ١٤.

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ ﴿١٤﴾

تدنو الظلال وتذلل القُطُوف لأهل النعيم، فلا تحول مشقة الوصول بينهم وبين الثمر. ويحمل القرب هنا معنى الراحة والتيسير، فيقابل ما يعرفه الإنسان من جهد الانتظار والجني في بساتين الدنيا.

تأخذ الثمرة معناها في حياة أهل النعيم من جمالها ومن تيسيرها ودوامها. فالقرب يزيل عناء الوصول، والدوام يرفع خوف الانقطاع؛ ومن اجتماع هذه المعاني تتضح صورة الراحة التي يحملها الوعد.

سورة الرحمن، الآيات ٧٠-٧٦.

﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حَسَنَاتٌ﴾ ﴿٧٠﴾

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٧١﴾

﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ ﴿٧٢﴾

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٧٣﴾

﴿لَمْ يَطْمِثْنِ إِنَّسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ ﴿٧٤﴾

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٧٥﴾

﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رُفُوفٍ خُضِرَ وَعْبَقَرِيُّ حَسَانٍ﴾ ﴿٧٦﴾

يستمر وصف الجنتين بذكر خيرات حسان و حور مصونات في الخيام، ثم اتكاء على فرش ووسائل جميلة. فالسياق يرسم راحة وكرامة وأنساء، ويمنع اقتطاع الفاكهة والشجر من المشهد الإنساني الذي وردا فيه.

وأصل هذا الرجاء بسؤال العمل: كيف أحب الخير لنفسي وأرعاه للناس في أقواتهم وكرامتهم؟ يظل التأمل في النعيم باعثاً على الإحسان، مع الإقرار بأن معرفتي لا تحيط بحقيقة ما وعد الله به.

إحالات الفصل: سورة البقرة ٢٥؛ سورة الرعد ٣٥؛ سورة الرحمن ٤٦-٧٦؛ سورة الواقعة ٢٧-٣٤؛ سورة الإنسان ١٤؛ القرطبي، تفسير سورة الواقعة ٢٩ [ت٧].

الفصل التاسع والستون: طوبى

طوبى في موضعها القرآني

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا بَ﴾

القرآن الكريم، سورة الرعد، الآية ٢٩.

يقترن لفظ طوبى في الآية بالإيمان والعمل الصالح وحسن المآب. ومن هذه البشارة يبدأ الفصل، ثم ينتقل إلى البيان اللغوي وأخبار الشجرة، مع إحالة كل وصف إلى مصدره.

اللفظ القرآني

سورة الرعد، الآيات ٢٧-٢٨.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَصِلُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن أَنَابَ﴾

﴿٢٧﴾

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ ﴿٢٨﴾

يطلب الذين كفروا آية، فيأتي الجواب ببيان أن الهداية إلى الله لمن أناب، ثم يوصف المؤمنون باطمئنان قلوبهم بذكره. وهذا السياق يمهد لبشارة طوبى، فتفهم البشارة في صلتها بالإيمان والرجوع وراحة القلب.

ويشرح الميزان طوبى من جهة اللغة والسياق بما يتصل بطيب الحياة والمعيشة. أبدأ بهذا المعنى في موضعه، ثم أنتقل إلى أخبار الشجرة مع مصادرها؛ فلفظ الآية لا يسمي طوبى شجرة صراحة.

الشجرة في الرواية

تصف أخبار مروية طوبى بأنها شجرة في الجنة. وقد راجعت خبر أبي عبيدة عن الإمام الصادق عليه السلام في النص الرقي لتفسير القمي عند سورة الرعد ٢٩، وخبر البشارة في الخرائج والجرائح مباشرة، واستفدت من بحث الميزان الروائي. وأعرض كل خبر بموضعه وحدود ما تحققت منه [ت٦، ت٨، ح٢٥].

الصلة بأهل البيت

تصل بعض أخبار طوبى بالنبي وأمير المؤمنين وفاطمة عليهم السلام. ويعرض هذا الفصل خبر أبي عبيدة وخبر البشارة كلاً على حدة؛ فلا يجمع معهما أخبار الإسراء أو تفاصيل المسافات في رواية مركبة. أما مناقشة الطباطبائي لهذه المادة في مستوى الباطن والتطبيق فتقرأ ضمن سياقها في الميزان [ت ٦].

رحابة الاسم

يجمع حضور طوبى في الوجدان بين الرجاء والطيب والقرب من الله. ويمكن أن يحمل هذا المعنى القارئ على العمل الحسن دون أن يحتاج إلى قياس أغصان الشجرة أو تحويل أوصافها إلى وحدات فلكية. فالغرض معرفة موضع الخبر والاتعاظ به في حدود ثبوته.

بين معنى اللفظ وخبر الشجرة

سورة الرعد، الآيات ٣٠-٣٥.

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُفِّرَ بِهِ الْمَوْتُ قُلْ بَلِ اللَّهُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَبْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَى بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾

﴿أَفَنَنْتَ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾

﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٣٤﴾

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ^ط تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ^ط أُكْلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا^ج تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا^ط وَعُقْبَى^ط الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ ﴿٣٥﴾

يتسع السياق إلى رسالة النبي وتلاوة الوحي، واعتراض المكذبين وطلبهم الخوارق، مع تقرير أن الأمر كله لله. ثم يذكر الحساب وعاقبة التقوى ووصف الجنة الدائمة؛ فتقع بشارة طوبى في أفق الهداية وحسن المصير، قبل النظر في الأخبار التي تفسرها أو توسع وصفها.

بهذا السياق تتضح منزلة البشارة، ويصبح الانتقال إلى أخبار الشجرة انتقالاً معلوم المصدر. أقرأ كل خبر بلفظه وطريقه، وأعرض ما يتصل به من تفسير أو تطبيق مع نسبته إلى قائله.

ويأتي خبر أبي عبيدة مثلاً لهذه القراءة؛ أثبت متنه أولاً، ثم أبين موضعه وحدود مقابله. وتظل محبة أهل البيت عليهم السلام حاضرة في تلقي المأثور، وتظهر العناية به في حفظ عبارته ونسبته.

خبر أبي عبيدة في تفسير القمي

ورد في تفسير القمي عند الآية التاسعة والعشرين من سورة الرعد، بطريق أبيه عن الحسن بن محبوب، عن علي بن رباب، عن أبي عبيدة، عن أبي عبد الله عليه السلام:

«طوبى شجرة في الجنة في دار أمير المؤمنين عليه السلام وليس أحد من شيعته إلا وفي داره غصن من أغصانها وورقة من أوراقها يستظل تحتها أمة من الأمم».

نقلت هذا المتن كما ورد في الموضع الذي راجعته، وأبقيت صورة الاسم «رياب» على رسم المصدر المعروض. فالمراجعة هنا تثبت موضع النص وطريقه المطبوع؛ ولا تعني حكماً مستقلاً على جميع رجال الطريق أو على جميع مواد الكتاب المنسوب إلى القمي. وتصل صورة الأغصان والظل، في التأمل الأدبي، بين القرب والرحمة والاجتماع، دون تحويل وصف الغيب إلى قياس لنبات الدنيا.

[المصدر المباشر للمتن: تفسير القمي، تفسير سورة الرعد ٢٨-٢٩ \[ت ٨\].](#)

خبر البشارة في الخرائج والجرائح

يروى قطب الدين الراوندي خبراً في تزويج أمير المؤمنين بالسيدة فاطمة عليهما السلام، ترد فيه بشارة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأمر رضوان بهز شجرة طوبى، ورقاع تتصل بحبة أهل البيت والبراءة من النار. وقد راجعت الخبر الحادي عشر في الجزء الثاني، الصفحة ٥٣٦، من الخرائج والجرائح مباشرة [ح ٢٥].

يبدأ الموضع بعبارة «ومنها: أن النبي»، ولا يسوق قبل هذا الخبر سلسلة رواة متصلة. وتذكر حاشية التحقيق شواهد في كتب أخرى؛ فهذه إحالات للبحث اللاحق، لم أستكمل دراسة طرقها هنا. كما تختلف ألفاظ الموضع عن صيغة الميزان في بعض الكلمات؛ من ذلك «استقرت» في الخرائج و«استوت» في الميزان. لذلك نسبت كل نقل إلى مصدره، وبقي تقويم الطرق مستقلاً عن تحقق موضع الخبر.

[المصدر المباشر: الخرائج والجرائح، ج ٢، ص ٥٣٦، الخبر ١١ \[ح ٢٥\].](#)

إحالات الفصل: سورة الرعد ٢٨-٢٩؛ تفسير القمي، موضع سورة الرعد ٢٩ [ت ٨]؛ الميزان، تفسير سورة الرعد ٢٧-٣٥، البيان والبحث الروائي [ت ٦]؛ الخرائج والجرائح، ج ٢، ص ٥٣٦، الخبر ١١ [ح ٢٥].

الفصل السبعون: الزقوم والضريع

صورة تقابل النعيم

سورة الصافات، الآيات ٦٢-٦٨.

﴿أَذِلَّكَ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ ﴿٦٢﴾

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ ﴿٦٣﴾

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ ﴿٦٤﴾

﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ ﴿٦٥﴾

﴿فَإِنَّهُمْ لَا كُلُونَ مِنْهَا فَمَا لَوْنَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ ﴿٦٦﴾

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ ﴿٦٧﴾

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرَجِعَهُمْ لِلْإِلَهِ الْجَحِيمِ﴾ ﴿٦٨﴾

تُقابل ضيافة أهل النعيم بشجرة الزقوم التي تخرج في أصل الجحيم، ويُوصف طلعها بصورة مفزعة. ثم يأكل أهل العذاب منها حتى تمتلئ البطون، ويتبع ذلك شراب من حميم والرجوع إلى الجحيم؛ فتجتمع رهبة الطعام والشراب والمآل في مشهد واحد.

ترد هذه الصورة في مقام الوعيد، فتستدعي ما يعرفه الإنسان من الطعام لتكشف شدة الحرمان والعذاب. وأقرأ أوصاف الزقوم ضمن الخبر عن الآخرة، وأميزها من وصف النباتات التي تُعاین في الدنيا.

طعام لا يريح

سورة الغاشية، الآيات ٦-٧.

﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ ﴿٦﴾

﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ ﴿٧﴾

يوصف طعام أصحاب العذاب بالضريع الذي لا يمنح سمناً ولا يدفع الجوع. وتتضح شدة الصورة من انقلاب ما ينتظره الإنسان من الطعام: يتناول شيئاً فلا يجد فيه نفع الغذاء ولا راحة الشبع.

يظهر معنى الحرمان من غياب الأثر الذي يرجوه الجائع من الطعام. ويكفي هذا الوجه لفهم موقع الضريع في المشهد، مع إبقاء تعيين حقيقته الأخروية عند حدود ما أخبر به النص.

الاسم الدنيوي والغيب

قد تسمي بعض البيئات نباتاً باسم يوافق اسماً في نصوص الآخرة، لكن الاشتراك اللفظي لا يثبت الاتحاد. لذلك لا نقدم صوراً لنباتات برية بوصفها صور الزقوم أو الضريع الأخرويين، ولا نستخرج منها وصفات أو اختبارات.

خاتمة المسار

بدأت الحكاية بحجة في الأرض، وانتهت إلى صور الثواب والعقاب. وفي الطريق ظهر أن النبات ليس موضوعاً جانبياً في حياة الإنسان؛ إنه رزق وعمل ومثل وموضع تأمل. وتبقى العبرة أن يحمل الإنسان معرفته إلى سلوك يليق بالنعمة وبمسؤوليته عنها.

نهاية الحكاية وسؤال الانتفاع

سورة الدخان، الآيات ٤٣-٤٦.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ﴾ ﴿٤٣﴾

﴿طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ ﴿٤٤﴾

﴿كَأُلْهَلٍ يَغِي فِي الْبُطُونِ﴾ ﴿٤٥﴾

﴿كَغَلِي الْحَمِيمِ﴾ ﴿٤٦﴾

تُسمى شجرة الزقوم طعام الأثيم، ثم يُشبه ما يحدث في البطن بغليان المهل والحميم. والغرض تصوير شدة العذاب، فلا تُحمل هذه الأوصاف الأخروية على تجربة نباتية أرضية أو خصائص طعام مألوف.

سورة الواقعة، الآيات ٥١-٥٥.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾ ﴿٥١﴾

﴿لَا تَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُومٍ﴾ ﴿٥٢﴾

﴿فَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ ﴿٥٣﴾

﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ﴾ ﴿٥٤﴾

﴿فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهَمِيمِ﴾ ﴿٥٥﴾

يُخاطب الضالون المكذبون بأنهم سيأكلون من شجر الزقوم حتى تمتلئ البطون، ثم يشربون الحميم شرب الهيم. وتتابع الحاجة إلى الطعام والماء من غير أن تفضي إلى راحة، فيكتمل معنى الوعيد بانقلاب أسباب الارتواء والشبع.

يجمع ختام هذه الرحلة وجوهاً شتى لحضور النبات في القرآن: قوتاً ونعمة، ومثلاً يوقظ القلب، وشاهداً في قصة، وصورة في الوعد والوعيد. وتتضح دلالة كل وجه بموضعه، فيتسع النظر من الاسم إلى المعنى الذي يحمله في حياة الإنسان ومصيره.

وعند العودة من هذه النهاية إلى الحبة الأولى تجتمع أسئلة الكتاب: كيف نظر الإنسان إلى النعمة، وكيف عمل فيها، وكيف حفظ حقوق من شاركوه الانتفاع بها؟ ومن هذه الأسئلة تنشأ الخاتمة، لتصل ما تعلمناه في الصفحات بما نحمله إلى الحديقة والمائدة وحياة الناس.

إحالات الفصل: سورة الصافات ٦٢-٦٨؛ سورة الدخان ٤٣-٤٦؛ سورة الواقعة ٥١-٥٥؛ سورة الغاشية ٦-٧.

الخاتمة: ما الذي علمتني إياه حكاية النبات؟

كلما عدت إلى النبات وجدته قريباً من الإنسان من وجوه لم أكن أراها أول مرة. كنت أنظر إلى الثمرة، ثم تعلمت أن أرى الشجرة؛ وأنظر إلى الشجرة، ثم ألفت إلى التربة والماء واليد التي ترعاها. ومع القراءة في القرآن والرواية اتسع المشهد، فصار النبات مدخلاً إلى شكر الخالق، وفهم بعض أحوال النفس، والتفكير في العدل بين الناس.

لم تبدأ علاقتي بهذا العالم من ادعاء الاختصاص في كل علومه. بدأت بحبة، ثم غدتها دراسة الزراعة في المرحلة المتوسطة، ودراسة الأحياء وعلم النبات في الإعدادية بالقسم العلمي، ودراسة صحة المجتمع في المعهد التقني الطبي بحافظة الديوانية. وقد علمتني هذه الرحلة أن السؤال الجيد قد يكون أنفع من جواب متعجل، وأن الوقاية تحتاج إلى معرفة صادقة تصل إلى الناس بلغة يفهمونها.

وأستعيد هنا فضل مدرسي الأحياء، ولا سيما الأستاذ كامل، مدرس مادة الأحياء في إعدادية الحمزة، وكل من جعل العلم قريباً من العين واليد. فرب درس صغير يترك في النفس غرساً يظل ينمو بعد سنوات طويلة. ورب معلم لا يعرف أن كلمة قالها صارت عند تلميذه باباً للكتاب أو تجربة أو عمل نافع.

من العراق إلى أستراليا بقيت الزراعة لغة أنس وتعلم. غير أن الحديقة علمتني أيضاً حدود الإرادة: لا يكفي أن أحب النبات لينجح، ولا أن أنجح مرة لأفهم كل شيء. ولعل هذا من أجمل ما يجمع العلم بالأدب؛ أن يظل الإنسان راغباً في المعرفة، مستعداً لتصحيح ما ظنه مستقراً.

وقد حاولت في هذا الكتاب أن أعطي لكل معرفة اسمها: الآية آية، والرواية رواية، والتفسير رأي منسوب إلى صاحبه، والمعلومة العلمية قابلة للفحص، وأنا مسؤول عما أقدمه من تأمل شخصي. وما بقي محتاجاً إلى تحقيق سجلته في موضعه، لأن حب أهل البيت عليهم السلام لا يغني عن صدق النقل عنهم، ولأن احترام العلم لا يجيز المبالغة في نتائجه.

إذا خرج القارئ من هذه الصفحات أكثر انتبهاً إلى نعمة الطعام، وأكثر رفقاً بالأرض، وأشد احتراماً للعامل، وأكثر تمييزاً بين الدليل والدعوى، فقد تحقق للكتاب شيء من غايته. وما أرجوه أن تستمر حكاية النبات في أيدي من يزرعون، وفي عقول من يتعلمون، وفي قلوب من يشكرون.

اللهم اجعل علمنا نافعا، وعملنا صالحا، وارزقنا صدق الكلمة، وحسن الانتفاع بنعمك، والوفاء بحقوق عبادك.
والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين.

السيد حسام زهاء مرتضى الصراف الحسيني

حكاية النبات – مراجعة ٢٠٢٦م.

الملاحق

جمعت هذه الملاحق لتيسير قراءة المتن ومراجعته. وجعلت الأرقام فيها إحالات إلى الفصول، والرموز إحالات إلى المصادر التي تليها. وهي أدلة إلى المادة التي تناولتها، وأرجو أن تعين القارئ على الرجوع إليها ومتابعة البحث فيها.

الملحق الأول: معجم النباتات والمواد النباتية

- الأب: لفظ فُسر بالكلاء والمرعى؛ ليس اسماً علمياً لنوع واحد. موضعه: الفصل ٢١.
- الأثل: اسم ورد في قصة سبأ؛ لا يثبت سياق القصة انعدام نفعه في سائر البيئات. موضعه: ١٨ و ٤٣.
- الأراك: اسم ورد ضمن الأقوال المنقولة في تفسير النخطة، مع بيان اختلاف التعيين. موضعه: ١٨.
- الأرز: من عناوين أبواب الطعام في الكافي؛ لم يتناول المتن تقويم أخباره تفصيلاً. موضعه: ٤٧.
- البصل: ورد في سورة البقرة، وله باب في أخبار الأطعمة. موضعه: ١٧ و ٣٠ و ٤٨.
- البقل: اسم عام للخضر في عدد من السياقات القديمة، ويختلف عن الاصطلاح الحديث للبقوليات. موضعه: ١٧ و ٤٨.
- التفاح: ورد ضمن أسماء أبواب الطعام وأخبار فواكه الجنة؛ لا ينسب إلى الشجرة المنهي عنها في القرآن. موضعه: ٢٥ و ٤٧ و ٥٢.
- التين: مذكور في مطلع سورة التين، وله خبر في الكافي عُرض مع تقويمه. مواضعه: ١٢ و ١٤ و ٣٧ و ٤٧.
- الثوم: أحد القولين في تفسير الفوم، وله حضور في أبواب الطعام. موضعه: ١٧ و ٤٨.
- الحب: لفظ عام للمحصول الحبيّ بحسب السياق؛ لا يلزم أن يراد به القمح في كل موضع. موضعه: ٤ و ١٦.
- الحنطة والقمح: اسمان للمحصول نفسه؛ ورد القمح مثلاً في عرض الحبوب، والحنطة أحد الأقوال في تفسير الفوم، ومن التعيينات المنقولة للشجرة المنهي عنها دون الجزم بها. مواضع الشرح: ١٦ و ١٧ و ٢٥.

الحناء: مادة وردت في مبحث النظافة والزينة وصلته بالنبات. موضعه: ٥٧.

الخردل: استعملت حبته في بيان الإحاطة والدقة في الحساب. موضعه: ٢٠.

الخط: اسم مختلف في تعيينه، ورد في خبر سبأ. موضعه: ١٨ و ٤٣.

الرمان: ورد في وصف رزق الدنيا ونعيم الآخرة، وفي أخبار الطعام؛ ومن ألفاظ الخبر في فواكه الجنة «الرمان الأمليسي». مواضع الشرح: ١٥ و ٤٧ و ٥٢ و ٦٨.

الريحان: قد يدل على النبات الطيب الرائحة أو معنى أوسع بحسب السياق؛ لا يحصر آلياً في نوع متداول اليوم. مواضع الشرح: ١٦ و ٢١ و ٤٩.

الزنجبيل: ورد في وصف شراب الأبرار، وله استعمال غذائي دنيوي لا يطابق بالضرورة الموصوف الأخرى. موضعه: ٢٢.

الزيتون: شجرة وثمر ودهن، واسم حاضر في آية سورة النور. موضعه: ١٢.

الزقوم: شجرة مذكورة في وصف العذاب؛ لا يثبت تطابقها مع نبات أرضي يحمل اسماً مشابهاً. موضعه: ٤٦ و ٧٠.

السدر: ورد في سورة سبأ وفي وصف النعيم، ويتصل اسمه بسدره المنتهى. موضعه: ١٨ و ٥٧ و ٦٥ و ٦٨.

السواك: ورد في مبحث النظافة والزينة، مع التمييز بين العادة ودليل الحكم المنسوب إليها. موضعه: ٥٧.

السفرجل: من عناوين أبواب الأطعمة، ومن الثمار المذكورة في أول خبري فواكه الجنة المقابلين في الفصل ٥٢. وقد نقلت تقويم الخبر في موضعه. موضعه: ٤٧ و ٥٢.

الشعير: ورد مثلاً عند شرح عموم لفظ الحب. موضعه: ١٦.

الضريع: مذكور في وصف طعام أهل العذاب. موضعه: ٧٠.

الطلح: ورد منصوداً في وصف النعيم، ونقل المفسرون خلافاً في تعيينه. موضعه: ٦٨.

طوبى: وردت في البشارة القرآنية، وتصفها أخبار بأنها شجرة في الجنة؛ عرضت المعنى والروايات ومصادرها في الفصل ٦٩.

العدس: ورد في سورة البقرة، وُجِّعت أخباره في باب مستقل في الكافي. موضعه: ١٧ و ٣٠ و ٤٧ و ٥٢.

العنب: اسم الثمر والكرم في السياق، وله حضور في الرزق والأمثال. موضعه: ١٣ و ٤١.

الفوم: مختلف فيه بين الثوم والحنطة في التفسير المذكور. موضع الشرح: ١٧؛ وسياق قصة بني إسرائيل: ٣٠.

القثاء: من طعام الأرض المذكور في سورة البقرة، ويحتاج ضبط اسمه الحديث إلى مراعاة اللغة والاستعمال المحلي. مواضع الشرح: ١٧ و ٣٠ و ٤٨.

القرع: من الأسماء المشهورة في تفسير اليقطين، دون تعيين صنف معاصر بعينه. موضعه: ١٩ و ٣٢.

القضب: ما يُقضب، أي يُقطع، من النبات وفق وجوه التفسير؛ لفظ عام لا يعين نوعاً نباتياً واحداً. موضعه: ٢١.

القطن والكان: مادتان نباتيتان عُرضتا مثالين في مبحث اللباس والانتفاع، مع إحالة إلى المصدر الفقهي المتعلق بهما. موضع الشرح: ٥٨.

الكافور: اسم في وصف شراب النعيم، ومادة في أحكام التجهيز؛ لا يجمع السياقان في استعمال واحد. موضعه: ٢٢ و ٥٧.

اللينية: لفظ الآية في قطع بعض النخل والإبقاء على بعضه. موضعها: ٣٤ و ٥٩.

الموز: أحد الأقوال المنقولة في تفسير الطلح، مع حفظ الخلاف في التعيين. موضعه: ٦٨.

النخل: وردت معه ألفاظ الطلع والقنوان والرطب والجذع؛ تحيل هذه الألفاظ إلى أجزاء أو أحوال مختلفة. من مواضع عرضه الرئيسة: ١١ و ٣٣ و ٣٤ و ٣٦.

الورد: حضر في أخبار الرياحين، أما «وردة كالدهان» فوضع تشبيه للسماء، لا إثبات لقائمة أزهار. موضعه: ٢٤ و ٤٩.

اليقطين: ورد في قصة يونس، واشتهر تفسيره بالقرع دون حصره في صنف سوقي معاصر. موضعه: ١٩ و ٣٢.

أسماء أخرى مذكورة في خريطة أبواب الأطعمة: الباذنجان، والرجلة، والخس، والسلق، والكرفس، والكراث، والكزبرة، والهندباء. موضعها: ٤٨. ولم تُنسب إليها منافع علاجية في هذا المعجم.

الملحق الثاني: أجزاء النبات وأوصافه

البذرة: وحدة تكاثر في النباتات البذرية تضم جنيناً وما يحيط به من أغلفة، وقد تضم أنسجة غذائية. موضع الشرح: ٠٤.

الجذر: عضو يؤدي وظائف منها تثبيت النبات والامتصاص، وقد تتنوع صوره ووظائفه. موضع الشرح: ٠٥.

الساق والغصن: يحملان أعضاء نباتية ويرتبطان بالنقل والدعامة؛ والغصن فرع في البناء العام. موضع الشرح: ٠٥.

الورقة: عضو يشيع فيه البناء الضوئي وتبادل الغازات، مع اختلافات بين النباتات. موضع الشرح: ٠٦.

الزهرة: بنية تكاثر في النباتات الزهرية، ولا توجد في جميع المجموعات النباتية. موضع الشرح: ٠٧.

الثمرة: تتكون في النباتات الزهرية من المبيض عادة، وقد تشاركها أنسجة أخرى؛ ولا يساوي معناها العلمي جميع ما يسمى فاكهة على المائدة. موضع الشرح: ٠٨.

الطلع والقنوان والأكام والسنابل: ألفاظ تحفظ في سياقاتها، ولا تستبدل بتسميات حديثة دون شرح. موضع الشرح: ١١ و ١٦ و ٢٤.

العصف والمهشم والخطام والغشاء: أوصاف ترتبط بأجزاء أو أحوال وصور مختلفة، وتحدد دلالتها في كل آية بحسب السياق. مواضع الشرح: ١٠ و ١٦ و ٢١ و ٢٤ و ٤٠.

تنبيه مصطلحي: الثمرة ليست البذرة، والتلقيح ليس الإخصاب، والطعم في التطعيم ليس الطعام. تُقرأ هذه الفروق مع الفصول المخصصة لها.

الملحق الثالث: دليل الأسماء النباتية الصريحة في الآيات المستعملة

التين والزيتون: سورة التين ١؛ ويتكرر الزيتون في سورة الأنعام ٩٩ و ١٤١، وسورة النحل ١١، وسورة النور ٣٥، وسورة عبس ٢٩.

النخل: سورة الأنعام ٩٩ و١٤١؛ سورة النحل ١١ و٦٧؛ سورة مريم ٢٣-٢٥؛ سورة ق ١٠؛ سورة الرحمن ١١ و٦٨؛ سورة عبس ٢٩.

العنب: سورة الأنعام ٩٩؛ سورة النحل ١١ و٦٧؛ سورة الكهف ٣٢؛ سورة يس ٣٤؛ سورة عبس ٢٨.
الرمان: سورة الأنعام ٩٩ و١٤١؛ سورة الرحمن ٦٨.

البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل: سورة البقرة ٦١.

السدر والأثل والتمط: سورة سبأ ١٦؛ والسدر في سورة الواقعة ٢٨؛ والسدر في سورة النجم ١٤ و١٦.

اليقطين: سورة الصافات ١٤٦. الخردل: سورة الأنبياء ٤٧؛ سورة لقمان ١٦.

الريحان: سورة الرحمن ١٢؛ سورة الواقعة ٨٩. القضب: سورة عبس ٢٨. الأب: سورة عبس ٣١.

الكافور والزنجبيل: سورة الإنسان ٥ و١٧.

الطلح: سورة الواقعة ٢٩. الزقوم: سورة الصافات ٦٢؛ سورة الدخان ٤٣؛ سورة الواقعة ٥٢. الضريع: سورة الغاشية ٦.

الليثة: سورة الحشر ٥؛ تتصل في التفسير بالنخل، ويحفظ لفظ الآية في التوثيق.

ضبط القائمة: ورود اسم لا يحسم دائماً النوع النباتي الحديث. وليست طوبى في لفظ الآية تصريحاً بأنها شجرة؛ وتأتي الشجرة في الروايات. كما لم يسم القرآن نوع الشجرة المنهي عنها أو شجرة النداء أو شجرة البيعة.

الملحق الرابع: دليل الألفاظ العامة والمشاهد النباتية

الزرع والحرث: غذاء وعمل وموضع حق أو مثال؛ راجع ١ و١٦ و٢٨ و٣١ و٥٣-٥٦.

الجنة والحديقة: قد تدلان في السياق على بستان دنيوي، وقد تأتي الجنة في وعد الآخرة؛ راجع ٢٣ و٤١-٤٣ و٦٨.

الحب والسنابل: رزق وصورة للمضاعفة وعناصر في رؤيا يوسف؛ راجع ٤ و١٦ و٢٨ و٣٩.

الشجرة غير المسماة: في قصة آدم، ونداء موسى، وبيعة النبي؛ راجع ٢٥ و٢٩ و٣٤.

الورق والطلع والأكام: أجزاء وأوصاف في مواضع مختلفة؛ راجع ١١ و ٢٤ و ٢٥.

المرعى والكلأ: ينتفع بهما غير الإنسان أيضاً؛ راجع ٢١ و ٦٢.

الخشب والألواح والخطب: مواد أو أجزاء في الاستعمال والسر؛ راجع ٢٤ و ٢٦ و ٥٨.

الشجرة في المثل والرمز: لا تعامل تلقائياً بوصفها مدخلاً في التصنيف النباتي؛ راجع ٣٨ و ٤٦ و ٦٩.

الملحق الخامس: سجل الروايات المستعملة

أبين في هذا السجل موضع كل خبر وما أنجزته من مراجعته. وحين أقول إنني تحققت من موضعه، أعني أنني اطلعت على نصه أو على نقله الذي أوضحت مصدره؛ أما الحكم على سنده فله بحته المستقل.

الحث على الزرع والغرس: الكافي، ج ٥، باب فضل الزراعة، الحديث ٣ [ح ١]. راجعت موضعه، ورجعت إلى حكم المجلسي عليه في مرآة العقول [ح ١٧]؛ راجع بطاقة التوثيق أدناه.

اختيار الحرث للأنبياء: الباب نفسه، الحديثان ١ و ٢. في أحد الطريقتين واسطة غير مسماة، وفي الآخر رفع؛ أوردت هذين الطريقتين لبيان ما يحتاج إلى تحقيق، ولم أبن عليهما تاريخاً لجميع الأنبياء.

الزيت والشجرة المباركة: الكافي، ج ٦، باب الزيت والزيتون، الحديث ١ [ح ٢]. راجعت المتن وطريقه في الصفحة ٣٣١، ونقلت تقويم المجلسي في مرآة العقول [ح ٢٦]، مع إبقاء البحث الصحي في مجاله.

أخبار العنب والرمان والتين: أبوابها في كتاب الأطعمة [ح ٣-٥]. نقلت تقويم المجلسي لخبر العنقود من باب العنب، وخبر ألوان الفاكهة من باب الرمان، وخبر التين [ح ١٨، ح ٢١، ح ٢٢]. يتعلق التوثيق بهذه الأخبار المعينة، ولا يشمل جميع مرويات الأبواب.

غرس أمير المؤمنين وأخبار العمل في الأرض: الكافي، ج ٥، باب الاقتداء بالأئمة في التعرض للرزق، الأحاديث ٧ و ٩ و ١٠ و ١١ و ١٣ [ح ٦]. راجعت تقويم المجلسي لهذه الأخبار في مرآة العقول، ج ١٩، ص ١٨-٢٠ [ح ٢٨]، وربطت كل تقويم بخبره في الفصول ٣٤ و ٣٦ و ٣٧.

الشجرة في القاصعة: نهج البلاغة [ح ٧]. راجعت موضع الخبر في النص، ولم أستقص طرقه الخارجية.

حنين الجذع: البيهقي، الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد [ح ٨]. إحالة مقارنة إلى نص تراثي من خارج المدونة الإمامية.

وقف ينبع: الكافي، ج ٧، كتاب الوصايا، الحديث ٩، ص ٥٤-٥٥ [ح ٩]. رجعت إلى الكافي مباشرة، وراجعت بداية الخبر وتمتته وشرط الصدقة الوارد فيه.

البقل على المائدة: الكافي، ج ٦، باب البقول، الحديث ٢ [ح ١٠]. راجعت تقويم المجلسي له في مرآة العقول، مع تمييزه من الحديث الأول [ح ٢٣]؛ راجع الفصل ٤٨.

العدس وإنكار عدد متداول من الأنبياء: باب العدس، الحديث ٤ [ح ١١]. نقلت تقويم المجلسي «مجهول وآخره مرسل» [ح ٢٤]، وفصلت الحوار عن صيغة النقل التي تعقبه؛ راجع الفصل ٥٢.

فواكه الجنة في الدنيا: أبواب الفواكه، الحديثان ١ و ٢، ص ٣٤٩-٣٥٠ [ح ١٢]. فصلت المتنين والعديد، ونقلت تقويم المجلسي لهما من مرآة العقول [ح ٢٠]؛ راجع الفصل ٥٢.

الرياحين: الكافي، ج ٦، باب الرياحين [ح ١٣]. راجعت أحكام المجلسي على أحاديث الباب الخمسة، وفصلت الحديث الرابع في مشهد الوعاء عن الخامس في الثواب [ح ١٩].

الماء وإحياء الموات: الكافي، ج ٥، البابان المختصان [ح ١٤، ح ١٥]. إحالتان إلى موضوعين روائيين، وليستا فتوى مستخرجة من خبر منفرد.

بركات الأرض في زمن القائم: المفيد، الإرشاد، ج ٢، ص ٣٨٤ [ح ١٦]. راجعت الموضع، ولم أستخرج منه توقيتاً أو توقعاً زراعياً.

طوبى وصلتها بأهل البيت: راجعت خبر أبي عبيدة في تفسير القمي عند سورة الرعد ٢٩ [ت ٨]، وخبر البشارة في الخرائج والجرائح، ج ٢، ص ٥٣٦ [ح ٢٥]، مباشرة. واستعنت ببحث الميزان [ت ٦] في المقارنة التفسيرية.

بطاقة توثيق: الحث على الزرع والغرس

الموضع: الكافي، ج ٥، باب فضل الزراعة، الحديث ٣ [ح ١]؛ الشرح في الفصل ٥٣. الطريق يمر بسيابة عن أبي عبد الله عليه السلام. راجعت تقويم المجلسي في مرآة العقول، ج ١٩، ص ٣٣١، فوجدت وصفه «مجهول» [ح ١٧]. هذا نقل لحكمه على الخبر، وليس تصحيحاً مستقلاً ولا تقريراً لاتفاق جميع الباحثين.

بطاقة توثيق: إصلاح الزرع وحق الحصاد

الموضع: باب فضل الزراعة، الحديث ٦ [ح ١]؛ الشرح في الفصل ٥٦. الطريق: علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن النوفلي، عن السكوني، عن أبي عبد الله عليه السلام. تقويم المجلسي: «ضعيف على المشهور وآخره مرسل»، مرآة العقول، ج ١٩، ص ٣٣٢ [ح ٢٧]. راجعت تمة الموضع في ص ٣٣٤، وبينت صيغة النقل الأخرى في آخره. اقتبست جزء الجواب المتعلق بالزرع، ولم أستخرج منه مقداراً فقهياً للحق الواجب.

بطاقة توثيق: انتفاع الطير والبهائم

الموضع: باب فضل الزراعة، الحديث ٥ [ح ١]؛ الشرح في الفصل ٦٢. في الطريق واسطة بلفظ «عن بعض أصحابنا»، ثم النقل عن أبي جعفر عليه السلام بقوله «كان أبي يقول». وصفه المجلسي بأنه «مرسل»، في مرآة العقول، ج ١٩، ص ٣٣٢ [ح ٢٧]. أوردت المقتطف المتعلق بأكل البهائم والطير مع بيان موضعه وحال طريقه في التقويم المنقول.

بطاقة توثيق: الزيت والشجرة المباركة

الموضع: الكافي، ج ٦، باب الزيت والزيتون، الحديث ١، ص ٣٣١ [ح ٢]؛ الشرح في الفصل ١٢. يورد المصدر طريقين ينتهيان إلى ابن القداح عن أبي عبد الله عليه السلام، ويختتم الثاني بلفظة «مثله». تقويم المجلسي: «ضعيف على المشهور وآخره موثق»، مرآة العقول، ج ٢٢، ص ١٦١ [ح ٢٦]. أبقيت عبارة التقويم كاملة، وميزت بين دراسة الطريقين وقراءة دلالة المتن.

بطاقة توثيق: عنقود الإمام علي بن الحسين

الموضع: الكافي، ج ٦، باب العنب، الحديث ٣ [ح ٣]؛ الشرح في الفصل ١٣. الطريق: علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن هشام بن سالم. تلخصت المتن مع حفظ تكرار الإعطاء ثلاث مرات والأكل في الرابعة. وصفه المجلسي بأنه «حسن» في مرآة العقول، ج ٢٢، ص ١٨٨ [ح ٢١].

بطاقة توثيق: ألوان الفاكهة والرمان

الموضع: الكافي، ج ٦، باب الرمان، الحديث ٢ [ح ٥]؛ الشرح في الفصل ١٥. الطريق: علي بن إبراهيم، عن هارون بن مسلم، عن مسعدة بن زياد، عن أبي عبد الله عليه السلام. تقويم المجلسي: «حسن أو موثق»، مرآة العقول، ج ٢٢، ص ١٩١ [ح ٢٢]. حفظت العدد ولفظ «لون» في النقل، ولم أحولهما إلى إحصاء علمي للأنواع النباتية.

بطاقة توثيق: حمل النوى وغرسه

الموضع: الكافي، ج ٥، باب الاقتداء بالأئمة في التعرض للرزق، الحديث ٩، ص ٧٥ [ح ٦]؛ الشرح في الفصل ٣٦. الطريق: يربس هل بن زياد وابن محبوب وعبد الله بن سنان. وصفه المجلسي بأنه «ضعيف على المشهور»، مرآة العقول، ج ١٩، ص ١٩ [ح ٢٨]. أوردت عبارة «نخل إن شاء الله» في سياقها، ولم أجمع معها أعداداً من أخبار أخرى.

بطاقة توثيق: المسحاة وفتح الماء

الموضع: الباب نفسه، الحديث ١١، ص ٧٦ [ح ٦]؛ الشرح في الفصل ٣٧. الطريق: محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن ابن سنان، عن إسماعيل بن جابر. تقويم المجلسي: «ضعيف على المشهور»، مرآة العقول، ج ١٩، ص ١٩ [ح ٢٨]. أبقيت اسم «ابن سنان» كما ورد في المصدر، وميزت هذا الخبر من خبر أبي عمرو الشيباني، الحديث ١٣، الذي وصفه المجلسي بأنه «مجهول» في ص ٢٠.

بطاقة توثيق: البقل وعلة الراوي

الموضع: الكافي، ج ٦، باب البقول، الحديث ٢ [ح ١٠]؛ الشرح في الفصل ٤٨. الطريق: علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن حنان. تقويم المجلسي: «حسن أو موثق»، مرآة العقول، ج ٢٢، ص ٢٠٤ [ح ٢٣]. احتفظت بذكر علة الراوي دون تعيين مرض لم يسمه الخبر، وقرأت خضرة القلوب في سياق الصورة الوعظية.

بطاقة توثيق: العدس والقول المتداول

الموضع: الكافي، ج ٦، باب العدس، الحديث ٤ [ح ١١]؛ الشرح في الفصل ٥٢. الحوار من رواية محمد بن الفيض، وتليه صيغة تبدأ بـ«وروي». فصلت بينهما، ونقلت تقويم المجلسي للحديث: «مجهول وآخره مرسل»، مرآة العقول، ج ٢٢، ص ١٧٨ [ح ٢٤].

بطاقة توثيق: الخضبة والريحان

الموضع: الكافي، ج ٦، باب الرياحين، الحديث ٤، ص ٥٢٥ [ح ١٣]؛ الشرح في الفصل ٤٩. الطريق يمر بأحمد بن أبي عبد الله والحسن بن علي بن يقطين ويونس بن يعقوب. وصفه المجلسي بأنه «موثق» في مرآة العقول، ج ٢٢، ص ٤٣٥ [ح ١٩]. حفظت معنى الخضبة بوصفها وعاء، ولم أنسب إلى المشهد نوعاً معاصراً أو أثراً علاجياً.

بطاقة توثيق: بركات الأرض في الإرشاد

الموضع: الإرشاد، ج ٢، ص ٣٨٤ [ح ١٦]؛ الشرح في الفصل ٦٦. صيغة النقل في الموضع: علي بن عقبة، عن أبيه. لا تصرح العبارة هنا باسم إمام يروي عنه الأب، فلم أضف اسماً إلى الطريق. المقتبس صدر خبر أطول، وليس نصه الكامل أو تقويماً نهائياً لسنده.

بطاقة توثيق: التين وتقويم الخبر

الموضع: الكافي، ج ٦، باب التين، الحديث ١ [ح ٤]؛ والفصل ١٤. راجعت شرح المجلسي في مرآة العقول، ج ٢٢، ص ١٩٩ [ح ١٨]، وحفظت حكمه المركب كما ورد. ما بقي: دراسة الطرق والدلالة تفصيلاً؛ ولا يحل هذا العمل الحديثي محل التحقق الطبي من دعوى علاجية.

بطاقة توثيق: صدقة عين ينبع

الموضع: الكافي، ج ٧، كتاب الوصايا، الحديث ٩، ص ٥٤-٥٥ [ح ٩]؛ والفصل ٣٦. راجعت بداية الخبر وتمته، وأوردت مقتطف شرط الصدقة من المصدر مباشرة. ولم أستقص جميع طرق الخبر أو اختلاف نسخه.

بطاقة توثيق: العددان في أخبار الفواكه

الموضع: الكافي، ج ٦، ص ٣٤٩-٣٥٠ [ح ١٢]؛ والفصل ٥٢. الأول يذكر خمسة أصناف، والثاني أربعة؛ والسفرجل في الأول وحده. نقلت تقويم المجلسي للخبرين من مرآة العقول، ج ٢٢، ص ١٨٧ [ح ٢٠]. ما بقي: تحقيق أسماء الأصناف واختلاف ضبطها ومقارنة الطرق الأخرى.

بطاقة توثيق: خبر طوبى في تفسير القمي

الموضع: تفسير القمي، سورة الرعد ٢٩، خبر أبي عبيدة [ت ٨]؛ والفصل ٦٩. راجعت المتن وطريقه في النص الرقي مباشرة. أحلت بالسورة والآية، دون إسناد رقم صفحة إلى طبعة لم أراجعها. لا يشمل هذا التحقق جميع أخبار طوبى أو تقويم أسانيد الكتاب.

بطاقة توثيق: خبر البشارة في الخرائج

الموضع: الخرائج والجرائح، ج ٢، ص ٥٣٦، الخبر ١١ [ح ٢٥]؛ والفصل ٦٩. راجعت النص الرقي مباشرة وقارنته بنقل الميزان [ت ٦]. لم يسق الموضع سلسلة رواة لهذا الخبر؛ وبقي تحقيق الطرق والشواهد الواردة في حاشيته عملاً مستقلاً.

الملحق السادس: مواضع اختلاف التعيين والدلالة

القوم: الثوم أو الخنطة في التفسير المنقول؛ لم أرّج أحدهما ترجيحاً نهائياً.

القضاء: يحتاج انتقال الاسم القديم إلى اسم محصول معاصر إلى مراعاة اللغة والاستعمال المحلي.

الخط: نقل مجمع البيان عن أبي عبيدة وصفًا عامًا للشجر المر ذي الشوك [ت ٩]، واختار الطبري الأراك [ت ١٠]. عرض الفرق في الفصل ١٨، دون الجزم بمطابقة تصنيف نباتي حديث.

القضب: يرد تفسيره بما يقطع من النبات، مع اختلاف في جهة الانتفاع به.

الأب: يفسر بالكلاء والمرعى؛ لا يلزم أن يكون نوعًا واحدًا.

الريحان: يختلف اتساع دلالة باختلاف السياق؛ لا يسوى آلياً بنبات عطري واحد.

اليقطين: اشتهر تفسيره بالقرع، مع بقاء بحث عموم الاسم وعدم تعيين صنف حديث.

الطلح: نقل المفسرون الموز وغيره؛ عرضت الخلاف في فصل نعيم الجنة.

التين والزيتون في القسم: ظاهر الاسمين النباتان المعروفان، ونقلت أقوال تتصل بأماكن؛ نُسبت الأقوال إلى التفسير.

الشجرة الملعونة: خلاف بين وجه يتصل بالزقوم ووجه رمزي تاريخي؛ عرضت رأي الميزان مع المقارنة في الفصل ٤٦.

طوبى: معنى لغوي في سياق البشرى، وأخبار عن شجرة في الجنة؛ ميّزت المعنى القرآني من الرواية في الفصل ٦٩.

الشجرة المنهي عنها: لا اسم لنوعها في القرآن. وشهرة التفاح في الرسوم ليست دليلاً قرآنياً.

وردة كالدهان: تشبيه في وصف السماء؛ لا يسجل بوصفه إثباتاً لنوع زهري.

الملحق السابع: سجل الأخبار التي تحتاج إلى تحقيق أوسع

أخبار المنافع الصحية للتين والرمان وغيرهما: راجعت تقويم المجلسي لخبر التين، ولخبر ألوان الفاكهة والرمان في الفصلين ١٤ و ١٥ [ح ١٨، ح ٢٢]. بقي استكمال بحث سائر الطرق والدلالات وأخبار المنافع؛ ولم أعتمد علاجاً على أساس هذه المرويات.

أخبار أصناف الفواكه المنسوبة إلى الجنة: فصلت المتنين الأول والثاني في الكافي، ونقلت تقويم المجلسي لهما في الفصل ٥٢ [ح ٢٠]. بقي تحقيق أسماء الأصناف واختلاف نسخها واستقصاء الطرق الأخرى؛ ولم أجعل الأخبار أساساً لتاريخ المحاصيل.

خبر الثواب المفصل في الورد والريحان: عيّنت موضعه في الحديث الخامس من الباب، ونقلت وصف المجلسي له بأنه «مرسل» [ح ١٩]. بقي استقصاء طرقه وشواهد، مع الفصل بينه وبين الحديث الرابع الذي وصفه المجلسي بأنه «موثق».

أخبار طوبى: راجعت خبر أبي عبيدة في تفسير القمي [ت ٨]، وخبر البشارة في الخرائج والجرائح [ح ٢٥]، مباشرة. وأواصل البحث في طرق خبر البشارة وشواهد التي تشير إليها حاشية الخرائج، وفي سائر الأخبار ذات التفاصيل المختلفة.

التعيينات المختلفة للشجرة المنهي عنها وشجرة النداء: لا يثبت النوع بمجرد نقل قول في تفسير، وبقي تعيينه خارج المتن الجازم.

الأعداد المتداولة في غرس النخل أو فضائل الطعام: تحتاج إلى ضبط اللفظ والطريق والمراد بالعدد قبل بناء نتيجة تاريخية.

لا يعني إدراج الخبر هنا الحكم بوضعه أو بطلانه؛ فعدم اكتمال التحقيق غير ثبوت الكذب، كما أن سلامة المعنى العام غير ثبوت النسبة.

الملحق الثامن: الأنبياء والشخصيات والمشاهد

آدم وزوجه: الجنة والشجرة والورق والتوبة؛ الفصل ٢٥.

نوح: الفلك والألواح، واستعمال النباتات في وصف أصل الإنسان؛ ٢٦.

إبراهيم وهاجر وإسماعيل: الوادي غير ذي الزرع والرزق من الثمرات؛ ٢٧.

يوسف: السنايل والتخطيط لسني الشدة؛ عرض موجز في ١٦، وتتبع القصة في ٢٨.

موسى: الشجرة والعصا، وطلب بني إسرائيل طعام الأرض؛ ٢٩ و ٣٠.

داود وسليمان: الحرث الذي أصابته الغم والعدل في الحكم؛ ٣١.

يونس: اليقطين بعد المحنة؛ ١٩ و ٣٢.

مريم وعيسى: النخلة والرطب في مشهد الولادة؛ ١١ و ٣٣.

محمد صلى الله عليه وآله وسلم: البيعة تحت الشجرة وأخبار الدلائل والعمل؛ ٣٤ و ٣٥.

أمير المؤمنين عليه السلام: الغرس والعمل والوقف؛ ٣٦. وحضوره في خبر البقل: ٤٨؛ وفي أخبار طوبى:

٦٩.

أهل البيت عليهم السلام: أخبار العمل والطعام والرياحين وطوبى؛ ٣٧ و ٤٧-٤٩ و ٦٩.

أيوب وصالح وشعيب: الضغث والنخل وأصحاب الأيكة؛ المشاهد المتممة عقب الفصل ٣٧.

لقمان: حبة الخردل في الوصية؛ ٢٠. وصاحب الجنتين وأصحاب الجنة وسبأ: ٤١-٤٣.

الملحق التاسع: الأمثال النباتية ومقاصدها

الشجرة الطيبة والخبيثة: الثبات والأثر في مقابل فقد القرار؛ سورة إبراهيم ٢٤-٢٧؛ الفصل ٣٨.

الحبة والسنابل: مضاعفة أثر الإنفاق؛ سورة البقرة ٢٦١؛ ٣٩.

الصفوان والتراب: انكشاف عمل لا يثبت أمام الاختبار؛ سورة البقرة ٢٦٤؛ ٣٩.

الجنة بربوة: أثر الإنفاق مع سلامة الباعث؛ سورة البقرة ٢٦٥؛ ٣٩.

الجنة التي أصابها إعصار: الخسارة عند الحاجة؛ سورة البقرة ٢٦٦؛ ٣٩.

النبات الذي يصير هشيمًا أو حطامًا: زوال زينة الدنيا؛ سورة يونس ٢٤، وسورة الكهف ٤٥، وسورة

الحديد ٢٠؛ ٤٠.

صاحب الجنتين: الغرور بالمال ومراجعة معنى النعمة؛ سورة الكهف ٣٢-٤٤؛ ٤١.

أصحاب الجنة: منع المحتاج وانكشاف الأنانية؛ سورة القلم ١٧-٣٣؛ ٤٢.

الزراع الذي استوى على سوقه: صورة النمو والمساندة في سياقها القرآني؛ سورة الفتح ٢٩؛ ٤٤.

إحياء الأرض بعد موتها: الاستدلال على القدرة على البعث؛ سورة الحج ٥-٧، وسورة فصلت ٣٩؛ ٦٧.

الملحق العاشر: مصطلحات علمية ميسرة

الإنبات: استئناف نمو الجنين في البذرة عند توافر الشروط المناسبة؛ ليس مرادفاً لكل زيادة في حجم النبات.

البناء الضوئي: تحويل للطاقة الضوئية إلى طاقة كيميائية في سياق تكوين المركبات العضوية؛ يشرح الفصلان الثالث والسادس صورته العامة وصلته بالغذاء والنمو.

التنفس الخلوي: عمليات تستخلص بها الخلية الطاقة من المركبات؛ لا يلغيا قيام النبات بالبناء الضوئي.

التلقيح: انتقال حبوب اللقاح إلى موضع استقبالها المناسب في النبات؛ يسبق الإخصاب في المسار المعتاد.

الإخصاب: اتحاد الأمشاج؛ يختلف عن مجرد وصول حبة اللقاح.

التكاثر الجنسي: تكاثر يرتبط باتحاد الأمشاج وتكوين نسل يحمل مادة وراثية من الأبوين.

الإثمار الخضرى: الحصول على نباتات من أجزاء خضرية؛ من وسائله العقل والترقيد.

الأصل والطعم: طرفا التطعيم؛ يحمل الأصل الطعم بعد تحقق الاتصال المناسب.

التطعيم: اتصال أجزاء نباتية متوافقة؛ لا يساوي التهجين الجنسي.

النوع والصنف: ليسا مترادفين؛ وقد تعدد الأصناف الزراعية ضمن النوع. ولا يكفي تعدد ألوان الثمر لإثبات تعدد الأنواع.

الموطن: البيئة التي يعيش فيها الكائن طبيعياً. وحفظه داخل موطنه يختلف عن حفظ عينات منه خارجه.

التنوع البيولوجي: يشمل تنوع الكائنات وتباينها وعلاقاتها في النظم الحية؛ لا يختزل في عدد الأشجار المزروعة.

الجهد المائي: مقياس لحالة طاقة الماء؛ تساعد فروقه على تفسير اتجاه انتقاله بين الأوساط والأجزاء النباتية.

[١١٤]

النتج: فقد النبات الماء في صورة بخار، ويجري جزء مهم منه عبر ثغور الأوراق. [١١٤]

مواضع الإمداد والاستهلاك: أجزاء تصدر نواتج عضوية وأجزاء تستقبلها للنمو أو التخزين؛ قد يتغير دور العضو مع مرحلته. [١١٤]

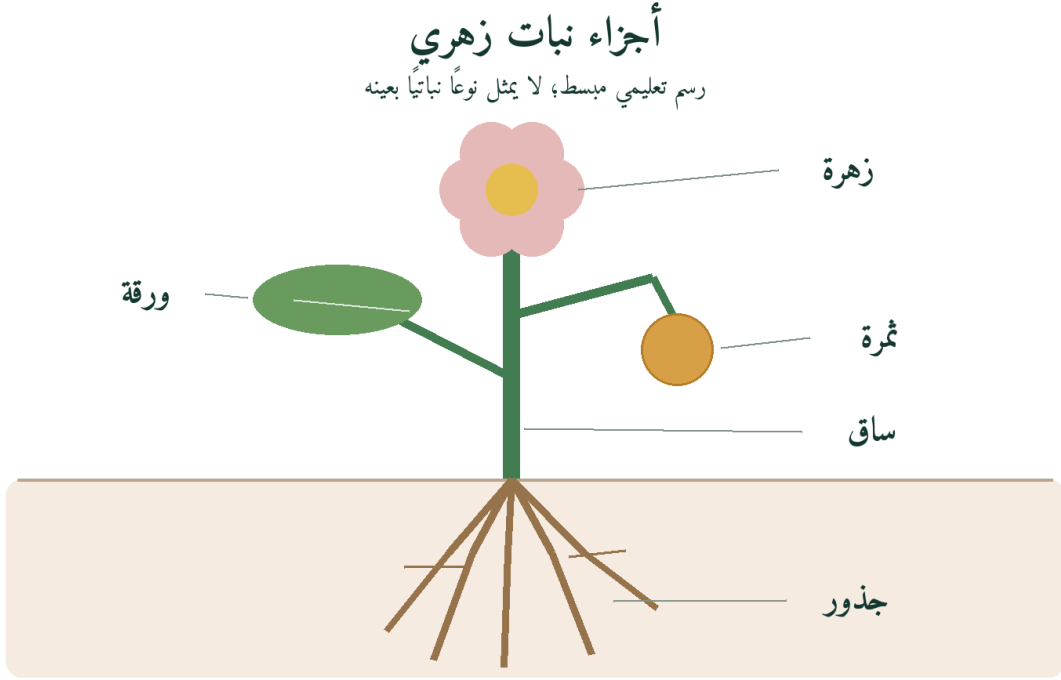
الانتحاء: استجابة نمو اتجاهية ترتبط بمؤثر مثل الضوء أو الجاذبية؛ تميّز من التعبير المجازي عن نية النبات. [١٢٤]

المراجع التعريفية: [٢٤، ٣٤، ٦٤، ٨٤، ب ١، ب ٤]. التعريفات ميسرة ومقصودة لخدمة هذا الكتاب، وليست معجماً تخصصياً شاملاً.

الملحق الحادي عشر: الرسوم التعليمية

توضح الرسوم التالية أفكاراً أساسية من المتن. وهي رسوم أصلية مبسطة، وليست صوراً تشريحية لنوع معين، ولا تمثيلاً لأشجار الغيب.

الرسم الأول: أجزاء نبات زهري؛ يربط الجذر والساق والورقة والزهرة والثمرة بمواقعها العامة.



المراجع: مباحث جسم النبات والجذور والسيقان والأوراق والتكاثر في قائمة المصادر

الرسم الثاني: دورة حياة نبات زهري يتكاثر بالبذور؛ يعرض المسار الشائع دون تعميمه على جميع النباتات أو جميع طرق التكاثر.

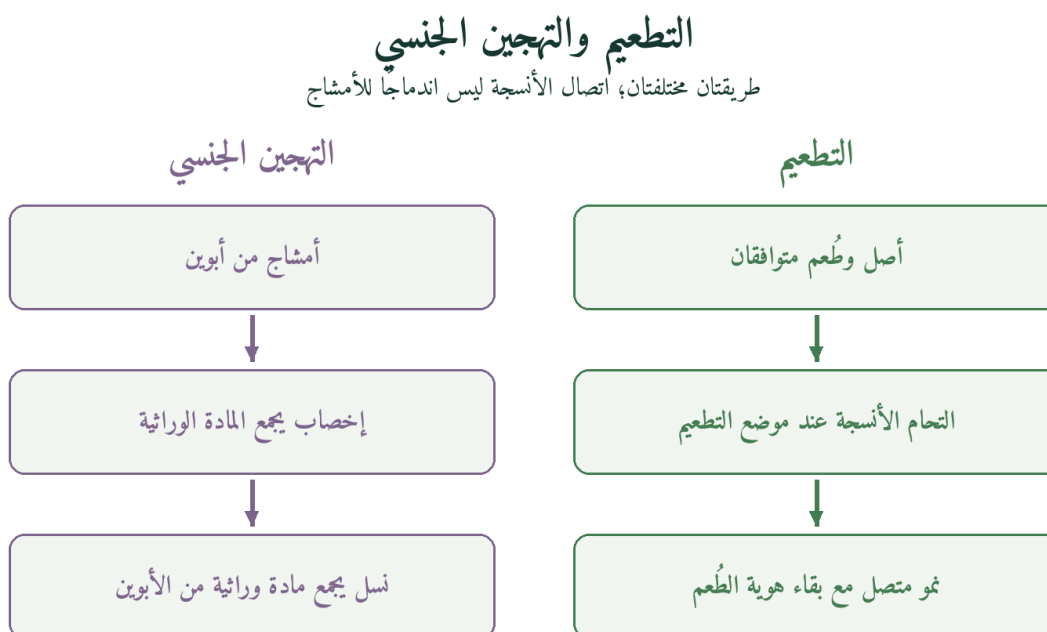
دورة حياة نبات زهري

مسار مبسط للتكاثر بالبذور؛ تختلف التفاصيل والمدد بين الأنواع



الإحالة: الفصول الرابع والسابع والثامن، ومباحث التكاثر في المرجع العلمي

الرسم الثالث: الفرق بين التطعيم والتهجين الجنسي؛ يميز اتصال الأنسجة من اتحاد الأمشاج.



الإحالة: الفصل الرابع والستون؛ الرسم توضيحي ولا يقدم خطوات تنفيذ عملية

الملحق الثاني عشر: بين التصنيف القديم والمصطلح الحديث

التقسيم بحسب الهيئة: الشجر والشجيرات والأعشاب أوصاف تقرب صورة النمو، ولا تكفي وحدها لتحديد القرابة التصنيفية.

التقسيم بحسب الانتفاع: الحبوب والخضر والفاكهة والعلف والطيب مواد تجمعها حاجة الإنسان، وقد تنتمي عناصر المجموعة الواحدة إلى مجموعات نباتية مختلفة.

التقسيم بحسب مدة الحياة: حولي وثنائي الحول ومعمري؛ يتعلق هذا التقسيم بإتمام دورة الحياة واستمرار النبات، ولا يساوي تقسيمه بحسب هيئة الساق.

التقسيم بحسب التكاثر: يختلف وصف النبات بالبذري أو الزهري عن وصفه بأنه شجرة مثمرة في لغة المزارع. ولا تنتج جميع النباتات أزهاراً أو ثماراً بالمعنى العلمي.

النوع والصنف الزراعي: يحدد كل منهما مستوى مختلفاً من الوصف؛ فعد الأصناف لا يساوي بالضرورة عد الأنواع.

الفطر والكمأة: قد يردان في كتب الأطعمة والمواد الطبيعية إلى جوار النبات، لكن هذا التجاور لا يجعلهما نباتين في التصنيف الحديث. أما الطحالب فاسم واسع لمجموعات لا تختزل كلها في قسم واحد بسيط.

الاسم العلمي في النسخة العربية: اخترت أن أقدم الكتاب بالعربية، واستعملت المصطلحات العربية في الشرح. ولم أضع مقابلات لاتينية تخمينية للألفاظ المختلف فيها؛ فإذا أضفت تعييناً علمياً دقيقاً في مراجعة لاحقة فسأبين دليله ومصدره.

القاعدة العملية: أثبت اللفظ القديم عند النقل، ثم أشرح معناه في سياقه، ثم أبحث إمكان ربطه بمصطلح حديث. وأحفظ هذا الترتيب قبل إسناد هوية حديثة إلى الاسم الوارد في النص.

الملحق الثالث عشر: بطاقة قراءة خبر ذي مضمون طبي

السؤال الأول: أين ورد الخبر؟ يكتب اسم الكتاب والباب ورقم الحديث أو الصفحة وفق النسخة المستعملة.

السؤال الثاني: كيف وصل إلينا؟ يميز النقل المباشر من النقل بواسطة كتاب آخر، وتلاحظ الوساطة غير المسماة أو الرفع دون ادعاء اكتمال التحقيق الرجالي.

السؤال الثالث: ما المادة المقصودة؟ يضبط اسم النبات والجزء والصورة المستعملة، ولا يستبدل الطعام بمستخلص مركز.

السؤال الرابع: ما نوع العبارة؟ هل هي حكاية فعل، أم أدب غذائي، أم إرشاد لحالة، أم دعوى علاجية عامة؟

السؤال الخامس: ما حدود الدليل الطبي؟ يفرق بين تجربة مختبرية أو ملاحظة فردية وبين نتيجة سريرية مناسبة للسؤال. ولا تعمم نتيجة على مادة مختلفة أو حالة مختلفة.

السؤال السادس: ماذا عن السلامة؟ ينظر في التداخلات المحتملة والمكونات، وتناقش الحالة مع المختص عند الحاجة؛ فالمألوف أو الطبيعي لا يكفي وحده للحكم.

تطبيق موجز: خبر التين في [ح ٤] يثبت مادة للبحث، لكنه لا يجيز أن نكتب على منتج تجاري أنه يغني عن جميع الأدوية. وتبقى صياغة الادعاء أضيق من الدليل، لا أوسع منه. هذه البطاقة أداة تحرير وتفكير؛ لا تستعمل لتشخيص مرض أو تقرير علاج.

الملحق الرابع عشر: سجل التأليف والمراجعة وحدود النسخة

التأليف — ٢٠٢٠م: أكملت تأليف «حكاية النبات» في ١٣ جمادى الأولى ١٤٤١هـ — ٩ يناير ٢٠٢٠م، ذكرى استشهاد السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام بحسب الرواية الثانية.

المراجعة الأولى — ٢٠٢٣م: أكملتها في ٢٥ رجب ١٤٤٤هـ — ١٧ فبراير ٢٠٢٣م، وعدت فيها إلى النص ومصادره، وأضفت ما اتسعت به تجربتي ومعرفتي بعد التأليف.

مراجعة ٢٠٢٦م: أكملتها في ٨ ربيع الآخر ١٤٤٨هـ — ٢٠ سبتمبر ٢٠٢٦م، ووسّعت فيها البحث، وراجعت النصوص والإحالات، ونظّمت الملاحق والفهارس.

بناء الكتاب: رتبت مادته في سبعين فصلاً موزعة على ثمانية أبواب، وقدمت لها بالإهداء وكلمتي والمقدمة وكلمتي المراجعة، وأتبعها بمشاهد متممة وخاتمة وأربعة عشر ملحقاً ورسوم تعليمية ومصادر وفهارس.

توسعة المباحث: أضفت في مراجعة ٢٠٢٦م قراءات موسعة إلى جميع الفصول، تناولت دقة الملاحظة العلمية، وسياق الآيات، وتسلسل القصص، ومراتب الاستدلال بالرواية، وحقوق الانتفاع بالنبات. وأضفت إحالات علمية وصحية، وراجعت معجم المصطلحات وربط العناوين بمواضعها في الفهرست.

العناية بالشواهد: وسّعت القراءات القرآنية والروائية، وخصصت في الملحق الخامس بطاقات للتوثيق. وراجعت ألفاظاً مختارة في الكافي والإرشاد، ونقلت تقويمات المجلسي للأخبار المعينة من مواضعها في مرآة العقول، ثم حدثت المراجع والفهارس بما يناسب هذه الإضافات.

النص القرآني: أوردت الآيات التي أستشهد بها كاملة مع أرقامها، وراجعت نصوصها على النص الرقي لمشروع تنزيل [١]. ووضعت كل مقطع في موضع شرحه من المقدمة والفصول والمشاهد المتممة، وأتبعته ببيان سياقه وتسلسل أحداثه إن كان من القصص، أو دلالة صورته إن كان من الأمثال وآيات الخلق. وميّزت النص القرآني من التفسير والرواية، وأبقيت الفهرست دليلاً إلى الفصول ومباحثها.

المقابلة الروائية والتفسيرية: رجعت في خبر وقف ينبع إلى الكافي مباشرة، وراجعت خبر طوبى في تفسير القمي، ونقلت تقويمات المجلسي لأخبار التين والفواكه والرياحين مع تعيين مواضعها. وفصلت بين خبري الفواكه المختلفين عدداً ولفظاً، ووسّعت المقارنة في معنى الخبط، وأكملت بطاقات التوثيق والإحالات المتصلة بها.

اللغة والسرد: راجعت الكتاب من مقدماته إلى الفصل السابع وخاتمته، ونقحت العبارات المتكررة ووصلت المباحث بانتقالات وإحالات أوضح. وحافظت على النهج الذي سرت عليه في «حكاية الهداية» و«حكاية الكون»: سرد متصل، وعناية بمصدر النقل، ووضوح فيما أقدمه من تأمل شخصي. كما راجعت المصطلحات وعناوين الفصول والمباحث واتساقها مع الفهرست.

تقويم الأخبار: راجعت أحكام المجلسي على خبر العنقود، وخبر ألوان الفاكهة والرمان، وخبر حنان على المائدة، وخبر العدس. ثم استكملت مقابلة تقويماته لخبر الزيت وطريقه، ولخبري حق الحصاد وانتفاع الطير

والبهائم، ونخمسة أخبار في العمل وتدير الماء وغرس النوى [ح٢٦-ح٢٨]. ورجعت إلى خبر البشارة في الخرائج والجرائح مباشرة، وخصصت له بطاقة توثيق. وأنسب هذه الأحكام إلى أصحابها، وأبين مواضعها وحدود ما بحثته من طرق الأخبار.

ما أوصل بحثه: مقابلة الأحاديث على الطبقات المعتمدة واستكمال دراسة طرقها، وتوسيع المقارنة التفسيرية في مواضع الخلاف. وقد بينت هذه المواضع في سجل التحقيق ليعرف القارئ ما وصلت إليه وما بقي مفتوحاً للبحث.

حدود عملي: لا أدعي أنني استقصيت جميع المرويات في جميع الكتب، أو صحت كل خبر نقلته، ولا أقدم ما أذكره من منافع النباتات بوصفه علاجاً طبياً. وأرحب بما يعينني على ضبط النص وفهمه، وأجعل التصحيح جزءاً من مسؤوليتي عن هذا الكتاب.

التصحيح والمراجعة: أسجل التعديل المؤثر مع سببه ومصدره، وأحدث الفهارس كلما تغير موضع مادة أو اتسع البحث فيها. ومقصدي أن أزيد الكتاب دقة ونفعاً، وأن أرجع عن العبارة متى ظهر لي خطأها.

المصادر والمراجع

ربطت الرموز الآتية بإحالات المتن، وأضفت إلى عناوين المصادر الإلكترونية روابط تتيح فتحها من النسخة الرقمية. وأذكر بيانات الموضوع والطبعة التي تحققت منها، وأقتصر في قائمة المصادر على ما رجعت إليه واستعملته في البحث.

مفتاح رموز المصادر: «ق» لمصدر النص القرآني الرقي، و«ت» للتفسير، و«ح» للحديث والسيرة وما يتصل بتوثيق الأخبار، و«ف» للفقهاء، و«ع» لعلم النبات والأحياء، و«ب» للبيئة، و«ص» للصحة والغذاء، و«س» لسيرتي وتجربتي. يدل الرقم على ترتيب المرجع داخل مجموعته؛ ف[١٤] هو المرجع العلمي الأول في القائمة، وليس رقم آية أو فصل.

١. القرآن الكريم

القرآن الكريم، الإحالات في المتن بالسورة ورقم الآية. استعنت بعرض المصحف الإلكتروني لمراجعة مواضع مختارة، مع بقاء النص القرآني أصل الاستدلال.

راجعت نصوص أربعة عشر شاهداً قرآنياً على العرض الإلكتروني للقرآن الكريم بجامعة الملك سعود، ثم قابلت الشواهد القرآنية الواردة في الفصول على النص الرقي لمشروع تنزيل [١]. وأوردت الآيات في مواضع الاستشهاد كاملة مع اسم السورة ورقم الآية.

[١] مشروع تنزيل، النص القرآني الرقي، الإصدار ١.١، بالرسم الإملائي المشكول. استعملت نسخة النص ذات أرقام السور والآيات لإثبات الشواهد كاملة دون تغيير ألفاظها.

حقوق إعداد النص الرقي لمشروع تنزيل محفوظة، ٢٠٠٧-٢٠٢١. الترخيص: المشاع الإبداعي - النسبة ٣.٠. أعد النص بعناية وتحقق منه ويتابع مراجعته متخصصون في المشروع. يسمح بنسخه وتوزيعه حرفياً، ولا يسمح بتغييره. يجب بيان مصدره وربطه بموقع تنزيل لمتابعة التحديثات، وإبقاء إشعار الحقوق على النسخ والملفات التي تتضمن قدراً معتبراً منه. أوردت هذه البيانات هنا مع رابط المصدر وإشعار الترخيص.

٠٢. كتب التفسير

[١ت] الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، تفسير سورة التين. استفدت منه في بيان وجوه تفسير التين والزيتون.

[٢ت] الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، سورة عبس، الآيات ١٧-٤٢، ولا سيما شرح ألفاظ الطعام في الآيات ٢٤-٣٢.

[٣ت] الطباطبائي، الميزان، تفسير سورة البقرة ٦١، في القثاء والفوم وسياق طلب طعام الأرض.

[٤ت] الطباطبائي، الميزان، تفسير سورة الإسراء ٦٠، في الشجرة الملعونة ووجوه قراءتها.

[٥ت] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تفسير سورة الإسراء ٦٠. مصدر للمقارنة بين الأقوال في الشجرة الملعونة.

[٦ت] الطباطبائي، الميزان، تفسير سورة الرعد ٢٧-٣٥ وبحثه الروائي في طوبى. قارنت إحالته إلى الخرائج بالموضع المباشر [ح ٢٥]، وراجعت خبر أبي عبيدة في تفسير القمي مباشرة [ت ٨].

[٧ت] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تفسير سورة الواقعة ٢٩، في أقوال تفسير الطلح المنضود.

[٨ت] تفسير القمي، المنسوب إلى علي بن إبراهيم، تفسير سورة الرعد ٢٨-٢٩، خبر أبي عبيدة عن أبي عبد الله عليه السلام في طوبى. اعتمد تعيين السورة والآية في النص الرقي المقابل.

[٩ت] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير سورة سبأ ١٦، مبحث القراءة والحجة، في معنى الخط وما نقله عن أبي عبيدة.

[١٠ت] الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تفسير سورة سبأ ١٦، في تفسير الخط بالأراك. مصدر للمقارنة بين الأقوال.

٣. الحديث والمجاميع الروائية

[ح١] الكليني، الكافي، ج٥، كتاب المعيشة، باب فضل الزراعة، ولا سيما الأحاديث ٣-١ و٥-٦. أرقام الأبواب الإلكترونية ليست أرقام صفحات طبعة مطبوعة.

[ح٢] الكليني، الكافي، ج٦، كتاب الأطعمة، باب الزيت والزيتون، الحديث ١، ص ٣٣١ في النسخة الرقمية المقابلة، وفيه الطريق الثاني المحال بلفظة «مثله».

[ح٣] الكليني، الكافي، ج٦، كتاب الأطعمة، باب العنب. وأحيل في الفصل الثالث عشر كذلك إلى باب الزبيب التالي له في ترتيب الكتاب.

[ح٤] الكليني، الكافي، ج٦، كتاب الأطعمة، باب التين، الحديث ١.

[ح٥] الكليني، الكافي، ج٦، كتاب الأطعمة، باب الرمان.

[ح٩] الكليني، الكافي، ج٧، كتاب الوصايا، باب صدقات النبي صلى الله عليه وآله وفاطمة والأئمة عليهم السلام ووصاياهم، الحديث ٩، ص ٥٤-٥٥، خبر عن ينوع. راجعت النص مباشرة.

تمة المصدر [ح٩]: الكافي، ج٧، ص ٥٥، نص الصدقة وشروط التصرف فيها.

[ح١٠] الكليني، الكافي، ج٦، كتاب الأطعمة، باب البقول، الحديثان ١ و٢. واستعنت بفهرس الكتاب في خريطة أسماء الخضر.

[ح١١] الكليني، الكافي، ج٦، كتاب الأطعمة، باب العدس، الأحاديث ١-٤.

[ح١٢] الكليني، الكافي، ج٦، كتاب الأطعمة، أبواب الفواكه، الحديثان ١ و٢، ص ٣٤٩-٣٥٠. قارنت بين الخبرين في العدد واللفظ وقائمة الثمار.

تمة المصدر [ح١٢]: الكافي، ج٦، ص ٣٥٠، تمة الحديث الثاني في الأصناف الأربعة.

[ح١٣] الكليني، الكافي، ج٦، كتاب الزي والتحمل والمروءة، باب الرياحين، ومنه الحديثان ٤ و٥. راجعت مشهد المخضبة والريحان في ص ٥٢٥ من العرض الرقمي.

[ح١٤] الكليني، الكافي، ج٥، كتاب المعيشة، باب بيع الماء ومنع فضوله.

[ح ١٥] الكليني، الكافي، ج ٥، كتاب المعيشة، باب في إحياء أرض الموات.

[ح ١٧] المجلسي، مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول، ج ١٩، ص ٣٣١، باب فضل الزراعة، رجعت إليه في نقل تقويم الحديث الثالث المعين، وراجعت عنوان الباب ورقم الحديث.

[ح ١٨] المجلسي، مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول، ج ٢٢، باب التين، ص ١٩٩، تقويم الحديث الأول والطريق الآخر في الموضع.

[ح ١٩] المجلسي، مرآة العقول، ج ٢٢، باب الرياحين، ص ٤٣٥، تقويم أحاديث الباب الأول إلى الخامس وشرح الخضبة.

[ح ٢٠] المجلسي، مرآة العقول، ج ٢٢، أبواب الفواكه، ص ١٨٧، تقويم الحديثين الأول والثاني والتنبيه إلى اختلاف بعض الأسماء بين النسخ.

[ح ٢١] المجلسي، مرآة العقول، ج ٢٢، باب العنب، ص ١٨٨، تقويم الحديث الثالث.

[ح ٢٢] المجلسي، مرآة العقول، ج ٢٢، باب الرمان، ص ١٩١، تقويم الحديث الثاني.

[ح ٢٣] المجلسي، مرآة العقول، ج ٢٢، باب البقول، ص ٢٠٤، تقويم الحديثين الأول والثاني.

[ح ٢٤] المجلسي، مرآة العقول، ج ٢٢، باب العدس، ص ١٧٨، تقويم الحديث الرابع وصيغة النقل في آخره.

[ح ٢٦] المجلسي، مرآة العقول، ج ٢٢، باب الزيت والزيتون، ص ١٦١، تقويم الحديث الأول ذي الطريقين.

[ح ٢٧] المجلسي، مرآة العقول، ج ١٩، باب فضل الزراعة، ص ٣٣٢، تقويم الحديثين الخامس والسادس. وراجعت تمة الحديث السادس وصيغة النقل في آخره في ص ٣٣٤.

[ح ٢٨] المجلسي، مرآة العقول، ج ١٩، باب ما يجب من الاقتداء بالأئمة عليهم السلام في التعرض للرزق، ص ١٨، الحديث ٧، وص ١٩، الأحاديث ٩-١١، وص ٢٠، الحديث ١٣. نقلت تقويم كل خبر في موضعه.

٤. السيرة وأخبار أهل البيت

[ح٦] الكليني، الكافي، ج ٥، باب ما يجب من الاقتداء بالأئمة عليهم السلام في التعرض للرزق، ص ٧٥-٧٦ في النسخة الرقمية المعروضة، الأحاديث ٧ و ٩-١١ و ١٣.

تمة المصدر [ح٦]: الصفحة ٧٦، وفيها تمة خبر العمل في الأرض وأخبار المسحاة وتدير الماء.

[ح١٦] الشيخ المفيد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، ج ٢، ص ٣٨٤، فصل سيرة القائم عليه السلام عند قيامه، خبر علي بن عقبة عن أبيه.

٥. البلاغة ودلائل النبوة

[ح٢٥] قطب الدين الراوندي، الخرائج والخراج، تحقيق مؤسسة الإمام المهدي بإشراف السيد محمد باقر الموحد الأبطحي، ج ٢، ص ٥٣٦، الخبر ١١، راجعت موضع خبر البشارة مباشرة.

[ح٧] نهج البلاغة، جمع الشريف الرضي، الخطبة القاصعة، موضع خبر الشجرة مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم. اعتمد اسم الخطبة لسهولة الرجوع مع اختلاف ترقيم الطبقات.

[ح٨] البيهقي، الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد، أخبار حنين الخزع ضمن دلائل النبوة. مصدر تراثي للمقارنة، ولا تعني الإحالة اعتماد جميع أحكامه أو مضامينه.

٦. المصادر الفقهية

[ف١] السيد علي الحسيني السيستاني، الفتاوى الميسرة، مبحث السجود، النسخة المنشورة في الموقع الرسمي.

[ف٢] السيد السيستاني، المسائل المنتخبة، كيفية تغسيل الميت، النسخة المنقحة المنشورة في الموقع الرسمي.

[ف٣] السيد السيستاني، منهاج الصالحين، ج ١، الفصل الخامس من مباحث تجهيز الميت: الجريدتان، الطبعة المصححة ١٤٤٥ هـ.

[ف٤] السيد السيستاني، منهاج الصالحين، ج ٢، كتاب المزارعة، الطبعة المصححة ١٤٤٥ هـ.

[ف٥] السيد السيستاني، منهاج الصالحين، ج ٢، كتاب المساقاة، الطبعة المصححة ١٤٤٥ هـ.

[ف٦] السيد السيستاني، منهاج الصالحين، ج ١، أحكام زكاة الغلات، الطبعة المصححة ١٤٤٥ هـ.

[ف٧] السيد السيستاني، منهاج الصالحين، ج ٢، كتاب إحياء الموات، ولا سيما تعريف الأرض وأحكام الحرم والأغصان.

٧. علم النبات والأحياء

المصدر التعليمي الأساس للرموز العلمية التالية: ماري آن كلارك، وماثيو دوغلاس، وجونغ تشوي، «علم الأحياء»، الطبعة الثانية، أوبنستاكس، ٢٠١٨، النسخة الإلكترونية المتاحة عند إعداد مراجعة ٢٠٢٦. الصياغة العربية في هذا الكتاب مستقلة ومختصرة، والرسوم التعليمية أصلية.

[١٤] المرجع السابق، المبحث ٣، ٣١: التربة.

[٢٤] المرجع السابق، المبحث ٨، ٨: نظرة عامة إلى البناء الضوئي.

[٣٤] المرجع السابق، المبحث ١، ٣٢: بنية التكاثر وتطوره، والمبحث التالي في التلقيح والإخصاب.

تمة المرجع [٣٤]: المبحث ٢، ٣٢: التلقيح والإخصاب.

[٤٤] المرجع السابق، المبحث ٣، ٣٠: الجذور.

[٥٤] المرجع السابق، المبحث ٢، ٣٠: السيقان.

[٦٤] المرجع السابق، المبحث ١، ٣٠: جسم النبات.

[٧٤] المرجع السابق، المبحث ٤، ٣٠: الأوراق.

[٨٤] المرجع السابق، المبحث ٣، ٣٢: التكاثر اللاجنسي ووسائل الإكثار.

[٩٤] المرجع السابق، المبحث ١، ٢٤: خصائص الفطريات؛ لدعم التفريق بين التمازج في كتب الأطعمة

والتصنيف الحديث.

[١٠٤] المرجع السابق، المبحث ٢٦، ١: تطور النباتات البذرية، مرجع مساعد لضبط الفرق بين الأسماء العامة ومجموعات النبات.

[١١٤] مرجع علم الأحياء، المبحث ٣٠، ٥: نقل الماء والمواد الذائبة في النبات، لشرح الجهد المائي ومساري النقل في الخشب واللحاء.

[١٢٤] مرجع علم الأحياء، المبحث ٣٠، ٦: أنظمة الاستشعار والاستجابة لدى النبات، لتمييز الاستجابة للمؤثر من التعبير الأدبي عنها.

٨. البيئة وحفظ التنوع

[ب ١] منظمة الأغذية والزراعة للأمم المتحدة، نظرة عامة على التنوع البيولوجي، الموقع الرسمي.

[ب ٢] المنظمة نفسها، وحدة الغابات والمياه، مجموعة أدوات إدارة الغابات المستدامة.

[ب ٣] المنظمة نفسها، لمحة عامة عن التربة، برنامج الأراضي والتربة والمياه.

[ب ٤] الحدائق النباتية الملكية في كيو، شراكة بنك بذور الألفية، استعملت في شرح الحفظ خارج الموطن وأغراضه، دون نقل إحصاءات متغيرة.

٩. الصحة والغذاء

[ص ١] المركز الوطني للصحة التكميلية والتكاملية، المعاهد الوطنية للصحة بالولايات المتحدة، «الطبيعي لا يعني بالضرورة أكثر أماناً أو أفضل»، ترجمة عربية وصفية لعنوان المادة.

[ص ٢] المركز نفسه، النشرة المهنية عن تداخل الأعشاب والأدوية، كانون الأول ٢٠٢٤. استعملت لشرح تفاوت الأدلة وضرورة الانتباه للتداخلات.

[ص ٣] منظمة الصحة العالمية، النظم الغذائية الصحية، ٢٦ كانون الثاني ٢٠٢٦، النسخة العربية الرسمية.

[ص ٤] المركز الوطني للصحة التكميلية والتكاملية، المكملات الغذائية والعشبية، مرجع رسمي لحدود تعميم نتائج الدراسات على المنتجات المتداولة وللتنبه إلى التداخلات المحتملة. عنوان عربي وصفي للمادة الأصلية.

١٠. سيرتي وتجربتي

[س١] صفحتي التعريفية في موقعي الشخصي، أروي في مقدمة الكتاب مسيرتي الدراسية في المتوسطة والإعدادية وقسم صحة المجتمع بالمعهد التقني الطبي في الديوانية، وأذكر أساتذتي وصليتي بالبحث الطبي الوقائي.

[س٢] صفحة الزراعة في موقعي الشخصي، أعرض فيها هوايتي في الزراعة والتطعيم والعمل التعليمي، وما يرتبط بتجربتي من وقائع مؤرخة في ٢٠٢١-٢٠٢٣. وأستشهد بها عند الحديث عن تجربتي، مع تمييزها من مصادر البحث الحديث والطبي.

الفهارس

تعتمد الفهارس الآتية أرقام الفصول وعناوين الأقسام، حتى تبقى صالحة في مستند قابل للتعديل تغيير صفحاته. وهي فهارس موضوعية للمواد المعالجة في هذه النسخة. ويتيح الفهرست العام الرجوع إلى جميع العناوين الرئيسة والفرعية.

الفهرس الأول: الآيات القرآنية

سورة البقرة: ٢٥، ٣٥-٣٩، ٥٧-٦١، ١٢٦، ١٦٨، ١٧٢، ٢٠٥، ٢٦١-٢٦٦. مواضع الشرح: ١٦، ١٧، ٢٥، ٢٧، ٣٠، ٣٩، ٥٩، ٦٠، ٦٨.

سورة آل عمران: ٤٢. مواضع الشرح: ٣٣.

سورة الأنعام: ٥٩، ٩٥، ٩٩، ١٤١. مواضع الشرح: المقدمات، ٤، ٦، ٨، ١١، ١٢، ١٥، ٢٣، ٢٤، ٥٦، ٦٠.

سورة الأعراف: ١٩-٢٥، ٣١، ٥٦-٥٨، ١٠٧-١١٧، ١٦٠. مواضع الشرح: ٢، ٢٥، ٢٩، ٣٠، ٦٠، ٦١، ٦٧.

سورة يونس: ٢٤. مواضع الشرح: ٤٠.

سورة هود: ٣٧-٤٤. مواضع الشرح: ٢٦.

سورة يوسف: ٤٣-٤٩، ٥٤-٥٦. مواضع الشرح: ١٦، ٢٨.

سورة الرعد: ٣-٤، ٢٧-٣٥. مواضع الشرح: ٢، ٧، ٨، ٩، ٢٣، ٦٨، ٦٩.

سورة إبراهيم: ٢٤-٢٧، ٣٥-٤١. مواضع الشرح: ٥، ٢٧، ٣٨.

سورة الحجر: ٢٢. مواضع الشرح: ٧.

سورة النحل: ١٠-١١، ٦٧-٦٩. مواضع الشرح: ١، ٣، ١١، ١٢، ١٣، ٦٢.

- سورة الإسراء: ٤٤، ٦٠. مواضع الشرح: ٤٥، ٤٦.
- سورة الكهف: ٣٢-٤٥. مواضع الشرح: ١٣، ٢٤، ٤٠، ٤١.
- سورة مريم: ٢٢-٢٦. مواضع الشرح: ١١، ٣٣.
- سورة طه: ٩-٢٣، ٥٣-٥٤، ١١٥-١٢٣. مواضع الشرح: ١، ٧، ٩، ٢٥، ٢٩.
- سورة الأنبياء: ٤٧، ٧٨-٧٩، ٨٧-٨٨. مواضع الشرح: ٢٠، ٣١، ٣٢.
- سورة الحج: ٥-٧، ١٨. مواضع الشرح: ٤٥، ٦٧.
- سورة المؤمنون: ٢٠، ٢٧-٢٩. مواضع الشرح: ١٢، ٢٦.
- سورة النور: ٣٥. مواضع الشرح: ١٢.
- سورة الشعراء: ١٤٦-١٥٢، ١٧٦-١٩١. مواضع الشرح: المشاهد المتممة عقب الفصل ٣٧.
- سورة النمل: ٦٠. مواضع الشرح: ٢٣.
- سورة القصص: ٢٩-٣٢، ٥٧. مواضع الشرح: ٢٧، ٢٩.
- سورة الروم: ٥٠. مواضع الشرح: ٦٧.
- سورة لقمان: ١٦. مواضع الشرح: ٢٠.
- سورة سبأ: ١٥-١٩. مواضع الشرح: ١٨، ٤٣.
- سورة فاطر: ٩. مواضع الشرح: ٦٧.
- سورة يس: ٣٤-٣٦، ٨٠. مواضع الشرح: ٧، ١٣، ٢٤، ٥٨.
- سورة الصافات: ٦٢-٦٨، ١٣٩-١٤٨. مواضع الشرح: ١٩، ٣٢، ٤٦، ٧٠.
- سورة ص: ٤١-٤٤. مواضع الشرح: المشاهد المتممة عقب الفصل ٣٧.
- سورة الزمر: ٢١. مواضع الشرح: ٣، ١٠، ٢٤، ٤٠.
- سورة فصلت: ٣٩. مواضع الشرح: ٦٧.

- سورة الدخان: ٤٣-٤٦. مواضع الشرح: ٧٠.
- سورة الفتح: ١٨، ٢٩. مواضع الشرح: ٣٤، ٤٤.
- سورة ق: ٩-١١. مواضع الشرح: ١١، ٦٧.
- سورة النجم: ١٣-١٨. مواضع الشرح: ١٨، ٦٥.
- سورة القمر: ١٣-١٥. مواضع الشرح: ٢٦.
- سورة الرحمن: ٦، ١١-١٢، ٣٧، ٤٦-٤٧. مواضع الشرح: ١١، ١٥، ١٦، ٢١، ٢٤، ٤٥، ٦٨.
- سورة الواقعة: ٢٧-٣٤، ٥١-٥٥، ٦٣-٦٧، ٧١-٧٣، ٨٩. مواضع الشرح: ١، ١٨، ٢١، ٢٤، ٥٨، ٦٨، ٧٠.
- سورة الحديد: ٢٠. مواضع الشرح: ١٠، ٤٠.
- سورة الحشر: ٥. مواضع الشرح: ٣٤، ٥٩.
- سورة القلم: ١٧-٣٣. مواضع الشرح: ٤٢، ٥٦.
- سورة نوح: ١٧-١٨. مواضع الشرح: ٢٦.
- سورة الإنسان: ٥-٦، ١٤، ١٧-١٨. مواضع الشرح: ٢٢، ٦٨.
- سورة النبأ: ١٤-١٦. مواضع الشرح: ٢٣.
- سورة النازعات: ٣٠-٣٣. مواضع الشرح: ١، ٢١.
- سورة عبس: ٢٤-٣٢. مواضع الشرح: المقدمات، ٤، ١٣، ١٦، ٢١، ٢٣، ٦٢.
- سورة الأعلى: ٤-٥. مواضع الشرح: ١٠، ٢١، ٢٤.
- سورة الغاشية: ٦-٧. مواضع الشرح: ٧٠.
- سورة التين: ١-٨. مواضع الشرح: ١٢، ١٤.
- سورة المسد: ٤-٥. مواضع الشرح: ٢٤.

الفهرس الثاني: الأحاديث والأخبار

الزراع والغرس وفضل الزراعة: ٥٣ و ٦٦؛ إصلاح الزرع وحق الحصاد: ٥٦؛ انتفاع الطير والبهائم: ٦٢؛
[ح ١] . تقويم المجلسي للحديث الثالث: ٥٣ والملحق الخامس [ح ١٧]؛ وللحديثين الخامس والسادس: ٥٦ و ٦٢
والملحق الخامس [ح ٢٧] .

الزيت والشجرة المباركة: ١٢ و ٤٧ [ح ٢]؛ طريقا الخبر وتقويم المجلسي: ١٢ والملحق الخامس [ح ٢٦] .
العنب: ١٣ و ٤٧؛ والزبيب: ١٣؛ إهداء الإمام علي بن الحسين عنقود العنب للسائل وتقويم خبره: ١٣؛
[ح ٣، ح ٢١] .

التين وخبره وتقويمه: ١٤؛ والإحالة إليه في ٣٧ و ٤٧؛ [ح ٤، ح ١٨] .
الرمان وألوان الفاكهة وتقويم الخبر: ١٥ و ٤٧؛ [ح ٥، ح ٢٢] .
أخبار الأرض والعمل والمسحاة وغرس النوى: ٣٤ و ٣٦ و ٣٧ و ٥٣ [ح ٦]؛ تقويم المجلسي لأخبار العمل
المعينة: ٣٤ و ٣٦ و ٣٧ والملحق الخامس [ح ٢٨] .
خبر الشجرة في القاصعة: ٣٥ [ح ٧] . حنين الجذع: ٣٥؛ [ح ٨] .
وقف ماء ينبع: ٣٦؛ [ح ٩] .

البقل على المائدة وتقويم خبر حنان: ٤٨؛ [ح ١٠، ح ٢٣] .
العدس والعدد المنسوب إلى الأنبياء وتقويم الخبر: ٤٧ و ٥٢؛ [ح ١١، ح ٢٤] .
العددان في أخبار فواكه الجنة وألفاظ الأصناف وتقويم الخبرين: ٥٢؛ [ح ١٢، ح ٢٠] .
الريحان والورد، ومشهد المخضبة في يد الإمام الصادق، وتقويم أخبار الباب: ٤٩؛ [ح ١٣، ح ١٩] .
الماء وإحياء الموات: ٥٤ و ٥٥؛ [ح ١٤، ح ١٥] .
بركات الأرض في زمن القائم: ٦٦؛ [ح ١٦] .

طوبى وصلتها بأهل البيت: ٦٩؛ [ت٦، ت٨، ح٢٥]. المقابلة المباشرة لخبر الخراج وحدود تحقيقه: الملحقان الخامس والسابع.

الفهرس الثالث: النباتات والثمار والمواد النباتية

الأب: ٢١. الأثل: ١٨ و ٤٣. الأراك في تفسير النخبط: ١٨. الأرز: ٤٧.

الباذنجان: ٤٨. البصل: ١٧ و ٣٠ و ٤٨. البقل: ١٧ و ٤٨.

التفاح: ٢٥ و ٤٧ و ٥٢؛ ولفظ الشيسقان في الخبر: ٥٢. التين: ١٢ و ١٤ و ٣٧ و ٤٧. الثوم: ١٧ و ٤٨.

الحبوب: ٤ و ١٦ و ٢٨ و ٣٩ و ٤٧. الحنطة والقمح: ١٦ و ١٧ و ٢٥. الحناء: ٥٧.

الخردل: ٢٠. الخس: ٤٨. النخبط: ١٨ و ٤٣.

الرطب والتمر: ١١ و ٣٣ و ٤٧ و ٥٢؛ ولفظ المشان في الخبر: ٥٢. الرمان: ١٥ و ٤٧ و ٥٢ و ٦٨؛ ولفظ

الأمليسي في الخبر: ٥٢. الرحلة: ٤٨. الرياح: ١٦ و ٢١ و ٤٩.

الزبيب: ١٣. الزقوم: ٤٦ و ٧٠. الزيت والزيتون: ١٢ و ٤٧. الزنجبيل: ٢٢.

السدر: ١٨ و ٤٣ و ٥٧ و ٦٥ و ٦٨. السفرجل: ٤٧ و ٥٢. السلق: ٤٨. السواك: ٥٧.

الشعير: ١٦. الضريع: ٧٠. الطلح: ٦٨. طوبى: ٦٩.

العدس: ١٧ و ٣٠ و ٤٧ و ٥٢. العنب والكرم: ١٣ و ٤١ و ٤٧ و ٥٢؛ ولفظ الرازي في الخبر: ٥٢.

الفوم: ١٧ و ٣٠. القثاء: ١٧ و ٣٠ و ٤٨. القرع: ١٩ و ٣٢. القضب: ١٦ و ٢١.

القطن: ٥٨. الكافور: ٢٢ و ٥٧. الكان: ٥٨.

الكرفس والكراث والكزبرة: ٤٨. اللينة: ٣٤ و ٥٩. الموز في تفسير الطلح: ٦٨. النخل: ١١ و ٣٣ و ٣٤ و ٣٦.

الهندباء: ٤٨. الورد: ٢٤ و ٤٩. اليقطين: ١٩ و ٣٢.

الفطر والكأمة والطحالب: التمهيد والملحق الثاني عشر؛ أدرجت هنا لبيان الحدود التصنيفية.

راجع الملحق الأول للشرح، والملحق السادس للأسماء المختلف فيها.

الفهرس الرابع: المصطلحات النباتية العلمية بالعربية

البناء الضوئي: ٣ و٦؛ الملحق العاشر. التنفس: ٣ و٦؛ الملحق العاشر.

الإنبات: ٤؛ الملحقان العاشر والحادي عشر.

الجهد المائي والنتح: ٣؛ الملحق العاشر. مواضع الإمداد والاستهلاك: ٥؛ الملحق العاشر.

الاستجابة للمؤثر والانتحاء: ٩؛ الملحق العاشر.

التلقيح والإخصاب: ٧؛ الملحق العاشر.

الثمرة والبذرة: ٤ و٨؛ الملحق الثاني.

النوع والصنف: التمهيد و٩ و٦٣ و٦٤؛ الملحق الثاني عشر.

التكاثر الجنسي والإكثار الخضري: ٧ و٦٤؛ الملحقان العاشر والثاني عشر.

التطعيم والتيجين والأصل والطعم: ٦٤؛ الرسم الثالث.

الموطن والحفظ خارج الموطن: ٦٣؛ الملحق العاشر.

الفطريات وحدود مفهوم النبات: التمهيد؛ الملحق الثاني عشر.

مدة حياة النبات وحال المعمّر: ٩ و١٠؛ وتقسيمه إلى حولي وثنائي الحول ومعمّر: الملحق الثاني عشر. لم

أستعمل أسماء لاتينية في هذه النسخة العربية.

الفهرس الخامس: أجزاء النبات وأوصافه

الأغصان والفروع: ٥ و٣٨ و٥٩. الأكام: ١١ و٢٤.

الألواح والخشب: ٢٦ و٥٨. البذور والنوى: ٤ و٨ و٣٦.

الجذر والساق: ٥؛ الرسم الأول. الجذع: ١١ و٣٣ و٣٥.

الخطام والهشيم والغناء: ١٠ و ٢٤ و ٤٠. الخطب: ٢٤ و ٥٨.

الزهرة: ٧ و ٤٩؛ الرسم الأول. السنابل: ١٦ و ٢٨ و ٣٩.

الشطء والسوق في المثل: ٤٤. الطلع والقنوان: ١١.

العصف: ١٦ و ٢١. الثمر والينع: ٨ و ١٥.

الورق: ٦ و ٢٤ و ٢٥ و ٥٧. المشاهد المتممة عقب الفصل ٣٧.

الفهرس السادس: الأنبياء ومشاهد الرسالة

آدم عليه السلام: ٢٥. نوح عليه السلام: ٢٦.

إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ٢٧. يوسف عليه السلام: ١٦ و ٢٨.

موسى عليه السلام: ٢٩ و ٣٠. داود وسليمان عليهما السلام: ٣١.

يونس عليه السلام: ١٩ و ٣٢. عيسى عليه السلام: ٣٣.

محمد صلى الله عليه وآله وسلم: ٣٤ و ٣٥ و ٤٤ و ٦٥ و ٦٩.

أيوب وصالح وشعيب عليهم السلام: المشاهد المتممة عقب الفصل ٣٧.

الفهرس السابع: أهل البيت عليهم السلام

أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: ٣٦ و ٤٨ و ٦٩.

السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام: بيانات التأليف والملحق الرابع عشر؛ و ٦٩ في أخبار طوبى.

الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام: ١٣، في خبر عنقود العنب؛ والملحق الخامس.

الإمام محمد الباقر عليه السلام: ٥٢، في ثاني خبري فواكه الجنة؛ و ٦٢، في طريق خبر الحرث والانتفاع به؛

والملاحق الخامس.

الإمام جعفر الصادق عليه السلام: ١٢ و ١٥ و ٣٦ و ٣٧ و ٤٨ و ٤٩ و ٥٢ و ٥٣ و ٥٦ و ٦٩، في الأخبار المنسوبة إليه أو المروية بطريقه؛ والملحق الخامس.

الإمام موسى الكاظم عليه السلام: ٣٧، في بيان كنية أبي الحسن في خبر العمل.

الإمام علي الرضا عليه السلام: ١٤ و ٣٧، في خبر التين.

أبو الحسن صاحب العسكر عليه السلام: ٤٩، بلفظ الخبر المنقول في الرياحين.

الإمام المهدي عجل الله فرجه: ٦٦.

العناوين العامة لروايات أهل البيت ومنهج نسبتها: المقدمات والباب الخامس والملحقان الخامس والسابع.

الفهرس الثامن: الأعلام والشخصيات

السيد حسام زهاء مرتضى الصراف الحسيني: صفحة العنوان وكلمة المؤلف وكلمتا المراجعة، والفصلان ٥٣ و ٦٤ والخاتمة.

الأستاذ كامل، مدرّس مادة الأحياء في إعدادية الحمزة: الإهداء والخاتمة. ومدرسو الزراعة والأحياء والأساتذة: الإهداء وكلمة المؤلف والخاتمة.

الأستاذة أم دعاء، معلمتي الأولى في القرآن الكريم: الإهداء. الشيخ الأكرم عبد الرسول السوداني الناصري، أول شيخ درست عنده في حوزة النجف: الإهداء. الشيخ أحمد الوائلي: الإهداء.

حواء، زوج آدم: ٢٥. هاجر: ٢٧. مريم: ١١ و ٣٣. لقمان: ٢٠.

إبليس في قصة آدم: ٢٥. ابن نوح: ٢٦. الملك في رؤيا يوسف: ١٦ و ٢٨؛ وصاحب السجن الناجي: ٢٨. فرعون والسحرة في قصة موسى: ٢٩.

صاحب الجنتين وأصحاب الجنة وسبأ: ٤١-٤٣. امرأة أبي لهب: ٢٤. رضوان في خبر البشارة: ٦٩.

حنان: ٤٨. يونس بن يعقوب وأبو هاشم الجعفري: ٤٩. محمد بن الفيض: ٥٢.

علي بن أبي حمزة وإسماعيل بن جابر وأبو عمرو الشيباني: ٣٧. علي بن عتبة: ٦٦. أبو عبيدة، راوي خبر طوبى: ٦٩. وأبو عبيدة المذكور في النقل اللغوي عن الخمط: ١٨.

الكليني والمفيد والمجلسي والشريف الرضي والبيهقي: قائمة المصادر والإحالات ذات الصلة.
الطبرسي والطبري والطباطبائي والقرطبي والسيد السيستاني: قائمة المصادر والإحالات ذات الصلة.

الفهرس التاسع: الأماكن والبيئات

العراق وأستراليا: كلمة المؤلف، والفصل ٦٤ والخاتمة. والنخلة في ذاكرة العراق: ١١.

الديوانية والمعهد التقني الطبي: الإهداء وكلمة المؤلف والخاتمة.

حوزة النجف: الإهداء. إعدادية الحمزة: الإهداء والخاتمة.

اعدادية شيبارتون الثانوية الكبرى: كلمة مراجعة ٢٠٢٣؛ المصدر [س٢].

الوادي غير ذي الزرع والحرم: ٢٧. طور سيناء: ١٢.

الوادي والبقعة المباركة في قصة موسى: ٢٩.

الجودي في قصة السفينة: ٢٦. طور سينين والبلد الأمين في القسم: ١٤.

ينبع: ٣٦. سبأ: ١٨ و ٤٣.

البستان والحقل والمرعى: ٢ و ٢١ و ٢٣ و ٥٣-٦٤.

الجنة في القصص الدنيوية: ٤١ و ٤٢؛ والجنة الأخروية: ٦٥ و ٦٨ و ٦٩.

الحجيم: ٧٠. لا تسوّى المشاهد الغيبية بأماكن قابلة للوصف الجغرافي التجريبي.

الفهرس العاشر: القصص والأمثال

الشجرة المنهي عنها: ٢٥. سفينة نوح: ٢٦. دعاء إبراهيم: ٢٧.

رؤيا السنابل: ٢٨. الشجرة والعصا: ٢٩. طعام بني إسرائيل: ٣٠.

الحرث والغنم: ٣١. يقطين يونس: ١٩ و ٣٢. نخلة مريم: ١١ و ٣٣.
البيعة تحت الشجرة: ٣٤. خبر الشجرة وحنين الجذع: ٣٥.
الغرس والوقف: ٣٦. العمل بالمسحاة وفتح الماء: ٣٧. الشجرة الطيبة والخبيثة: ٣٨.
أيوب والضغث، وصالح والنخل، وشعيب وأصحاب الأيكة: المشاهد المتممة عقب الفصل ٣٧.
أمثال الإنفاق: ٣٩. مثل زوال الدنيا: ٤٠.
صاحب الجنتين: ٤١. أصحاب الجنة: ٤٢. سبأ: ٤٣.
الزرع الذي استوى: ٤٤. سجد الشجر: ٤٥. الشجرة الملعونة: ٤٦.
إحياء الأرض والبعث: ٦٧. وللمقارنة راجع الملحق التاسع.

الفهرس الحادي عشر: القيم والأخلاق

الشكر: ١٢ و ١٥ و ٢٧ و ٣٠ و ٤٣ و ٦٠.
الصبر: ٤ و ١٢ و ٢٦ و ٥٣ و ٦٤.
العدل والحقوق: ٢٠ و ٣١ و ٥٥ و ٥٦ و ٦٦.
الغرور بالمال: ٤٠ و ٤١. منع المحتاج: ٤٢.
الإنفاق والمواساة: ٣٩ و ٥٦. الوقف: ٣٦.
كرامة العامل: ٣٦ و ٣٧ و ٥٣. حسن الجوار: ٥٥ و ٥٩.
الاعتدال وتجنب الهدر: ٥٦ و ٦٠. المسؤولية البيئية: ٦١-٦٣.
الأمانة في النقل والتواضع العلمي: المنهج، ٣٥ و ٤٦ و ٥٠ و ٥٢ و ٦٤، والخاتمة.

الفهرس الثاني عشر: الموضوعات الفقهية

إحياء الموات وحريم الأرض والماء: ٥٤ و ٥٥ و ٥٩؛ [ف٧].

المزارعة: ٥٥؛ [ف٤]. المساقاة: ٥٥؛ [ف٥].

زكاة الغلات وحق الحصاد: ٥٦؛ [ف٦].

الوقف والصدقة المستمرة: ٣٦؛ [ح٩].

السجود وما يصح عليه: ٥٧؛ [ف١].

السدر والكافور في تغسيل الميت: ٥٧؛ [ف٢]. الجريدتان: ٥٧؛ [ف٣].

قطع الشجر وحقوق الجار: ٥٩؛ [ف٧].

هذه إحالات إلى مواضع العرض، وتراجع النصوص الفقهية الكاملة للتطبيق.

الفهرس الثالث عشر: الظواهر العلمية والزراعية

مكونات التربة وعلاقتها بالنمو: ٢ و ٦١.

الماء والضوء والهواء: ٣. الإنبات: ٤.

الامتصاص والنقل والدعامة: ٥. الورقة وتبادل الغازات: ٦.

التكاثر والتلقيح والإخصاب: ٧. تكوّن الثمار وانتشار البذور: ٨.

التنوع والتكيف: ٩. الشيخوخة والتحلل: ١٠.

حفظ المحصول وتدمير الاستهلاك: ٢٨ و ٥٦.

سلامة المستحضرات النباتية وتفاوت الدليل: ٥٠ و ٥١.

العلاقة بين الغابات والمياه والتربة: ٦١.

الملقحات وكائنات التربة: ٦٢. حفظ البذور والتنوع: ٦٣.

الإكثار والتطعيم والتهجين وتسجيل التجربة: ٦٤.

الفهرس الرابع عشر: مواضع الخلاف وحدود الدلالة

التين والزيتون في القسم: ١٤؛ [ت ١].

الفوم والقثاء: ١٧؛ [ت ٣]. الخبط: ١٨.

الريحان والقضب والأب: ٢١؛ [ت ٢]. اليقطين: ١٩ و ٣٢.

الشجرة المنهي عنها: ٢٥. نوع شجرة النداء: ٢٩. نوع شجرة البيعة: ٣٤.

درجات الأخبار والمعجزات: ٣٥ و ٥٢؛ الملحقان الخامس والسابع.

الشجرة الملعونة: ٤٦؛ [ت ٤، ت ٥].

المعنى الطبي والتجربة العلية: ٥٠ و ٥١؛ الملحق الثالث عشر.

الطلح: ٦٨؛ [ت ٧]. طوبى بين اللغة والرواية: ٦٩؛ [ت ٦، ت ٨، ح ٢٥]. الخبط بين الوصف العام والتعيين:

١٨؛ [ت ٩، ت ١٠].

الفهرس الخامس عشر: الرسوم والقوائم المرجعية

الرسم الأول — أجزاء نبات زهري: الملحق الحادي عشر.

الرسم الثاني — دورة حياة نبات زهري: الملحق الحادي عشر.

الرسم الثالث — التطعيم والتهجين الجنسي: الملحق الحادي عشر.

معجم النباتات: الملحق الأول. أجزاء النبات: الملحق الثاني.

قوائم الأسماء القرآنية والألفاظ العامة: الملحقان الثالث والرابع.

سجل الروايات ومواضع الخلاف: الملاحق الخامس والسادس والسابع.

قائمة المصادر ذات الروابط: قسم المصادر والمراجع.

الفهرس السادس عشر: الملاحق

الملحق الأول: معجم النباتات والمواد النباتية.

الملحق الثاني: أجزاء النبات وأوصافه.

الملحق الثالث: دليل الأسماء النباتية الصريحة في الآيات المستعملة.

الملحق الرابع: دليل الألفاظ العامة والمشاهد النباتية.

الملحق الخامس: سجل الروايات المستعملة.

الملحق السادس: مواضع اختلاف التعيين والدلالة.

الملحق السابع: سجل الأخبار التي تحتاج إلى تحقيق أوسع.

الملحق الثامن: الأنبياء والشخصيات والمشاهد.

الملحق التاسع: الأمثال النباتية ومقاصدها.

الملحق العاشر: مصطلحات علمية ميسرة.

الملحق الحادي عشر: الرسوم التعليمية.

الملحق الثاني عشر: بين التصنيف القديم والمصطلح الحديث.

الملحق الثالث عشر: بطاقة قراءة خبر ذي مضمون طبي.

الملحق الرابع عشر: سجل التأليف والمراجعة وحدود النسخة.

الفهرس السابع عشر: الفهرست العام

يشمل هذا الفهرست المقدمات والأبواب والفصول ومباحثها، ثم الخاتمة والملاحق والمصادر والفهارس. ويمكن كذلك استعمال مخطط المستند الجاني للانتقال بين العناوين.

١	صفحة العنوان — حكاية النبات
٢	بيانات الكتاب وتاريخ العمل
٣	الإهداء
٤	كلمة المؤلف
٥	المقدمة العامة — حكاية تبدأ من النظر
٥	• الآيات التي تنطلق منها الحكاية
٧	كلمة المراجعة والتحديث — ٢٠٢٣ م
٨	كلمة المراجعة والتحديث — ٢٠٢٦ م
٩	منهج الكتاب ومصادره
٩	القرآن الكريم أصل البناء
٩	الرواية بين وجود النص وثبوت النسبة
٩	التفاسير واللغة
١٠	المعرفة العلمية
١٠	وحدة السرد وحدود الاستقصاء
١١	تمهيد — ماذا نعني بالنبات؟
١٢	الباب الأول: حكاية الحياة الخضراء
١٢	الفصل الأول: النبات في مشهد الخلق
١٢	• شاهد التعدد في رزق واحد
١٢	• الأرض التي تخرج الحياة
١٣	• قبل وجود الإنسان
١٤	• ما يدرسه العلم
١٤	• أول شجرة وأول زرع
١٤	• من سؤال السبب إلى معنى المسؤولية
١٦	الفصل الثاني: الأرض التي تحتضن البذرة

١٦	• <u>التربة ليست مادة واحدة</u>
١٦	• <u>حذور تتنفس</u>
١٦	• <u>تاريخ تحفظة الأرض</u>
١٦	• <u>البلد الطيب</u>
١٧	• <u>قراءة الأرض قبل الحكم عليها</u>
١٨	• <u>الفصل الثالث: الماء والنور والهواء — أسباب النماء</u>
١٨	• <u>قطرة تصل بين السماء والأرض</u>
١٨	• <u>الضوء مورد للطاقة</u>
١٨	• <u>ما يؤخذ من الهواء</u>
١٩	• <u>النعمة لها شروط</u>
١٩	• <u>رحلة الماء في جسم النبات</u>
٢٠	• <u>الفصل الرابع: الحبة والنواة — الحياة المستترة</u>
٢٠	• <u>نص الفلق وخروج الحياة</u>
٢٠	• <u>داخل الغلاف</u>
٢٠	• <u>بداية الإنبات</u>
٢١	• <u>غذاء البداية</u>
٢١	• <u>فالق الحب والنوى</u>
٢١	• <u>البذرة بين الإمكان والتحقق</u>
٢٣	• <u>الفصل الخامس: الجذور والسيقان والأغصان — بناء النبات</u>
٢٣	• <u>ما لا نراه تحت الأرض</u>
٢٣	• <u>الساق ليست حاملاً فقط</u>
٢٣	• <u>الخشب واللحاء</u>
٢٣	• <u>وحدة الأجزاء</u>
٢٤	• <u>النقل من مواضع الإنتاج إلى مواضع الحاجة</u>
٢٥	• <u>الفصل السادس: الورقة الخضراء — صناعة الغذاء</u>
٢٥	• <u>مساحة تستقبل الضوء</u>
٢٥	• <u>البناء والتنفس</u>
٢٥	• <u>ثغور تحفظ توازناً</u>
٢٥	• <u>ورقة تسقط وأثر يبقى</u>

٢٦	• كيف نجعل الورقة بآياً للتعلم؟
٢٧	<u>الفصل السابع: الأزهار والتلقيح — استقرار الحياة</u>
٢٧	• <u>الزهرة عضو تكاثر</u>
٢٧	• <u>التلقيح غير الإخصاب</u>
٢٧	• <u>شركاء في الرحلة</u>
٢٧	• <u>الزوحية وحدود الاستدلال</u>
٢٨	• <u>ثلاث حلقات لا ينبغي جمعها في اسم واحد</u>
٣٠	<u>الفصل الثامن: الثمار والبذور — رزق يتجدد</u>
٣٠	• <u>من الزهرة إلى الثمرة</u>
٣٠	• <u>النضج تغير متدرج</u>
٣٠	• <u>طرق الانتشار</u>
٣٠	• <u>النظر في الثمر</u>
٣١	• <u>الثمرة في الحقل وفي المائدة</u>
٣٢	<u>الفصل التاسع: تنوع النبات وتكيفه</u>
٣٢	• <u>ماء واحد وثمر مختلف</u>
٣٢	• <u>أشكال متعددة للحياة</u>
٣٣	• <u>البقاء في بيئات متباعدة</u>
٣٣	• <u>الاستجابة لبست حكاية بشرية</u>
٣٣	• <u>اختلاف يدعو إلى الفهم</u>
٣٣	• <u>استجابة الفرد وتكيف النوع</u>
٣٤	<u>الفصل العاشر: من الخضرة إلى الحطام — دورة الحياة</u>
٣٤	• <u>عمر لا يقاس بموسم واحد</u>
٣٤	• <u>المرض والإجهاد</u>
٣٤	• <u>ما بعد السقوط</u>
٣٤	• <u>درس التحول</u>
٣٥	• <u>من العرض الظاهر إلى السؤال الصحيح</u>
٣٦	<u>الباب الثاني: النباتات في القرآن الكريم</u>
٣٦	<u>الفصل الحادي عشر: النخلة — من الطلع إلى الرطب والتمر</u>
٣٦	• <u>حضور يتجاوز الثمرة</u>

٣٧		• الطلع والقنوان
٣٧		• النخلة في حياة الإنسان
٣٨		• ذاكرة النخل
٣٨		• قاموس صغير حول النخلة
٤٠		الفصل الثاني عشر: الزيتون — الشجرة المباركة
٤٠		• الدهن في مشهد الطعام القرآني
٤٠		• زيتونة في القرآن
٤١		• معنى البركة
٤١		• الزيتون في الرواية
٤٢		• شجرة تحتاج إلى رعاية
٤٢		• قراءة الزيتون داخل مثل سورة النور
٤٢		• نص الزيت وطريقا روايته
٤٤		الفصل الثالث عشر: العنب — الكروم والجناات
٤٤		• الثمر والكرم
٤٥		• نعمة ومسؤولية
٤٥		• صاحب الجنتين
٤٦		• العنب والزبيب
٤٦		• من المادة الواحدة إلى تنوع الأفعال
٤٧		• عنقود يتكرر إهداؤه إلى السائل
٤٨		الفصل الرابع عشر: التين — الاسم والقسم والدلالة
٤٨		• ما بثبته اللفظ
٤٨		• وحه التفسير
٤٨		• الرواية وحدود الاستدلال
٤٩		• من القسم إلى الإنسان
٥٠		• مطلع السورة وخاتمتها
٥١		الفصل الخامس عشر: الرمان — تشابه الظاهر واختلاف الثمر
٥١		• الاسم في مواضعه
٥١		• المشاهدة قبل النتيجة
٥٢		• الروايات الغذائية

٥٢	• <u>أدب الانتفاع</u>
٥٢	• <u>كيف نفهم التشابه والاختلاف؟</u>
٥٣	• <u>عدد ألوان الفاكهة في لغة الخبز</u>
٥٤	• <u>الفصل السادس عشر: الحبوب والسنابل — غذاء الإنسان</u>
٥٤	• <u>طعام يقوم عليه العيش</u>
٥٥	• <u>الحبة في المثل</u>
٥٥	• <u>السنابل في قصة يوسف</u>
٥٦	• <u>بين الطعام والتجارة</u>
٥٦	• <u>السنابل بين الإنتاج وحفظ القوت</u>
٥٧	• <u>الفصل السابع عشر: البقل والقثاء والعدس والبصل والفوم</u>
٥٧	• <u>طلب طعام الأرض</u>
٥٧	• <u>أسماء واضحة وأسماء مختلف فيها</u>
٥٨	• <u>القثاء والاسم الحديث</u>
٥٨	• <u>درس يتجاوز القائمة</u>
٥٨	• <u>الحكم على الموقف غير الحكم على الطعام</u>
٥٩	• <u>الفصل الثامن عشر: السدر والأثل والخط</u>
٥٩	• <u>نباتات في سياق التحول</u>
٥٩	• <u>السدر بين الدنيا والآخرة</u>
٦٠	• <u>حدود تعيين الخط</u>
٦١	• <u>الهيئة ليست قائمة خير وشر</u>
٦١	• <u>ما الذي تغير في مشهد سبأ؟</u>
٦٢	• <u>الفصل التاسع عشر: البقطين — نبات في مشهد الرحمة</u>
٦٢	• <u>ما جاء في الآية</u>
٦٢	• <u>لفظ الشجرة</u>
٦٢	• <u>القرع والتعيين</u>
٦٣	• <u>الرحمة القريبة</u>
٦٣	• <u>الرعاية من غير إضافة تفاصيل مجهولة</u>
٦٤	• <u>الفصل العشرون: الخردل — الحبة الصغيرة ودقة الميزان</u>
٦٤	• <u>حبة الخردل في وصية لقمان</u>

٦٤	• <u>الصغر الذي لا يضع</u>
٦٤	• <u>العدل والميزان</u>
٦٥	• <u>لا حاجة إلى مبالغة نباتية</u>
٦٥	• <u>أثر عملي</u>
٦٥	• <u>الدقة الأخلاقية لا تحتاج إلى رقم مخبري</u>
٦٦	<u>الفصل الحادي والعشرون: الريحان والقضب والأب والمرعى</u>
٦٦	• <u>ألفاظ أوسع من نوع واحد</u>
٦٦	• <u>الريحان</u>
٦٧	• <u>القضب والأب</u>
٦٨	• <u>حق ما لا نأكله</u>
٦٨	• <u>الفهرس الذي يحترم عموم اللفظ</u>
٦٩	<u>الفصل الثاني والعشرون: الزنجبيل والكافور</u>
٦٩	• <u>اسمان في شراب النعيم</u>
٧٠	• <u>التقريب لا المطابقة</u>
٧٠	• <u>الكافور في استعمال آخر</u>
٧٠	• <u>الزنجبيل والغذاء</u>
٧٠	• <u>الاسم المألوف ووصف العالم الغائب</u>
٧١	<u>الفصل الثالث والعشرون: الحنات والحدائق والزروع والنبات غير المسمى</u>
٧١	• <u>جمال المشهد الكامل</u>
٧٢	• <u>المعروش وغير المعروش</u>
٧٢	• <u>نبات لم يذكر اسمه</u>
٧٢	• <u>حدود الموسوعة</u>
٧٣	• <u>الشجرة غير المسماة ليست موضعاً فارغاً</u>
٧٤	<u>الفصل الرابع والعشرون: أجزاء النبات وتحولاته في التعبير القرآني</u>
٧٤	• <u>من الورق إلى الأكمام</u>
٧٤	• <u>الخطام والهشيم والغناء</u>
٧٥	• <u>الشجر الأخضر والنار</u>
٧٦	• <u>تشبيه لا نبات مسمى</u>
٧٧	• <u>الكلمة النباتية داخل علاقتها البلاغية</u>

٧٨	<u>الباب الثالث: النبات في قصص الأنبياء وسيرة أهل البيت عليهم السلام</u>
٧٨	<u>الفصل الخامس والعشرون: آدم وحواء — الحنة والشجرة</u>
٧٨	• <u>الشجرة وحدود الاختيار</u>
٧٩	• <u>اسم لم يذكره القرآن</u>
٧٩	• <u>ورق الحنة</u>
٨٠	• <u>من النزلة إلى التوبة</u>
٨٠	• <u>اسم الشجرة في خطاب الإغواء</u>
٨٢	<u>الفصل السادس والعشرون: نوح — الخشب وسفينة النجاة</u>
٨٢	• <u>من الأرض إلى الفلك</u>
٨٢	• <u>العمل تحت الوحي</u>
٨٣	• <u>النبات لغة لأصل الإنسان</u>
٨٣	• <u>النجاة مسؤولية</u>
٨٤	• <u>اللوحي بين السخرية والنجاة</u>
٨٦	<u>الفصل السابع والعشرون: إبراهيم وهاجر وإسماعيل — الوادي غير ذي الزرع</u>
٨٦	• <u>وصف المكان</u>
٨٦	• <u>الدعاء للذرية</u>
٨٧	• <u>بين الآية وتفصيل السيرة</u>
٨٧	• <u>ثمرة تصل من بعد</u>
٨٧	• <u>القوت والأفئدة في دعاء واحد</u>
٨٩	<u>الفصل الثامن والعشرون: يوسف — السنايل وسنوات القحط</u>
٨٩	• <u>التدبير في ألفاظ وصية يوسف</u>
٨٩	• <u>رؤيا تحمل سؤال المستقبل</u>
٩٠	• <u>الزرع والادخار</u>
٩٠	• <u>الاقتصاد في زمن السعة</u>
٩٠	• <u>المعرفة في خدمة المجتمع</u>
٩١	• <u>تحويل التأويل إلى برنامج عمل</u>
٩٢	<u>الفصل التاسع والعشرون: موسى — الشجرة والعصا</u>
٩٢	• <u>النداء عند الشجرة</u>
٩٣	• <u>العصا قبل الآية</u>

٩٣	• <u>التحول بإذن الله</u>
٩٥	• <u>أدوات بسيطة ومعان عظيمة</u>
٩٥	• <u>العصا كما عرفها صاحبها</u>
٩٦	• <u>الفصل الثلاثون: بنو إسرائيل — طعام الأرض واختبار النعمة</u>
٩٦	• <u>الطعام في سياق جماعي</u>
٩٧	• <u>لا إداة للعدس والبصل</u>
٩٧	• <u>الأسماء والذاكرة الزراعية</u>
٩٨	• <u>النعمة تحتاج إلى وعي</u>
٩٨	• <u>حين يصبح الطعام لغة للذاكرة</u>
٩٩	• <u>الفصل الحادي والثلاثون: داود وسليمان — الحث والعدل</u>
٩٩	• <u>حقل يدخل باب القضاء</u>
٩٩	• <u>القدر الذي يثبت النص</u>
٩٩	• <u>حق صاحب الزرع</u>
١٠٠	• <u>العلم والتواضع</u>
١٠٠	• <u>الضرر الذي يقع في ليلة</u>
١٠١	• <u>الفصل الثاني والثلاثون: يونس — البقطين والعناية</u>
١٠١	• <u>الإنبات في خاتمة مشهد النجاة</u>
١٠١	• <u>جسد أنهكه البلاء</u>
١٠٢	• <u>ما نعلم وما لا نعلم</u>
١٠٢	• <u>الرحمة بعد المحنة</u>
١٠٢	• <u>من البقطين إلى الخلق</u>
١٠٣	• <u>ما بعد النجاة جزء من الحكاية</u>
١٠٤	• <u>الفصل الثالث والثلاثون: مريم وعيسى — النخلة والرطب</u>
١٠٤	• <u>الرطب بين العطاء والحركة</u>
١٠٤	• <u>عند جذع النخلة</u>
١٠٥	• <u>الرطب والماء</u>
١٠٥	• <u>حركة البد</u>
١٠٥	• <u>كرامة الإنسان في ضعفه</u>
١٠٦	• <u>غذاء الجسد وطمأنينة القلب</u>

١٠٧	<u>الفصل الرابع والثلاثون: النبي محمد — الأشجار في مشاهد الرسالة</u>
١٠٧	<u>• البيعة تحت الشجرة</u>
١٠٧	<u>• النخل في سورة الحشر</u>
١٠٨	<u>• الحائط والعمل</u>
١٠٨	<u>• لا انفصال بين الرسالة والمعاش</u>
١٠٨	<u>• الشجرة بوصفها معلماً للمكان</u>
١٠٩	<u>الفصل الخامس والثلاثون: ما روي من آيات النبي المتعلقة بالشجر</u>
١٠٩	<u>• خبر الشجرة في القاصعة</u>
١٠٩	<u>• حنين الخدع</u>
١٠٩	<u>• البركة في الثمر</u>
١٠٩	<u>• كيف تقرأ المحزنة؟</u>
١٠٩	<u>• من متن الخبر إلى تاريخ نقله</u>
١١١	<u>الفصل السادس والثلاثون: أمير المؤمنين — الغرس والوقف والعمل</u>
١١١	<u>• التوى بوصفه مستقبلاً</u>
١١١	<u>• من الماء إلى الصدقة</u>
١١١	<u>• مال يعمل بعد صاحبه</u>
١١٢	<u>• درس في الكرامة</u>
١١٢	<u>• الغرس الذي يتجاوز عمر الغارس</u>
١١٢	<u>• نخل إن شاء الله: تسمية الغرس بمستقبله</u>
١١٤	<u>الفصل السابع والثلاثون: النبات في سيرة بقية أهل البيت</u>
١١٤	<u>• العمل في البستان</u>
١١٤	<u>• الإمام الكاظم وطلب الرزق</u>
١١٤	<u>• الرضا وأخبار الغذاء</u>
١١٤	<u>• السيرة أوسع من قصة مشهورة</u>
١١٤	<u>• تفاصيل العمل تحفظ إنسانية المشهد</u>
١١٥	<u>• المسحاة وفتح الماء في خبر إسماعيل</u>
١١٦	<u>• مشاهد متممة في قصص الأنبياء</u>
١١٦	<u>• أيوب والضغث</u>
١١٦	<u>• صالح والنخل ذو الطلع الهضيم</u>

١١٧	• <u>شعب وأصحاب الأيكة</u>
١١٩	الباب الرابع: النبات في الأمثال القرآنية والرموز
١١٩	الفصل الثامن والثلاثون: الشجرة الطيبة والشجرة الخبيثة
١١٩	• <u>أصل ثابت وفرع صاعد</u>
١١٩	• <u>كلمة لها أصل وثمر</u>
١٢٠	• <u>الثبات والنمو</u>
١٢٠	• <u>الصورة المقابلة</u>
١٢٠	• <u>التفسير والرواية</u>
١٢٠	• <u>الأثر الذي يميز طيب الكلمة</u>
١٢٢	الفصل التاسع والثلاثون: الحبة والسنابل والجنة ربوة — أمثال الإنفاق
١٢٢	• <u>حبة الإنفاق وسعة المضاعفة</u>
١٢٢	• <u>ما بعد حجم الحبة</u>
١٢٣	• <u>الصفوان والتراب</u>
١٢٣	• <u>جنة ربوة</u>
١٢٤	• <u>حريق عند الحاجة</u>
١٢٤	• <u>أربعة مشاهد لسؤال واحد</u>
١٢٥	الفصل الأربعون: النبات يصير هشياً — صورة الدنيا
١٢٥	• <u>من اخضرار الأرض إلى تفرق المهشم</u>
١٢٥	• <u>المشهد الذي يعرفه الجميع</u>
١٢٦	• <u>الزينة حين تبلغ تمامها</u>
١٢٦	• <u>معرفة الفناء لا إهمال الحياة</u>
١٢٧	• <u>ذاكرة الزارع</u>
١٢٧	• <u>ما الذي يزول، وما الذي يبقى موضع اختيار؟</u>
١٢٨	الفصل الحادي والأربعون: صاحب الجنين
١٢٨	• <u>بستان ناحج وقلب مختل</u>
١٢٨	• <u>الحوار عند بوابة النعمة</u>
١٢٩	• <u>انقلاب المشهد</u>
١٢٩	• <u>ماذا نأخذ معنا؟</u>
١٣٠	• <u>ألفاظ الملكية حين تنقلب إلى استعلاء</u>

١٣١	<u>الفصل الثاني والأربعون: أصحاب الحنة</u>
١٣١	• <u>موعد حصاد بلا مسكين</u>
١٣١	• <u>طائف يغير الخطة</u>
١٣٢	• <u>صوت الاعتراف</u>
١٣٣	• <u>الحصاد امتحان مشترك</u>
١٣٣	• <u>الخطة الجماعية ومسؤولية الفرد</u>
١٣٤	<u>الفصل الثالث والأربعون: سبأ وحتتها</u>
١٣٤	• <u>عمران يقوم على نعمة</u>
١٣٤	• <u>الإعراض والتبدل</u>
١٣٤	• <u>قراءة النباتات في موضعها</u>
١٣٥	• <u>الشكر عمل عمراني</u>
١٣٥	• <u>العمران الذي يحتاج إلى ذاكرة شكر</u>
١٣٦	<u>الفصل الرابع والأربعون: الزرع الذي اشتد واستوى</u>
١٣٦	• <u>نمو متدرج</u>
١٣٦	• <u>إعجاب الزراع</u>
١٣٦	• <u>الجماعة وصورة المساندة</u>
١٣٧	• <u>القوة ذات الغاية</u>
١٣٧	• <u>بلاغة الأفعال المتتابعة</u>
١٣٨	<u>الفصل الخامس والأربعون: سخود الشجر وتسبيح الخلق</u>
١٣٨	• <u>الشجر في آية السخود</u>
١٣٨	• <u>عالم أوسع من الصمت</u>
١٣٩	• <u>سخود له كيفيته</u>
١٣٩	• <u>العلم لا يقيس كل معنى</u>
١٣٩	• <u>أدب المشاهدة</u>
١٣٩	• <u>بين لغة المختبر ولغة التعبد</u>
١٤١	<u>الفصل السادس والأربعون: الشجرة الملعونة والرموز في التأويل</u>
١٤١	• <u>موضع يحتاج إلى ضبط</u>
١٤١	• <u>قراءة الميزان</u>
١٤١	• <u>المقارنة بين التفاسير</u>

١٤٢	• <u>الرمز لا يبيح التعميم</u>
١٤٢	• <u>مراتب العبارة عند عرض الخلاف</u>
١٤٣	الباب الخامس: <u>النبات في روايات الطعام والطيب والتداوي</u>
١٤٣	الفصل السابع والأربعون: <u>الثمار والحبوب في روايات الطعام</u>
١٤٣	• <u>خريطة الأبواب</u>
١٤٣	• <u>الثمرة في النص</u>
١٤٣	• <u>مثال العدس</u>
١٤٤	• <u>مائدة متنوعة</u>
١٤٤	• <u>الفعل المروي والأمر العام</u>
١٤٥	الفصل الثامن والأربعون: <u>الخضروات والبقول وما يؤكل من النبات</u>
١٤٥	• <u>البقل على المائدة</u>
١٤٥	• <u>معنى البقول</u>
١٤٥	• <u>أسماء تحتاج إلى ضبط</u>
١٤٥	• <u>تنوع براعي الإنسان</u>
١٤٥	• <u>الاسم والجزء وطريقة الاستعمال</u>
١٤٦	• <u>حنان على المائدة: للخضرة سياق</u>
١٤٧	الفصل التاسع والأربعون: <u>الأزهار والرياحين والنباتات العطرية</u>
١٤٧	• <u>متعة لا تختزل في الأكل</u>
١٤٧	• <u>الرياحين في الكافي</u>
١٤٧	• <u>الورد والذكر</u>
١٤٧	• <u>عطر وحديقة وذاكرة</u>
١٤٨	• <u>حديقة تربي الانتباه إلى الجمال</u>
١٤٨	• <u>وعاء الربحان في يد الإمام</u>
١٤٩	الفصل الخمسون: <u>الأعشاب والتداوي — بين الرواية والدليل</u>
١٤٩	• <u>ثلاثة أسئلة مختلفة</u>
١٤٩	• <u>النبات ليس مستحضرًا واحدًا</u>
١٤٩	• <u>التداخل مع الأدوية</u>
١٤٩	• <u>مسؤولية الباحث الوقائي</u>
١٥٠	• <u>ما الذي تثبته دراسة على مستحضر معين؟</u>

١٥١	<u>الفصل الحادي والخمسون: النباتات الضارة والسموم والمواد المؤثرة</u>
١٥١	<u>• جمال لا يكفي للحكم</u>
١٥١	<u>• معنى الضرر</u>
١٥١	<u>• المادة والمنتج</u>
١٥١	<u>• حفظ العقل والنفس</u>
١٥٢	<u>• التعرف الموثوق يسبق تجربة المجهول</u>
١٥٣	<u>الفصل الثاني والخمسون: الأخبار العجيبة والمنافع المنسوبة</u>
١٥٣	<u>• حين تتسع الحكاية</u>
١٥٣	<u>• مثال فواكه الحنة</u>
١٥٣	<u>• الأعداد والتعميم</u>
١٥٣	<u>• سجل مفتوح للتحقيق</u>
١٥٣	<u>• كيف تتضخم العبارة في أثناء تداولها؟</u>
١٥٤	<u>• خمسة في خبر وأربعة في آخر</u>
١٥٥	<u>• خبر العدس وتصحيح العدد المتداول</u>
١٥٦	<u>الباب السادس: الزراعة في حياة الإنسان وعبادته وأخلاقه</u>
١٥٦	<u>الفصل الثالث والخمسون: الزراعة — العمل والرزق</u>
١٥٦	<u>• بد لا تحلل من التراب</u>
١٥٦	<u>• ازرعوا واغرسوا</u>
١٥٦	<u>• الرزق والمسؤولية</u>
١٥٧	<u>• مهنة وهواية</u>
١٥٧	<u>• كرامة العمل وما يحيط بها من حقوق</u>
١٥٧	<u>• متن الحث على الغرس وتقويم المجلسي</u>
١٥٩	<u>الفصل الرابع والخمسون: الغرس وإحياء الأرض</u>
١٥٩	<u>• بداية صغيرة</u>
١٥٩	<u>• الإحياء مصطلح فقهي</u>
١٥٩	<u>• المعرفة قبل الامتلاك</u>
١٥٩	<u>• بقاء النفع</u>
١٥٩	<u>• ما بعد يوم الغرس</u>
١٦١	<u>الفصل الخامس والخمسون: الأرض والماء والمحصول — الحقوق والعقود</u>

١٦١	• <u>أكثر من طرف</u>
١٦١	• <u>المزارعة والمساقاة</u>
١٦١	• <u>الماء مورد مشترك</u>
١٦١	• <u>الوضوح بحفظ المودة</u>
١٦٢	• <u>الاتفاق الواضح قبل انتظار المحصول</u>
١٦٣	• <u>الفصل السادس والخمسون: يوم الحصاد</u>
١٦٣	• <u>ثلاثة أفعال عند الثمرة والحصاد</u>
١٦٣	• <u>فرح يلتفت إلى الآخرين</u>
١٦٣	• <u>حق لا تختزله لفئة عارة</u>
١٦٥	• <u>ما سبق التوزيع</u>
١٦٥	• <u>أثر المشاركة</u>
١٦٥	• <u>الثمرة بين يد المنتج ويد المحتاح</u>
١٦٥	• <u>زرع يصلحه صاحبه ويؤدي حقه</u>
١٦٧	• <u>الفصل السابع والخمسون: النبات في العبادة والطهارة والتجهيز</u>
١٦٧	• <u>مادة تدخل في الحكم</u>
١٦٧	• <u>السجود</u>
١٦٧	• <u>السدر والكافور والجريدتان</u>
١٦٧	• <u>السواك والحناء والطيب</u>
١٦٨	• <u>تحديد المادة قبل تطبيق الحكم</u>
١٦٩	• <u>الفصل الثامن والخمسون: النبات في السكن واللباس والصناعة</u>
١٦٩	• <u>ما وراء المائدة</u>
١٦٩	• <u>ألباف تكسو الإنسان</u>
١٦٩	• <u>النار والوقود</u>
١٧٠	• <u>دورة الشيء</u>
١٧٠	• <u>ذاكرة المادة التي تسكن البيت</u>
١٧١	• <u>الفصل التاسع والخمسون: قطع الشجر وإتلاف الزرع</u>
١٧١	• <u>القطع لس حالة واحدة</u>
١٧١	• <u>الآية والسياق</u>
١٧١	• <u>حق الحار</u>

١٧٢	• <u>أثر يتجاوز المالك</u>
١٧٢	• <u>القرار الذي يصعب التراجع عنه</u>
١٧٣	• <u>الفصل الستون: المائدة النباتية — الشكر والاعتدال</u>
١٧٣	• <u>طعام له رحلة</u>
١٧٣	• <u>الاعتدال</u>
١٧٤	• <u>تنوع لا شعار</u>
١٧٤	• <u>حفظ الفائض</u>
١٧٤	• <u>الشكر الذي يظهر في العادة اليومية</u>
١٧٥	• <u>الباب السابع: النبات والبيئة والمعرفة</u>
١٧٥	• <u>الفصل الحادي والستون: النبات والتوازن البيئي</u>
١٧٥	• <u>شبكة لا زينة منفردة</u>
١٧٥	• <u>لبست كل زيادة إصلاحاً</u>
١٧٥	• <u>التربة مخزن حياة</u>
١٧٦	• <u>من المعرفة إلى الخلق</u>
١٧٦	• <u>منظر أخضر ووظيفة بيئية</u>
١٧٧	• <u>الفصل الثاني والستون: النبات وسائر الكائنات</u>
١٧٧	• <u>طعام ومأوى</u>
١٧٧	• <u>الملقحات</u>
١٧٨	• <u>ما تحت القدم</u>
١٧٨	• <u>الرعاية معرفة بالتوازن</u>
١٧٨	• <u>تغير زاوية النظر إلى الحديقة</u>
١٧٩	• <u>ما يصل من الحرث إلى الطير والبهائم</u>
١٨٠	• <u>الفصل الثالث والستون: تنوع النبات وحفظه</u>
١٨٠	• <u>تنوع داخل الاسم الواحد</u>
١٨٠	• <u>في الوطن وخارجه</u>
١٨٠	• <u>معرفة ترافق البذرة</u>
١٨٠	• <u>المشاركة المسؤولة</u>
١٨٠	• <u>حفظ التنوع وحفظ الذاكرة الزراعية</u>
١٨٢	• <u>الفصل الرابع والستون: من خبرة الفلاح إلى علم النبات</u>

١٨٢	• <u>ملاحظة تتعلم من الخطأ</u>
١٨٢	• <u>الإثثار الخضرى</u>
١٨٢	• <u>التطعيم والتجني</u>
١٨٢	• <u>خبرتي في المحبة والتعلم</u>
١٨٢	• <u>دقتر التحرية الزراعية</u>
١٨٤	<u>الباب الثامن: النبات في مشاهد الغيب والآخرة</u>
١٨٤	<u>الفصل الخامس والستون: سدره المنتهى</u>
١٨٤	• <u>الاسم في سورة النجم</u>
١٨٥	• <u>حد المعرفة الحسية</u>
١٨٥	• <u>المشاهدة والتوقير</u>
١٨٥	• <u>ما يترك بلا زيادة</u>
١٨٥	• <u>بلاغة ما لم يفصله النص</u>
١٨٦	<u>الفصل السادس والستون: بركات الأرض في عصر الإمام المهدي</u>
١٨٦	• <u>أمل متصل بالعدل</u>
١٨٦	• <u>خبر في الإرشاد</u>
١٨٦	• <u>لا توقيت من المحاصيل</u>
١٨٦	• <u>انتظار يعمل</u>
١٨٦	• <u>العدل والبركة في صورة مترابطة</u>
١٨٧	• <u>مقتطف البركات في سياق رد الحقوق</u>
١٨٨	<u>الفصل السابع والستون: إحياء الأرض والبعث</u>
١٨٨	• <u>أرض تبدو هامدة</u>
١٨٨	• <u>دلالة على القدرة</u>
١٨٩	• <u>من قنوط إلى رجاء</u>
١٨٩	• <u>مسؤولية من يرى</u>
١٩٠	• <u>المشاهد بوصفه مدخلاً إلى التفكير</u>
١٩١	<u>الفصل الثامن والستون: أشجار الجنة وثمارها</u>
١٩١	• <u>نعيم في لغة قريبة</u>
١٩٢	• <u>السدر والطلح</u>
١٩٢	• <u>ثمر غير منقطع</u>

١٩٣	• نعيم لا يصنعه الظلم
١٩٤	• التفسير والدوام في وصف الثمر
١٩٦	• الفصل التاسع والستون: طوبى
١٩٦	• طوبى في موضعها القرآني
١٩٦	• اللفظ القرآني
١٩٦	• الشجرة في الرواية
١٩٧	• الصلة بأهل البيت
١٩٧	• رحابة الاسم
١٩٧	• بين معنى اللفظ وخبر الشجرة
١٩٨	• خبر أبي عبيدة في تفسير القمي
١٩٩	• خبر البشارة في الخرائج والجرائح
٢٠٠	• الفصل السبعون: الزقوم والضريع
٢٠٠	• صورة تقابل النعيم
٢٠٠	• طعام لا يبرح
٢٠١	• الاسم الدنيوي والغيب
٢٠١	• خاتمة المسار
٢٠١	• نهاية الحكاية وسؤال الانتفاع
٢٠٣	• الخاتمة: ما الذي علمتني إياه حكاية النبات؟
٢٠٥	• الملاحق
٢٠٥	• الملحق الأول: معجم النباتات والمواد النباتية
٢٠٨	• الملحق الثاني: أجزاء النبات وأوصافه
٢٠٨	• الملحق الثالث: دليل الأسماء النباتية الصريحة في الآيات المستعملة
٢٠٩	• الملحق الرابع: دليل الألفاظ العامة والمشاهد النباتية
٢١٠	• الملحق الخامس: سجل الروايات المستعملة
٢١٢	• بطاقة توثيق: الحث على الزرع والغرس
٢١٢	• بطاقة توثيق: إصلاح الزرع وحق الحصاد
٢١٢	• بطاقة توثيق: انتفاع الطير والبهايم
٢١٢	• بطاقة توثيق: الزيت والشجرة المباركة
٢١٣	• بطاقة توثيق: عنقود الإمام علي بن الحسين

٢١٣	• بطاقة توثيق: ألوان الفاكهة والرمال
٢١٣	• بطاقة توثيق: حمل النوى وغرسه
٢١٣	• بطاقة توثيق: المسحاة وفتح الماء
٢١٤	• بطاقة توثيق: البقل وعلة الراوي
٢١٤	• بطاقة توثيق: العدس والقول المتداول
٢١٤	• بطاقة توثيق: الخضبة والريحان
٢١٤	• بطاقة توثيق: بركات الأرض في الإرشاد
٢١٤	• بطاقة توثيق: التبن وتقويم الخبر
٢١٥	• بطاقة توثيق: صدقة عين ينبع
٢١٥	• بطاقة توثيق: العدان في أخبار الفواكه
٢١٥	• بطاقة توثيق: خبر طوبى في تفسير القمي
٢١٥	• بطاقة توثيق: خبر البشارة في الخرائج
٢١٥	الملحق السادس: مواضع اختلاف التعيين والدلالة
٢١٦	الملحق السابع: سجل الأخبار التي تحتاج إلى تحقيق أوسع
٢١٧	الملحق الثامن: الأنبياء والشخصيات والمشاهد
٢١٨	الملحق التاسع: الأمثال النباتية ومقاصدها
٢١٩	الملحق العاشر: مصطلحات علمية مبسرة
٢٢١	الملحق الحادي عشر: الرسوم التعليمية
٢٢٤	الملحق الثاني عشر: بين التصنيف القديم والمصطلح الحديث
٢٢٤	الملحق الثالث عشر: بطاقة قراءة خبر ذي مضمون طبي
٢٢٥	الملحق الرابع عشر: سجل التأليف والمراجعة وحدود النسخة
٢٢٨	المصادر والمراجع
٢٢٨	١. القرآن الكريم
٢٢٩	٢. كتب التفسير
٢٣٠	٣. الحديث والمجاميع الروائية
٢٣٢	٤. السيرة وأخبار أهل البيت
٢٣٢	٥. البلاغة ودلائل النبوة
٢٣٢	٦. المصادر الفقهية
٢٣٣	٧. علم النبات والأحياء

٢٣٤	٨. البيئة وحفظ التنوع
٢٣٤	٩. الصحة والغذاء
٢٣٥	١٠. سيرتي وتحريتي
٢٣٦	الفهارس
٢٣٦	الفهرس الأول: الآيات القرآنية
٢٣٩	الفهرس الثاني: الأحاديث والأخبار
٢٤٠	الفهرس الثالث: النباتات والثمار والمواد النباتية
٢٤١	الفهرس الرابع: المصطلحات النباتية العلمية بالعربية
٢٤١	الفهرس الخامس: أجزاء النبات وأوصافه
٢٤٢	الفهرس السادس: الأنبياء ومشاهد الرسالة
٢٤٢	الفهرس السابع: أهل البيت عليهم السلام
٢٤٣	الفهرس الثامن: الأعلام والشخصيات
٢٤٤	الفهرس التاسع: الأماكن والبيئات
٢٤٤	الفهرس العاشر: القصص والأمثال
٢٤٥	الفهرس الحادي عشر: القيم والأخلاق
٢٤٥	الفهرس الثاني عشر: الموضوعات الفقهية
٢٤٦	الفهرس الثالث عشر: الظواهر العلمية والزراعة
٢٤٧	الفهرس الرابع عشر: مواضع الخلاف وحدود الدلالة
٢٤٧	الفهرس الخامس عشر: الرسوم والقوائم المرجعية
٢٤٨	الفهرس السادس عشر: الملاحق
٢٤٩	الفهرس السابع عشر: الفهرست العام

حكاية النبات

من آيات الخلق إلى مشاهد الآخرة



أروي في هذا الكتاب حكاية النبات، من البذرة والجذور إلى الأزهار والثمار، وأتبع حضوره في القرآن الكريم وقصص الأنبياء وروايات أهل البيت عليهم السلام.

وأصل هذه الرحلة بالغذاء والصحة والزراعة والبيئة، وصولاً إلى ما ورد عن الأشجار والثمار في مشاهد الغيب والآخرة، مع بيان مصادر المعرفة وحدود أدلتها.



سبعون فصلاً في ثمانية أبواب

تأليف الباحث والكاتب

السيد حسام زهاء مرتضى الصراف الحسيني

التأليف: ١٣ جمادى الأولى ١٤٤١ هـ — ٩ يناير ٢٠٢٠ م
المراجعة الأولى: ٢٥ رجب ١٤٤٤ هـ — ١٧ فبراير ٢٠٢٣ م
المراجعة الثانية: ٨ ربيع الآخر ١٤٤٨ هـ — ٢٠ سبتمبر ٢٠٢٦ م

ISBN: 978-1-7642390-2-8



9 781764 239028